شريف حتاته

الهزيمة

الجزء الثالث من رواية

العين ذات الجفن المعدني





دار الطليعة - بيروت

الدكتور شريف حتاته

الهزيمة

الجزء الثالث من رواية
العين ذات الجفن المعدني

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
ايار (مايو) ١٩٧٨

الاهداء

الى نوال السعداوي ... التي معها وقفت بقدمي ثابتاً فوق الارض ...... وسرت من جديد .

شريف حتاته

أبو عبدو البغل

انه ملفوف حول نفسه كالجنين في بطن امه . يداه عند الفك ، وركباه عند الصدر ، ومرفقاه منغرسان في لحمه عند الجانبين . لا يرى شعاعا بسيطا من النور . فالصندوق مغلق بإحكام ... ينزلق في جوف الليل ، بقعة مظلمة في الظلام الواسع الممتد فوق رمال الصحاري ، ظلام يغزوه من الأنف ، والاذنين ، والفم ، وعبر الجفون كالهواء الثقيل يكاد يخنقه ودبيب العجلات فوق الطريق ، ضجيج متصل يتنقل خلال الجدران المعدنية ويحتويه في المساحة الضيقة . واهتزاز السيارة ، كلما اندفعت فوق حفرة ، او مزلقان او حجر من احجار الطريق ينتقل الى جسده ويحولها الى عظام في علبة من الصفيح يرجها صبي ابله في حواري القرية .

توقفت السيارة فجاة ، فارتطمت بالجدار الصلب . ارتفع الغطاء بصرير صدىء ـ (الست تحتاج الى المزيتة) ... راى السماء ، ونجمة وحيدة ، وشبحا يميل فوقه . حدثه الشبح في صوت مبحوح : «الا تريد ان تخرج الى الدنيا» ؟.. «الدنيا» رنت الكلمة غريبة بعيدة في الفراغ كانها لا تخاطبه ، ثم افلتت منه في الليل المهجور . امتدت اليه يد تبحث عن يده فاصطدمت بكتفه في الظلام . امسك بها ... القبضة قوية والاصابع قصيرة . اخرج احدى قدميه بحرص فوق حافة الصندوق ، ووضعها على الطريق ، ثم رفع جسده ووقف . وخزات حادة تخترق عضلاته وعظامه . اعصابه كالنصال تقطع وتمزق في لحمه . سمع ضحكة الرجل، دوائر في الهواء ... ضحكة طفل غرر بالكبار ... خليط من الزهو والتحدي ... كالنافذة المفتوحة تستقبل الاغاني وشمس الصباح .

قال «أنا عطية مبارك ... انتقل الى جواري في السيارة ... لم يعد هناك خطر» .

***

وصلوا الى بور سعيد في العاشرة مساء . راى اضواء المدينة خفيفة متناثرة ثم متجمعة مثل عناقيد العنب . الان اصبحوا في قلبها ... الاطفال يجرون تحتها في نسيم الليل ، وجوههم تعكس ضوءها الاصفر المريض ... ورجال يجلسون حول موائد صغيرة في المقاهي ، وتباشير البطيخ الاخضر على الارصفة كرات تصعد فوق بعضها ، يلمع سطحها الداكن ، الأملس في كتمان . توقفت السيارة في شارع جانبي عند باب احدى العمارات ، تبدو رمادية حزينة في اشعة المصابيح الخافتة . وكلب ناحل الشعر يرنو بعينه الوحيدة اليهم في استعطاف . صعدا درجات السلم ... الاصابع القصيرة تقوده برفق عند المنحنيات ، واصوات النساء تصل اليهما من خلف الابواب المغلقة كانها ترتفع من قبر ، ورائحة البصل يقلى فوق اللهب ، ويحلق في الجو المكتوم .

توقفا عند الدور الرابع ... انفتح الباب وحده كأن احدا كان ينتظر وراءه ويتسمع خطوات القادمين ... صالة صغيرة ، وستارة ، ومرآة طويلة تتحرك فيها اجسام اختفت فجاة . خفق قلبه ... المصيدة تنتظره دائما ... عند اركان الشوارع ... وتحت ابيار السلالم .. وخلف ابواب الشقق . راى امراة تحمل لمبة صغيرة مطفأة في يدها . وجه اسمر تلفه طرحة بيضاء . قالت : «الحمد لله على السلامة . يا س عطية ... كنت في المطبخ عندما سمعت خطواتك» .

غمغم ببضع كلمات غير مفهومة كالمضطر الى حديث يريد ان يتفاداه . دارت المرأة حول نفسها في صمت وقادتهما الى حجرة على يمين الصالة ... اضاءت النور ، واشارت اليه بالدخول ، احس بعينيها ترمقانه من طرف خفي ...

جلسوا على المقاعد الغليظة المذهبة ... كتل جامدة استقرت مكانها منذ سنين ... السجاد القاتم يخنق وقع الأقدام ... والرخام الابيض يعرض سطحه البارد فوق الموائد .. مكان يذكره بصوان المآتم في القرية عند قدوم الشتاء ... الاجساد المتفخة في الصوف الخشن ... والوجوه الصارمة الصامتة .

سمعهما يتحدثان في همس خافت يرتد من الجدران ... حركتهما بطيئة خالية من الحياة ... كأنهم أموات بعثوا بعد الممات .. اين هو ؟... وكيف جاء ؟..... تحسس وجهه وذراعيه ليتأكد من وجوده ... من انه ما زال هو عزيز ، وليس شخصا آخر انتقل الى عالم مفقود .

نطقت المرأة في صوت رتيب كانها لا تفكر فيما تقول : «الف حمد الله يا رب ... اهلا وسهلا بالاستاذ عزب ... بور سعيد نورت» . غربة ثقيلة تحاصره في جو الحجرة المغلق» .

توقفت قليلا عند اسمه الجديد ... تعرف ان مجيئه مع عطية مبارك ليس عاديا ... وربما باحساسها ... عيناها تستقران على وجهه بين الحين والآخر... مرور عابر يشعر به دون ان يراه ... وربما تخاف على نفسها ... ليس مجرد خوف ... راى الذين يخافون من قبل ... توتر في حركة الاصابع ... شفاه جفت ، يمر فوقها اللسان ...... بحة خافتة في الصوت ... ولكن العيون ... العيون تنطق بالمشاعر الحقيقية ، بمزيج من القلق ، والود ، بشيء كالاستعطاف او الاعتذار ، هنا ماواك ، ونحن اهلك ، ولكننا نطلب الستر ...

وربما يتوهم ما ليس صحيحا ... ولكن شيئا ما يفتقده في هذا المكان ... يفتقده في هذه المراة بالذات ... اختفت تلك الفرحة العارمة التي احس بهما ساعة الهروب ...... يسبح في مياه مجهولة ... لحظة انتقال مفاجئة الى عالم افلتت منه مقاييسه وقواعده ...... ورقة جافة تدفعها رياح الخماسين... اهكذا في لمح البصر تتبدد لحظة الانتصار وتتسرب الفرحة قبل ان يدركها ؟... انه يفكر فيما هو آت ... حياته يقظة تبدد الاستمتاع .. في اعماقه رغبة ملحة في أن يسلم مصيره للآخرين ، ويستريح ... وفي اعماقه ايضا توتر الحيوان يحس بالصياد دون ان يراه ... وشك يتربص في الاركان المظلمة ... فليحترس ... اذا ماتت فيه الثقة لن يبقى الا الحيوان ... الا غريزة البقاء ... تحميه في لحظة ... وتدمره في اللحظة الاخرى اذا تركها تسري في الدم كالسرطان .

اتجه بنظراته الى عطية مبارك كانه يبحث عن سند يطمئن اليه . عينان صغيرتان تختفيان وراء الجفون المنتفخة ، وفك قوي ...

سألها الرجل :

اعددت له الحجرة يا حاجة ؟

اختلست نظرة اخرى خاطفة الى وجهه من تحت الطرحة، وتمتمت في برود: «كل شيء معد» صمتت لحظة ثم اكملت في شيء من الدلال : «اهلا وسهلا بالاستاذ عزب مبارك ... الف حمد الله على السلامة» ...

حجرة النوم يحتلها سرير ضخم من الخشب الداكن وغطاء اخضر . لا بد انهما خصصا له حجرتهما . اقترب من النافذة ... فتحها وملأ رئتيه بنسيم البحر ورائحة اليود . مراكب الصيد تعلو وتهبط كالنجوم عند الافق ، تظهر وتختفي ثم تظهر من جديد .

خلع ملابسه وارتدى جلبابا ابيض وجده فوق الشماعة . اسقط جسده المتعب فوق السرير . احس بلذة الفراش النظيف ، ورائحة الصابون ... المرتبة الطرية تنوء برفق تحته وتحتويه ببرودتها المنعشة . مد ذراعيه وساقيه كمن وجد مأواه الاخير ... لا شيء يهمه الان سوى ان يرتاح ... أن يستسلم للسكون المطبق ، حيث تختفي ذبذبة العيون اليقظة ، واهتزازات الاصوات في طبلة الاذن ... والكلمات التي تطلق من الافواه نحو هدفها المقصود ، والابتسامات المحسوبة ، وعقارب الساعة تقترب من اللحظة المنتظرة . لا شيء يهمه الان حتى

رائحة اللحم المشوي اذا جاع ، واستدارة الساق تحت راحة اليد ... والاحساس بدفئها الى جواره في الصباح ، وغمازات الوجه في طفله عندما يضحك .

لا شيء يهمه الان سوى ان يسقط برفق في هذا الكهف الرطب العميق حيث لا يرى ، ولا يسمع ، ولا يحس .

***

المائدة البيضاوية مغطاة بمفرش ابيض نحلت اطرافه من فرط الغسل ، وتناثرت فوقه بقع قديمة من الطعام كالصدأ . على المائدة اطباق بيضاوية كبيرة من السمك المشوي ، رؤوسها السوداء تتزاحم في ناحية ، وذيولها المفحمة على الطرف الآخر مرتبة بنظام كالمراوح الصغيرة ، تسقط منها قطرات من الزيت تتسع دائرتها في بطء ، صفراء فوق المفرش الابيض . احس بعيونها الزجاجية الخضراء تحملق مثبتة في الفراغ ، نظرة بلهاء ثابتة تفرض نفسها عليه كلما حاول ان ينصرف عنها . وتلال كثيفة من الارز تصعد عالية على أطباق بيضاوية ايضا . امتدت الاصابع تجس الاجسام المستطيلة المغطاة بقشرتها السوداء ، وتلتقطها وتمزقها . وزحفت الاظافر الحمراء لتنغرس في اللحم الابيض .

عند قمة المائدة يجلس عطية مبارك . الوجه المربع الاسمر ، والفك القوي ، والجفون المنتفخة تطل من بينها العينان الصغيرتان ، وبريق يتبدل بسرعة ، يظهر احيانا وينطفيء احيانا كالجوهرة تحت الاضواء ، كانه يروح ويجيء مع الافكار . يجلس صامتا كالسلطان ، موجود وغير موجود ، يسرح بعيدا عن زوجته الحاجة حسنية واولاده الذين يجتمع بهم كل يوم في مثل هذا الميعاد لتناول طعام الغداء في صمت لا يقطعه سوى صوت الملاعق فوق الاطباق ، والاسنان تصطك بالاسنان، وخرير الماء يسقط من الاكواب في الحلوق .

شيء ما يفصل هذا الرجل عن الجالسين حول المائدة ... احجار تراكمت فوق بعضها يوما بعد يوم ، وتصلبت في جدار عال ... فجوة عميقة حفرها العناد الأصم عبر السنين ... إحجام مستمر عن الخطوة الاولى التي تفتح طريقا للالتقاء ... هوة يجلسون حولها ويتاملونها في عجز ... تتبدد احيانا في ابتسامة نادرة يطلقها نحوهم ... ابتسامة تشرق بضوء مفاجيء في الوجه المنحوت ثم تنطفيء فجاة كما جاءت ... او في احاديث تدور بينهم فيسري الدفء كالتيار الكهربائي ... وتنطلق الكلمات من الافواه مثل النبع الذي يجد طريقه الى سطح الارض .

عندئذ كان يشعر عزيز انه امام اسرة ككل الاسر ... تربط بينها لحظات الفرحة ... ولحظات الشقاء ... واحداث ، واحزان ... وحفاظ على ذكريات مضت ... عندئذ تنكمش مساحة المائدة البيضاء التي تفصل بينهم ... وتقترب الرؤوس ... وتلتصق الاكتاف وتصبح الحياة كما ينبغي ان تكون ... احساس بالقلب ... وضحكات تصفو وكلمات تصدق عندما تعبر .

ولكن في اغلب الايام كان يرتفع الجدار في اصرار ... ويسيطر الصمت المتحجر .... كان حياة كل منهم قائمة بذاتها ... تسير في طريقها الخاص ... فيلتهمون طعامهم في لحظات ... وينفضون كالهاربين من المواجهة ... مواجهة الحقيقة التي تصرخ في صمتهم ، بان ثمة شيئا مهما انكسر بينهم وضاع .

مر شهر منذ ان دخل من باب الشقة مخترقا الستار الذي يقود الى عالم عطية مبارك . ثلاثون يوما وهو حبيس الشقة ، بل في اغلب الوقت حبيس الحجرة لا يخرج منها الا ليحضر هذه الوليمة الصامتة ويعود حيث كان الى جوار النافذة التي تطل على سطح البحر ، يلمع بريقه الاخضر خلال شبورة هشة تثيرها لفحات الشمس ، وتفوح منه رائحة الزيت ، والقطران مختلطا باليود ، وعفن الاسماك الميتة . ساعة بعد ساعة يتابع فيها السفن ، تظهر نقطة سوداء وخيطا من الدخان عند الافق ، يقترب ببطء مرهق ، فيستطيع رؤية المداخن بدوائرها السود والحمر ، والزوارق تختفي تحت اغطية داكنة واطواق النجاة البيضاء مثبتة على الجانب ، وصفوف العيون المعدنية ترسل اشعات الضوء من جفونها النحاسية ، وتحملق بنظرة صماء نحو الشاطىء . ثم تظهر اجسام البحارة يتحركون فوق سطح الباخرة كالدمى ، يشدون على الاحبال ، وينتقلون من مكان الى مكان ، كالآلات المدربة على النظام ، ويتوقفون بين الحين والحين لالقاء نظرة استطلاع قلقة على المدينة ، وبيوتها ، ومراسي الميناء ، وعلى الاوناش ترفع ذراعا اسود نحو السماء .

كلما راى سفينة جديدة اسرع نبضه . ربما تكون هي تلك التي ينتظرها ؟ فينتفض من مقعده ، ويأخذ في الدوران حول الحجرة كالتائه الذي يبحث طويلا عن شيء مفقود حتى أعياه البحث ، فاصبحت عيناه تمران على سطح الجدار ، والمقاعد ، والاغطية ، دون ان تنفذ الى ما تحتها . فقد القدرة على التركيز . عجز حتى عن قراءة الصحف والمجلات . عيناه تجريان على سطح الكلمات دون ان تنفذ الى معانيها . تلاشت الذكريات ، لم يعد قادرا على بعثها من جديد . غدت بالنسبة اليه مجرد اشباح تتحرك على سطح الخيال ، كمخلفات المنازل المهجورة يلقى بها في النهر ، فيجذبها التيار الى المصب او يتركها في الاحراش عند الضفاف لتضيع وكان الماضي بالنسبة اليه انتهى . كان قد تمرس على التامل ولكن الافكار ، والاحاسيس ، وتفاصيل الحياة ضاعت كلها الان . كأن عقله غربال قديم ، عيونه الممزقة تسع قبضة اليد ، فلا تحجز الا الفراغ العقيم .

شيء واحد استولي عليه دون غيره من الاشياء ، صورة سفينة تنساب فوق البحر ، وشاطىء بعيد هلامي يقترب ، وقدمان تسيران بخطوات واسعة فوق ارض مجهولة يسقط عليها المطر ، ارض لا يستطيع ان يتخيلها ولا يسعى الى تخيلها . ويقين راسخ انه سيفلت هذه المرة من اولئك الذين يبحثون عنه ، من الرجال الذين يقفون على ناصية الشوارع ، ويرسلون الاشارات اللاسلكية ذبذبات سريعة عبر الليل ، ويتتبعون الخيوط ، والآثار ، ويلتقطون الاخبار من أفواه السذج

والجواسيس ، ويتسكعون في قريته ، ويدقون ابواب البيوت في تلك الساعة المظلمة الصامتة التي تنذر بقدوم الفجر ، ويتفرسون في وجه الطفل كانه يحمل السر الذي يريدون معرفته ... وقد انتصب بجسمه الصغير عند طرف الحجرة، تنتقل عيناه من النعاس الى يقظة من نوع جديد ، يختزن في عقله ذلك الخوف الغامض ، وتلك الاصوات الغريبة الغليظة التي تقطع سكون الليل وتحول الدنيا الى اشباح يدفنها في نفسه ربما لتؤرقه في يوم من الايام .

هكذا مرت الايام وعقارب الساعة تزحف فوق الارقام كأقدام الذباب فوق العسل الاسود . الزمن صامد لا يتحرك . فالايام الضائعة ليس لها حساب في حكم الزمن .

وفي ذلك اليوم كان مستلقيا على ظهره فوق السرير . السقف لونه ازرق فاتح تتخلله بقع في الاركان حيث نشت الرطوبة . النتيجة على الحائط تقول الاحد ١٧ يوليو ، والقيظ حارق ... شهر منذ ان اتى الى هنا . شهر ... الكلمة تكرر نفسها في ذهنه ... شهر ... قام من رقدته وتوجه الى النافذة ... البحر ساكن لا تحركه موجة واحدة واشعة الشمس تطلق غمامة كالبخار تختلط بالدخان الصاعد من المدينة ، ومن السفن ، وتحول السماء الى طوق رمادي يكتم الانفاس. اغلق الشيش وعاد الى السرير ، ليستلقي فوقه من جديد ، واضعا يده خلف راسه حتى يبعدها عن سخونة الفراش . منذ نصف ساعة انتهوا من غذائهم الصامت . انقلب على جانبه واستعد للنوم عندما فتح الباب فجاة ، ليجد عطية مبارك واقفا امامه بجسده المربع . لمعت اسنانه تحت الشارب الاسود في ابتسامة سريعة ... ومضة من السخرية اطلقها لحظة ، ثم عادت التقاطيع الجادة لرب الاسرة الى وضعها المعتاد .

كان يحمل في يده حفنة من الصحف ، والمجلات ، القى بها على السرير ثم جلس .

«اقرا» .

مد عزيز يده الى احدى المجلات «آخر كلمة» عدد ممتاز عن رمضان والصيف. على الغلاف صورة فتاة شقراء تقفز بسيقانها الفارعة وسط رذاذ الامواج . الاسكندرية .... وايام مضت كان فيها خالي البال ... اعاده الصوت المبحوح من تاملاته .... «فيما سرحت» ؟ اشار الاصبع القصير الى احد العناوين كانه سيخترق الورق . «هروب احد زعماء الحمر من مستشفى القصر العيني».

فتح عزيز المجلة ... على صفحتي النصف عنوان بالخط العريض «قصة هروب احد الحمر» ثم مجموعة من الصور . الحكيمة زينب تنظر اليه في اعتداد، السرير الذي كان ينام عليه ، .. والراديو ، وعمود الغذاء مفتوح ، واطباق الطعام على المائدة تبدو موحشة في وحدتها ... الحارسان حليقا الراس في ملابس السجن ... الاقدام الحافية ونبت من الشعر على الذقن .. والعيون تتطلع اليه في ذلة ... من حراس الى مسجونين ... هكذا في لحظة ... الحياة عندما تغدر ... في لحظة ... كطعنة السكين في الظلام ... وصورة له ... المجرم

الهارب . وجه مشوه ينطق بالحقد . اهذه هي ملامحه ؟ التفاصيل مدروسة بدقة لتترك الانطباع المطلوب ... وتحقيق الاستاذ عبد الرحمن قنديل مدروس ايضا ... لم يكن الدكتور عزيز عمران يتحدث مع احد من القائمين على خدمته، او حتى يشكرهم على العناية التي كان يلقاها ... كان غريب الاطوار ... لم ير وهو يبتسم قط ، حتى كرهوا الدخول في حجرته لاعطائه حقنتــــه او قياس الحرارة . في الايام الاخيرة بدت عليه علامات العصبية الشديدة ، يدخن كثيرا ، ويعامل الآخرين بفظاظة متزايدة ، ولا يطفىء الانوار في حجرته الا عند ساعــة متأخرة من الليل .

ومما يدل على قسوة هذا الرجل انه لم يفكر في الضابط الشاب اصورة لوجه وسيم يبتسم تحت الكاسكتة وثلاث نجوم تبدو نقطا سودا فوق الكتف الابيض) والجنديين ... والأسر والاطفال . لقد غدر بحراسه في شهر رمضان المبارك . انه ينتمي الى تيار ملحد هدام ، ولا تهمه في شيء مقدسات شعبنا ، وتقاليده ، ومعتقداته الدينية» .

جرت عيناه فوق السطور . الضربة اثارت سعارهم . الى جوار الصور رسم يبين مساحة من السواد ، وشبح ابيض يتسلل من دورة المياه ، وينزلق على حبل طويل من النافذة ليسقط نفسه في حوش صغير تحيط به مباني المستشفى. ورسم آخر للشبح يخرج على اطراف اصابعه من باب خشبي في الحوش . «لا بد ان المجرم الهارب كلف احدا بصناعة مفتاح للباب» . التفاصيل التي جمعناها نتيجة التحريات الدقيقة التي قام بها رجال الامن ، والجهود الخاصة التي بذلها محررنا الاستاذ عبد الرحمن قنديل حيث قضى ثلاثة ايام بلياليها يقابل كل من اتصل بالدكتور عزيز عمران ، وفي تتبع كل خطواته ، وتحركاته السابقة علـــى الهروب » .

انتزعه الصوت المبحوح من بين السطور :

«أعجبتك القصة ؟»

نظر اليه ... لمح الابتسامة الساخرة الخاطفة من جديد . ترى فيما يفكــــر الرجل الان ؟ كل يوم يقضيه بينهم يهددهم بخطر متزايد ، ما افظع هذا الشعور بأن مجرد وجوده ، قد يضر الآخرين ... ويدمر حياتهم ... عيونهم تستقر على وجهه بنظرات تبدو عادية ، ولكنها تخفي القلق الذي يجعلهم يحســبــون الايام ، والساعات ، والدقائق ، ويتمنون رحيله عنهم .. بل وربما يندمون على اليــوم الذي اقتحم فيه حياتهم... انه في بيتهم كاللغم الذي قد ينفجر في اية لحظة... ولكن عطية مبارك هو الذي اختار ان يأويه . ترى كيف امكنه ان يتجاهــــل المخاطر ... وان يفعل كل ما فعله بهذه البساطة؟... ما الذي دفعه الى ذلك...؟ ليست بينهما اية روابط من ذلك النوع المعتاد ... لا صداقة ... ولا علاقـات اسرية ... ولا حتى زمالة المعارك ، او التزام التنظيم ... هل هي مجرد شهامة ازاء أب لجأ اليه من اجل ابنه ... او اعجاب عن بعد بمن يضحون ؟ هل هي روح

المغامرة والتحدي ؟... ام تلك الاسلاك الرفيعة الخفية التي تنشأ بين اولئك الذين يشعرون انهم من نوع واحد .... من فصيلة واحدة ... فصيلة الذين لا يرضون ... ولا يرضخون للقهر ... ولا يسلكون مسلكا عاديا في الحياة ؟ ام هي شيء معقد ومركب تدخل فيه كل هذه العوامل مجتمعة ... وربما عوامل اخرى لم تخطر له على بال ؟... انه يريد ان يفهم هذا الرجل .

احس بالاسئلة تلح عليه ... اعتدل في جلسته وهمّ بالكلام ... فاجاه عطية مبارك بجملة قصيرة خرجت من بين شفتيه كالطلقة :

«هيا بنا ننزل الى المدينة» .

تطلع اليه في دهشة صامتة .

«الم تسأم البقاء في الحجرة ؟... هل زرت مدينة بور سعيد من قبل ؟... ليس انفع للانسان من الحركة ... والناس» .

«ولكن ...»

«لكن ، ماذا ؟ اتخاف» ؟ نظر اليه كانه يتحداه ... تردد عزيز لحظة ثم قال:

«نعم ... اخاف ... اخاف على نفسي ... وعليكم» ...

«لا تخف ... الا تثق في تقديري ؟... هذا هو الرد الوحيد عليهم» قالها في شيء من الغضب .

«ايضيع كل شيء في مغامرة لا فائدة منها ؟»

نفخ عطية مبارك في ضيق وانتصب واقفا ... لماذا يصر كل هذا الاصرار... تحركت في اعماقه شعرة من الشك كالدودة الخبيثة ... انه من الحزب الحاكم ... ولكنه كان يستطيع ان يسلمه من البداية ... وأن ينتظر حتى يصعد الى ظهر السفينة مثلا ... انه لم يبد اي اهتمام باسراره ، او علاقاته او الوسيلة التي تمكن بها من الهرب . احس بضميره يؤنبه ... اهذا جزاء الرجل ...

راى في عينيه غمامة كالحزن ... كانه ادرك بحاسته ما يفكر فيه «فيما سرحت ؟» ...

«لا شيء» .

رمقه بنظرة فاحصة ثم استطرد :

«على اية حال ... كما تريد ... هناك تجارب لا بد ان يخوضها الانسان اذا اراد ان يعرف، واذا اراد ان يوقن... من خاف التجربة عجز عن المعرفة ... الى متى تبقى قابعا في حجرتك ؟... هيا بنا ... هيا بنا يا اخي ...» .

قام عزيز من فوق السرير ... فتح الدولاب واخرج حذاءه ... توجه الى المقعد في حركة بطيئة ، مترددة ، كانه يفكر في الخطوة التي اوشك ان يقبل عليها ... دس قدميه في الحذاء وانحنى يوثق الرباط ... «اذا اردت ان تذوق طعم الحياة عش ايامك على حافة الهلاك» ... وقف كمن حزم امره :

«أنا جاهز» .

***

الاسفلت الاسود يتموج تحت لفح الشمس ويحرق بطن القدم من خلال النعال ... عينا الطفل ترمقانهما في اهتمام من فوق كوم من الفضلات ، وعظامه البارزة تكاد تخترق الجلد فوق الردفين العاريتين . الشارع خال من المارة ... هرب الناس في بيوتهم من الحر ، وترك الباعة عربات البلح والخص ، ليستلقوا كالجثث الهامدة تحت ظل جدار او باب عمارة ، تدور اسراب الذباب في اعياء فوق رؤوسهم ، وفوق اصابع البلح السمر ، كانها ما زالت تبحث عن مكان تحط فيه ... ورجل جلبابه الممزق مرفوع حول وسطه ، يقف امام حانوته ، ويلوح بخرطوم اسود رفيع ، فيسقط سرسوب ضعيف من المياه عند قدميه كالعجوز عندما يبول . السماء قبة من الرصاص تضغط على المدينة ، وعلى الناس ، وتحاصرهم . وضوء الشمس يصطدم بالمباني ، والجدران ، والاسوار ، واسفلت الشوارع ، ليرتد شعاعات حادة تغلق الجفون من الالم .

سارا فوق الرصيف بخطوات بطيئة . وضع عطية مبارك منديلا تحت طربوشه وتركه يتدلى على الجانبين . كان يرتدي بدلة تبدو كالكيس الابيض حول قوامه القصير ، وحذاء صيفيا فاتح اللون يئن مع كل خطوة تحت ثقله فوق الرصيف ، ويحمل في يده اليمنى منشة كذيل الحصان ، ويميل بجسمه من جانب الى آخر في حركة سريعة تشبه هروب البطة في حواري القرية عندما يفاجئها بوق السيارة .

التفت الى عزيز بابتسامة عريضة اضاءت وجهه الاسمر تحت المنديل . بدا سعيدا كالطفل . بعد مسافة قصيرة اجتازا شارعا عريضا اصطفت على جانبيه اشجار عالية . عند الناصية امام مقهى فسيح الارجاء ، كان ينتظرهم رجل يرتدي سروال السواحل الواسع ، ويضع فوق راسه قبعة بيضاء من القماش ، اطلت من تحتها العينان الصغيرتان وسط التجاعيد . شد على ايديهما بقسوة . احس بالمقذاف والحبال في الكف الخشن ، وبالآفاق البعيدة في نظرة العينين .

صعدوا درجتين ودخلوا الى المقهى . مروا بين الرؤوس المحنية فوق رخام الموائد الرطب الى باب صغير في نهاية الصالة الكبيرة . لمح شابا يجلس بجوار الباب ... الصدر العاري تسيل عليه قطرات من عرق ... وعضلات الساق بارزة تحت الجلد ... وقدمان عريضتان ثابتتان على الارض كخفي حيوان يستعد للقفز .

الحجرة فيها مائدة طويلة ، ومقاعد من القش ، وعدد من الرجال يدخنون ، ويتحدثون . وفوق المائدة اكواب صغيرة من الشاي تركت دوائر من البلولة ، وآثارا من السكر فوق الطلاء الداكن . الجو خانق من شدة الحرارة ، وسحب الدخان ، والانفاس .

ارتفع ضجيج الترحيب مختلطا باحتكاك المقاعد فوق البلاط ، ثم ساد الصمت . احس بالعيون تدرسه بنظرات تفلت من تحت الطرف وتمر كالفراشة الباردة فوق وجهه .

«كيف حال الرجالة» ؟

«نحمده» .

اجلسه عطية مبارك على مقعد الى جواره وسال معاتبا :

«اين شاي الضيوف» ؟

انتفض شاب طويل القامة من جلسته ودفع بكوبين من الشاي امامهما في حركة استدراك سريعة ...

«ليس امامنا متسع من الوقت اليوم . فلنبدأ» .

ساد الصمت من جديد .

دار بعينيه حول الجمع وابتسم ابتسامة خفيفة تكاد لا ترى ثم قال :

«يمكنكم ان تتكلموا . الاستاذ عزب صحفي من مصر وقريبي» .

رنت الاصوات عميقة في جوف الصدر :

«اهلا وسهلا ... الف مرحب ... بورسعيد نورت» ..

اقتربوا من المائدة واغلقت الدائرة كالطوق يحكم حلقاته . النافذة الوحيدة في الحجرة عليها ستارة . العيون والاسنان تبرق في نصف الظلام كالاشارات الضوئية الصامتة في الليل . الهدوء ينكسر بالتدريج ، والاصوات العميقة تحتدم، وترن بنبرات متباينة في المساحة المغلقة المحدودة . الفاظهم مبهمة تختفي معانيها في البداية ، كالنسيج تتداخل خيوطه وتتشابك لتظهر الصورة واضحة في النهاية . المخازن معدة ولكن هناك حاجة الى اعادة توزيع الذخيرة على نحو افضل. ما زالت تنقصنا ثلاثة مخازن حتى تكتمل السلسلة ... لا ... نصف العدد فقط مدرب على التسلل ... اسمعني ، ولا تقاطعني يا رجل ، فلم اكمل كلامي بعد ... نظام الحراسة تغير ، ولا بد من دراسة العملية من جديد ... نعم أعددنا كل شيء ولكن لم تعد الخطة صالحة في الظروف الجديدة» . عينا الرجل الذي يتحدث تنظران دون ان تطرف الجفون ... نظرة القط مسطحة عملية ، تطل فوق عظام الصدغ العريضة ، وجسده القوي ثابت لا يتحرك كتمثال من الحجر «زمان كنت احب القمر والآن اكرهه» وجه شاب . اهداب طويلة حالمة وملامح منحوتة في دقة قاطعة كالفارس الاسمر ... «اننا نعمل مع الصيادين الان ... النساء اقوى من الرجال والله» المرارة تتسلل الان كالخيط الرفيع في جرس الكلمات ، تفقد دفئها وتجرح كالاسلاك الشائكة «الوفد ... شاخ الرجل ، وتزوج ، واستطعم الفراش ، واللحم الطري ، يا حاج ، الاحترام واجب ولكنه ليس درعا يقي من رصاص البنادق ... لا مجال للتردد الان . نحن ايضا نفكر في بيوتنا عندما نزحف فوق الرمال . انها ساخنة كبطن امراة في الليل ... يتحدثون عن الوطنية ولا ينسون الاطيان ، والعقارات ، وحسابات البنك ... عين في الجنة وعين في النار ... تقول شباب الوفد يا سي عطية ... كم عددهم ... والشيوعيون ... بعضهم يعمل معنا ولكن ... ربنا يستر ... كل شيء سيتضح ... يا عم عطية انت على العين والراس ، ولكن القيادة في القاهرة... تمام ... تمام المهم الصيادون ، والحدادون ، واولاد الأزقة ... !الله يرحمك يا

شيخ سيد كانك تغني معنا الان» .

الكلمات تدور وتدور مع دوائر الدخان ، واكواب الشاي . والضوء المتسلل عبر الستارة ينسحب تدريجيا فيكاد لا يرى سوى بريق العيون ، والاسنان ، ويد تلوح كالوطواط في الغسق ... الانفاس تلهث في سباق اقترب من النهاية ... وعطية مبارك يسأل ، ويسأل في اصرار مرهق ، ويعود مرة ، واثنتين ، وثلاثا ... «لا اسأل رمضان عن التوزيع واخبرني ... معلوماتك ناقصة ... المسافة اكثر من خمسمائة متر ... لا تخف اعتمد على الناس ... تحت الرماد جمر سيشعله الريح ... لسنا جيشا نظاميا يعتمد على الاوامر .

الجسد المربع ثابت على المقعد ... نقرة الاصابع القصيرة فوق المائدة وحدها هي التي تنم عن شحنة التوتر . الوجه الحزين فقد جموده ، والجفون لم تعد منتفخة ، كالمريض عندما يعود الى عنفوانه . تحس وانت جالس الى جواره انه يعيش اللحظة كاملة ، وتفاجأ به يضحك حتى الدموع .

فتح الباب . راس ، وعنق وكتف عاري وذراع مفتول . اختلطت معالمها في الضوء المفاجىء . قال الشاب :

«يا رجال ... جاء وقت الانصراف» .

خرجوا على دفعات بطيئة . نسيم البحر ينساب من ابواب المقهى المفتوحة ، واشعة الشمس تفقد حدتها وتتحول بالتدريج الى رقة الشروق والوانه . الزحام يشتد على الارصفة وداخل الصالة الفسيحة حول الموائد الصغيرة ، يبرق نحاسها في ضوء المصابيح . صوت النرد يرن وسط همهمة الكلمات «عشرة آلاف جنيه ... تكسب بكره ... واحد شاي وصلحه ... الفلوكة خشبها سوس يا معلم ... العين بصيره واليد قصيره ...» .

جلسوا في ركن الى جوار النافذة . رفع عزيز قدمه فوق الصندوق . اصابع الحلاقين وماسحي الاحذية تبعث الراحة ... تلمس الراس والقدمين حيث يترسب التعب ... كتف الصبي تبرز من الجلباب سمراء كالدهان الذي يبسطه باجتهاد .. راسه الصغيرة المتربة تنحني فوق الحذاء ، يرفعها بين الحين والحين كالحيوان الاليف يتطلع الى سيده بنظرة متسائلة مستعطفة ، ثم ينحني من جديد ، ليمسح بالفرشاة في جد مضاعف . انت تكره القدم المرفوعة في وجهك وهو يحبها لانها قوت يومه . يرى وجهه ، وسعادته في لمعان الجلد ... يمشي في الشوارع وعيناه على الارض ... على الارض دائما وليس في السماء ، تتبعان حركة الاقدام والاحذية ... واحد اثنين ... واحد اثنين ... خطوات منتظمة تسير ... الى هدف او ربما الى ضياع ... واحد اثنان ... واحد اثنان ... اربعة عشر ... عشرون ... مئات الاحذية ... كلها رجالي ... فأحذية النساء محرمة في الشوارع والمقاهي ـ ابيض واسود ، بني واصفر ... احذية جديدة تعلن عن نفسها . واخرى تآكلت نعالها ، وثالثة يبرز منها الاصبع ... احذية ميري فيها قسوة غليظة ، ... واخرى مدببة سوداء فيها قسوة ناعمة كالليث .

واقدام بلا احذية تقف طوال النهار والليل امام العزبة تبيع الاحذيــة ... عين الصيرة ، ورائحة المدابغ تصعد الى انفك عندما ينقلونك من القلعة الى ليمــان طره ... تذكرك برائحة المجاري يحملها نسيم الصيف في الليل عبر نافذة المكتب حيث تجلسان ... الاصابع لم تعد تعبث بحذائه والصبي جالس امامه في صمت ينتظر ... عيناه واسعتان فيهما شقاوة وحزن ... خذ ... قرشين ... انت رجل عطوف ... فالسعر المعتاد قرش واحد فقط ... ابنك يشرب اربعة اكواب من اللبن يوميا وياكل البيض واللحم . انك خير الآباء ، تحب اطفالك حبا كبيرا... خذ قرشين ، وليس قرشا واحدا فقط .

تنبه فجأة الى جمع كبير من الناس يتزاحم حولهم ... خلع عطية مبــارك طربوشه كاشفا عن شعره الاسود المقصوص ، وجبهة عريضة تلمع في ضــوء المصابيح . جلس عدد من الرجال على المقاعد حوله يتبادلون معه كلمات قليلة بين الحين والحين ، ثم يصمتون كانهم لجنة من المستشارين يبدون آراءهم فيمــا يجري . احس انهم اعتادوا هذا اللقاء كل يوم .

تحول الجمع الى سيل متحرك متغير من الوافدين ، رجال ونساء ، اطفــال وشيوخ ، اصحاء وعجزة ، يقتربون من الرجل ويتحدثون اليه ثم ينصرفون ليحل محلهم آخرون .... انحناءة وكلمات هامسة في الاذن تخفي شيئا ... وكلمات جريئة ترن وتعلو فوق همهمة الاصوات ... عيون مفتوحة تتحدى ... وعيون ضيقة تتذبذب باحثة عن شيء مفقود .... اياد خشنة عريضة تنفر عروقها ... واياد ناعمة تبرق اصابعها بالفصوص ... ملابس تفوح منهــا رائحة العرق ، وملابس هفهافة ترفرف برائحة العطر والاثم ... جفون مشوهــة من التعب والرمد ... وجفون تزدان بالكحل ... نظرات تشتهي الارداف ، ونظرات تبحث عن الفهم ... مناديل ... وسراويل ... وجلاليب ، وطرح . الوان الشبــاب الزاهية ، وسواد الحزن .. صيحات غضب ، ولحظات تفكير وتأمل . بكاء علـى مفقود ، وضحكات تسحق الالم ... طلبات ، .. وشكــاوى ، واقتراحات ، ومشاريع ، ووثائق ، ومذكرات ... اوراق واوراق ، كبيرة وصغيرة سليمــة وممزقة ، مختومة وممضية ، تنتهي كلها عند رجل واحد ، طربوشه يرقد الــى جواره ، احمر فوق الرخام الابيض ، وجبهته العريضة تلمع بالعرق المنهمر تحت اضواء المصابيح ... بؤرة هادئة ثابتة تحيط بها الدوامة المضطربة المتلاطمة من الاجسام ، والرؤوس ، والعيون ، والايادي ، والافواه المفتوحة ... ووجه امراة عجوز يطل من النافذة ويقول :

«مش عايز كبريت الليلة يا س عطية ؟»

التفت الى الصوت المرتعش واليد الممدودة بعلبتين من الكبريت . نظر اليها حيث كانت تقف على الرصيف كمن ينتظر نطقا بالحكم .

«امال فين الواد يوسف يا مبروكة ؟»

«بيذاكر ... عنده امتحان بكره» .

صمت لحظة ثم قال :

«اديني عشر علب كبريت يا ستي ... عمري ما روحت البيت الا وقالولي . ما جبتش معاك كبريت ؟» .

ابتسم وجهها المتغضن ... شعاع يطل عبر الرماد البارد . تناول منها العلب ووضعها في جيب سترته ثم دس شيئا في يدها دون ان ينظر اليها .

التفت الى الجمع المحيط به ... تناول طربوشه في يد ، والمنشة في اليد الاخرى ووقف .

«عن اذنكم يا رجال . آن أوان الانصراف . هه ... السلام عليكم ... لا ... لا داعي .. امامنا زيارة سنقوم بها . هيا بنا يا استاذ عزب» .

خرج مسرعا من القهوة ، وانتظر عزيز حتى يلحق به . خطا بضع خطوات ، ثم توقف فجاة ، كانه تذكر امرا ما .

«يوجد مطعم قريب من هنا . ما رايك في الحساء ولحمة الراس ؟ لا بد انك سمعت البوري المشوي . الحاجة تحب البوري المشوي حبا شديدا» .

انطلقت منه ضحكة جافة مبتورة . استأنفا السير امام صف طويل من الحوانيت . تلال اللب الابيض ، والسوداني ترسب الملح فوق قشرتها الوردية ، ورفوف السجائر في صفوف منتظمة تصعد حتى السقف ، واواني النحاس المطلية بالقصدير ، واكواب الزجاج ترقد الواحدة داخل الاخرى كالعامود الشفاف ، واقراص الطعمية الخضراء تسقط من بين الاصابع في الزيت المحروق الداكن ، تختفي لحظة ، ثم تصعد الى السطح وتتزاحم كالكرات الصغيرة السمراء ، وموسى الحلاق تمر في حركة متانية تدفع معها رغاوي الصابون الابيض فوق صدغ منتفخ ، والطماطم الحمراء فوق الميزان ... في كل خطوة اصوات ترحب ، ووقفة ، وحديث . انهم يعرفونه جميعا . يسعون اليه ، يقصدونه في شيء ، يعرضون عليه خدمة . وهو لا يمل ابدا ، يسمع ، ويسأل ، عن اسرهم وشئونهم ، وينصح ويقترح ، كانه لا يوجد في الدنيا شيء اهم من تلك الكلمات التي يتبادلونها في يسر والفة ، العيون تتطلع الى عزيز في تساؤل : «الاستاذ عزب قريبي ... من القاهرة» فتتعالى اصوات الترحيب ، «اهلا وسهلا ... بورسعيد نورت تفضلوا ... تفضلوا والله» .

اخيرا جلسا امام أطباق الطعام يتصاعد منها البخار . دفن عطية مبارك اصابعه القصيرة بين العظام ، وانتزع قطعة من اللحم ... مصمص في تلذذ .

«احسن لحمة راس في مصر ... كل يا اخي ... جرب السلطة ... معدتي اصبحت خاوية من كثرة الكلام... هه ، ما رايك في نزهة اليوم» . لم يتركه ليرد ..... «الم اقل لك ان الحركة فيها بركة ؟... ارايت ؟... انا ايضا لي حياتي السرية» ضحك في زهو ... «سنحول حياة الانجليز الى جحيم ... اولاد الكلب سيجربون ما لم يجربوه من قبل ... تسألني منذ متى انضممت للوفد ... منذ ثورة ١٩١٩ ... كان عمري اذ ذاك اربعة وعشرين عاما ... كل يا اخي ... لن تجد لحمة الراس في فرنسا ... اطمئن انت الان ... كنت مندهشا عندما

عرضت عليك الخروج من المنزل ... ولكن اعجبني فيك انك لم تناقشني كثيرا ... هذا يعني اننا فهمنا بعضنا بسرعة ... كما ترى لست انا الذي يحميك ... بور سعيد ... هؤلاء» لوّح بحركة واسعة من ذراعه «هؤلاء هم الذين يحموننا» .

***

الشرفة الواسعة يزحف عليها اللبلاب . اصابعه الرفيعة الخضراء تلتف حول قضبان الحديد ، وتدس اطرافها في ثغرات الجدار باحثة عن شيء تتعلق به ، وأوراقه ترقد مستلمة فوق مساحات الحجر كالبساط ، تجتازها بين الحين والحين ، رعشة الم صامتة كأنها مصابة بحمى افريقية غامضة . القمر معلق فوق سطح البحر ، يبدو قرصه الكبير مثل صفار البيض ، والهواء الثقيل الحار ساكن لا يتحرك .

الابن الكبير يجلس امامه على الشرفة ... وجه بيضاوي يشوبه شحوب مريض ، ودائرتان محفورتان من حول العينين يزداد سوادهما في شحوب الوجه، ونظرة حزينة ، عجوز كمن تبخرت آماله منذ البداية . تناول علبة السجائر الموضوعة فوق المنضدة ، وسحب منها ثلاث لفائف ، انكب فوقها باهتمام ، واخذ يفرغها من الدخان في حرص بعد ان ادارها بين اصابعه عدة مرات حتى تنسكب محتوياتها بسهولة . دس يده في جيب السروال الصغير واخرج منه شيئا ملفوفا في ورقة من السلوفان . فتح الورقة ، وامسك بقطعة صغيرة داكنة ، فركها بنفس الحرص والاهتمام فوق كومة الدخان ، ثم اعاده بالتدريج الى اللفائف الفارغة . دكها عدة مرات على سطح المنضدة . مال الى الوراء مسندا ظهره الى المقعد كأنه يستريح من المجهود الذي بذله وفي عينيه العسليتين بريق كالرضى . صاح بصوت عال آمر :

«فاطمة ... فاطمة ... اين انت ؟» .

ظهرت في فتحة الشرفة فجأة ... لم يسمع وقع قدميها الحافيتين ... اقتربت منهما ووقفت دون أن تكف عن حركتها تماما ، كأنها تتمايل على قدمين ثابتتين فوق الارض . خطوط الوجه مستديرة كأن يد مثال ازاحت عنها كل حدة بالتدريج ، لتصنع الملامح المتموجة . وتحت القميص امواج اخرى لها حركة مستترة تبرز في الردفين المتلئين ، والنهدين ، والعنق يرتفع ملفوفا من فتحة القميص . الاظافر الحمر المدببة تنمو في اللحم الابيض ... كالسلاح يطل من غمده ... الفريسة القادرة على الافتراس .

اسندت ذراعها المرفوعة على حافة النافذة ... لمح عزيز الظلام الناعم تحت الابط .

« نعم » .

صوتها ايضا كالامواج البطيئة ... صوت مهزوم لم يعد يبالي .

«اصنعي لنا كوبين من الشاي على المزاج . الليلة ليلة الجمعة ، عايزين ننبسط » .

مد يده من خلف المقعد ولمس ساقها لمسة سريعة مستترة ، ثم ضحك ضحكة ممطوطة كمن تذكر شيئا مسليا. تناول سيجارة من الثلاث التي كان قد اعدها . . . اشعلها واخذ منها نفسا عميقا شرها كمن انتظر هذه اللحظة طويلا ، ثم نفث منها خيطا رفيعا من الدخان اخذ يتتبعه وهو يصعد ببطء ليختفي في ظلام الليل . طرف السيجارة عين حمراء ، تتوهج وتخفت بحركة منتظمة كالانذار المتقطع .

«يا استاذ عزب» نطق الاسم ضاغطا على الحروف الواحدة بعد الاخرى «الا تشاركني هذه السيجارة ؟. انت في حاجة الى الترويح عن نفسك اليس كذلك ؟ » .

«لا شكرا» .

«الم تجرب الحشيش من قبل ؟ انه رائع . . . يجلب المتعة ، ويصلح تلافيف المخ » .

«لكل مزاجه» .

«وما مزاجك انت . . . الخمر ؟. . . ام النساء ؟ ام . . .» سكت لحظة ثم استطرد في بطء مصطنع «المغامرات . . .؟» .

العينان ترمقانه من بين الجفون المنتفخة . . . نفس الجفون ولكن النظرة كالسمكة خلف لوح من الزجاج . تذكر حديقة الاسماك ، رأى نفسه طفلا يهبط سفوح التلال الخضراء مندفعا كالقذيفة .

«ليس لي مزاج خاص . . . اشرب الخمر احيانا» .

«وكيف يشرب رجل عاقل مثلك الخمر . الحشيش حلال ، ولكن الخمر . . . حرام » .

ارتفعت في صوته نبرة تهكم ، ورنة خفية تنم عن شيء كالغيظ المستتر . . . تململ عزيز في جلسته . . . ماذا يريد منه ؟ عندما اقتحم عليه وحدته رحب به. انه ابن عطية مبارك .

«ربما بحثا عما تحت العقل» .

رمقه بنظرة فيها بلاهة . جاءهما صوت صياد يغني ، ومقذاف يرتطم بالماء في رفق . سادت لحظات صمت . . . كان يهم للكلام من جديد عندما دخلت عليهما فاطمة تحمل صينية عليها كوبان من الشاي، وضعتها فوق المنضدة وسألت:

«اتريد شيئا آخر ؟» .

لم يرد عليها ، فانسحبت تحرك اردافها ، بعد ان رمقت عزيز بنظرة سريعة فيها فضول . انتهز الفرصة لكي يغير مجرى الحديث :

«انا نكاد لم نتعرف . حدثني عن نفسك» .

صمت لحظة كأنه يبحث عما وراء الكلمات وتطلع الى عزيز في شيء من التردد. سحب نفسا عميقا من سيجارته الثانية ، وتناول رشفتين من الشاي بصوت

استحسان مبالغ فيه ، كأنه يلفت النظر الى ما صنعته زوجته .
«انا ... ادير المطبعة . سلمها اليّ ابي وقال «هذه كل ما أملك ... تولّ مسئوليتها انت ... ثلث الدخل لك ، والثلثان لمصاريف الاسرة ، والبيت» . هكذا اقضي يومي في المطبعة من الصباح الباكر حتى التاسعة مساء . منذ خمس سنوات وانا على هذا الحال ، حتى مللت» .
«والدراسة» ؟
«وصلت للثانوية العامة وتوقفت . كنت طموحا منذ صغري ، اريد ان اعمل واكسب قوت يومي بعرقي» . قالها في شيء من الزهو ... لا شيء سيوقفه الان. المخدر اطلق لسانه .
«ولكني وددت لو تركت كل شيء وعشت للمتعة والمزاج . اغبياء اولئك الذين يتعبون انفسهم ... منذ الطفولة وانا احب المرح ... كنت اهرب من المدرسة واقضي اليوم كله عند الشاطىء ، امرح في البحر ، وفوق الصخور ، واصطاد السمك... وعندما كبرت قليلا اخذت ارتاد المقاهي، العب النرد والكوتشينة... فما امتع ذلك التوتر اللذيذ الذي تحس به لحظة سقوط الزهر . ليست لنا سوى حياة واحدة ... فلمَ هذا العناء ؟ اخرجني ابي من المدرسة بعد ان رسبت في البكالوريا ثلاث مرات متتالية ، والحقني بالمطبعة . كنت اكره الكتب ، والآن اعيش بينها . كان الاقدار تسخر منا . ولكنني على اي حال اطبعها ليقراها غيري. هكذا تعلمت الصنعة» .
توقف ليأخذ نفسًا من سيجارته ... «ومنذ سنة اكملت ديني» قالها وهو يسبل عينيه في خشوع «وتزوجت ... فاطمة ، اهلها من تجار المانيفاتورة ... احببت فتاة قبلها كانت تعمل اخصائية اجتماعية، ولكنني رفضت ان اتزوجها... زوجتي ينبغي ان تبقى في البيت لترعى شئوني ... لا احب ان تختلط بالناس.. النساء بنات قحبة لا يؤمن جانبهن .. الست معي في ذلك ؟» نظر اليّ عزيز نظرة خاطفة ثم اكمل دون ان ينتظر الاجابة «فاطمة كانت كالقطة المغمضة تفعل ما اطلبه منها ... ولا تخرج من عتبة المنزل ... ولكن ابي لم يوافقني على رأيي . قال لي : «لمَ لا تتزوج زينب ؟... انها من أسرة كادحة وستقف الى جانبك في الحلو والمر» ... كانت تعجبه ... لماذا ، لا اعرف ... كلما حضرت لزيارتنا كانت تجلس معنا على هذه الشرفة ... عندما رفضت ان تترك العمل لتتزوجني قطعت صلتي بها ... اما ابي فرغم هذا ما زال يهتم بها ، وباسرتها ، ويزورهم في بيتهم . ولولا ثورتي كاد في يوم من الايام ان يدعوها الى منزلنا لتناول الغذاء ، ويطعنني في كرامتي .. ابي هذا اطواره غريبة ... اشتدت نبرة الشكوى من ظلم الحياة في صوته ... انا لا افهمه ... ولا افهم اسلوبه في الحياة ... يكرس اليوم كله من صباحة ربنا حتى بعد منتصف الليل للناس ... والجري وراء مشاكل بورسعيد ، ومشاريع بورسعيد ، وقرف بورسعيد ... لم يهتم بنا طوال حياته ... قضى عمره مع الاغراب ... واهملنا ... وفر لنا جميع احتياجاتنا ما عدا الشعور بوجود اب في البيت ... تحس انه يحبنا ...

ولكنه لا يظهر عواطفه الا فيما ندر ... منذ سنين نكاد لا نتحدث ... فاصبحنا عاجزين عن اي نوع من انواع التبادل ... له اسلوبه في الحياة ... ينفر منا ... ربما لاننا لم نصبح مثله ... انه لا يفهمني ... وانا لا افهمه . بل ولا احد منا يفهمه». خفت صوته واكتسى وجهه بسيماء من الجد بدا مضحكا. «والآن انزلق الى نشاط خطر للغاية ... نشاط ضد الانجليز ...» حملق في وجه عزيز يريد ان يستشف وقع كلماته ، ثم استطرد فجاة كأنه تذكر شيئا هاما ... «رجل صحيح اطواره غريبة ... في يوم من الايام جلسنا في المطبعة نحتسي القهوة . قطع الحديث الذي كنا نتبادله حول شئون المطبعة وسألني فجأة دون ادنى علاقة بما كنا نقول ... «هل نظرت في عينيّ زينب جيدا» ؟ فوجئت بالسؤال ولم افهم ما قصد اليه فسألته بدوري «لماذا ؟» فتصور ماذا كانت اجابته ... قال : «لو نظرت في عينيها جيدا لما تركتها» .

هز راسه كمن يتعجب على الدنيا وما فيها ... بدت ملامحه جامدة خالية من الاحساس . وجه من الشمع يعكس ضوء القمر الاصفر . من جوف الليل ما زال ياتيهما صوت الصياد يغني اغنية تبتعد ... تخفت ... تتبدد بالتدريج . في لحظة من السكون وصل اليهما صوته قويا كانتفاضة الحياة قبل النهاية ... ثم اختفى نبض الانغام ، تاركا وراءه صمتا موحشا .

الوجه الجامد يطل عليه كقطعة من الشمع ... الدخان الازرق يرتفع في بطء ثقيل يلفهما في الغيوم ... «لو نظرت في عينيها جيدا لما تركتها» سرت فيه قشعريرة باردة ... تململ في مقعده يقاوم بالحركة احساسا بنهاية الاشياء .

***

عيناها الواسعتان تنظران اليه في حزن ... حزن عميق ، عاجز ... عاجز عن الكلمات ... وما افظع الحزن العاجز ... العاجز حتى عن الكلمات . السعادة سراب ... فالسعادة الحقيقية تقترن دائما بالحزن الحقيقي ... تكاد لا تمسك بها سوى لحظات حتى تفلت منك ... تقول لنفسك سأثبت هذه اللحظة ، واقبض عليها بكلتا يديّ ، واغمض عينيّ وانسى ، حتى احياها ... نعم لا بد ان تغمض عينيك جيدا اذا اردت ان تذوق طعم السعادة .

انه يتفادى النظر الى وجهها ... يتفادى الالم الصامت الشاحب . عيناه تدوران على السقف ، والمقاعد ، والفراش الناصع البياض فوق السرير ... وشبح الحارس الاسود يبدو خلف الزجاج ساكنا لا يتحرك ، كأنه ينتظر شيئا سيقع .

دخلت الحجرة مع آذان العصر ... آخر تصريح قبل ان يذهب ، قبل لحظة الفرار ... جلست الى جواره لا تفصل بينهما الا سنتيمترات قليلة . سرى الحديث تيار متصل ، يروح ويجيء في يسر ... نبع عميق تدفق ... المسافة

بينهما ضاقت عبر الايام ... والآن وصلا الى حيث لا يصل اثنان الا قليلا ... الا بعد عناء ... الا بعد الجهد المتصل نحو النضج .

تذكر يوم ان سارا فوق الرمال الناعمة عند العجمي . الهواء يدخل عبر القميص ، ويلمس ظهره ، وبطنه ، طريا منعشا . كفها فوق كفه ، ومعصمها فوق معصمه ، والاصابع متشابكة . وعبر كفها ، ومعصمها ، واصابعها جاءه تيار كالنسيم يعبر سطح البحر في رقة تكاد لا تثير سوى ذبذبات خفيفة ، كالتجاعيد فوق وجه الطفل تأتي لحظة ثم تختفي ، كالريشة تمر فوق الشفاه او ورقة تسقط من فرع الشجرة في رفق على الارض . الامواج الصغيرة تسقط حول اقدامهما خفيفة كأنها تخشى عليها . والتيار الذي يمر عبر ايديهما المتلاصقة يتمد ، ويلح وينتشر ، ويملاه بسخونة مؤلمة . راى الشمس تلمع فوق بشرتهما السمراء ، ووجهها ، وشعرها الاسود تعبرها خصلة كالفضة . احنى راسها الى الوراء وراى نبضها ينتفض في العنق . احس بجسدها يرتعش بين ذراعيه ، وبنهديها البارزين يضغطان على صدره ... قبلها ... سارا بخطوات بطيئة فوق الرمال الناعمة البيضاء ، وهو ينظر الى البحر الازرق ، ويقبلها ، حتى وصلا الى بيتهم الصغير.

قال :

«اريدك يا نادية» .

لم تقل شيئا . قادته عبر الباب الى حجرتها . وقف امامها . مدت يدها واخذت تفك ازرار القميص ... احس بشفتيها ساختين على صدره . نام الى جوارها . العينان تنظران في العينين . والقدمان تلمسان القدمين ... والجسدان لا تفصلهما الا شعرة . قبلها .. الشفاه فوق الشفاه ، والصدر على صدرها ... والسيقان تتعانق في رفق . قال لها :

« احبك » .

ارتعشت جفونها واطلت منها العينان الفائتان. الحب بينهما تيار متصل بروح ويجيء في يسر ... نبع عميق تدفق ... المسافة بينهما تضيق ، وتضيق ... الان لم تعد بينهما مسافة . تلاشت كل المسافات حتى اقلها ، حتى المسافة التي تمر عبرها شعرة ... الان وصلا الى حيث لا يصل اثنان الا قليلا ... الا بعد عناء ... الا بعد الجهد المتصل نحو النضج ... قطبان مستقلان يذوبان في شيء واحد ... لا حدود للجسد ... ولا حدود للنفس ... حب يصعد عبر سرداب طويل مظلم ، الارض في السماء ، والسماء في الارض ولا وجود للاثنين ، دخول في عالم آخر حيث يتلاشى العالم ، وتختفي معالم الاشياء ... حب يتصاعد حتى الفناء... وغياب يتوقف فيه الزمن ، ويتوقف فيه نبض الحياة... ومكان الارض هوة ... وسكون ... وبالتدريج عودة الى حيث يعود العالم ، ويعودان ... قطبان منفصلان ... حدودهما واضحة ... وعيونهما صافية ... ونبع الحياة اقوى مما كان ... اطهر مما كان .

تحدثا في همس عن هذا اليوم ... وفجاة جاءهما الحزن ... سقط كالطير الجارح من السماء ... سيرحل بعيدا ... هكذا حياتهما ... لا يكادان يلتقيان

حتى يفترقا ... هذه المرة المسافة طويلة ... آلاف الاميال ... نعم المسافة طويلة ولكننا قريبان، أقرب مما كنا في اي وقت مضى... ستكون الك حياتك... وانت لك حياتك ايضا ... هذا صحيح ولكنك ... ولكنك ... ربما قابلت امراة اخرى ... من حقك ان تعيش وتنسى الالم ... كل هذه السنين ... أجمل ايام العمر عطشان ... وانت ايضا ... الحرية ... امر مفروغ منه في علاقتنا. كثرة الحديث عنها قد تشكك في قيامها ... اشياء قد تحدث ... ولكن لا يحتل مكان الحب الحقيقي سوى حب اكبر ، ومن اين لنا بحب اكبر من هذا... ستكون الك وحشة فظيعة ... معك يوسف ولكن ساكون انا وحدي ... صحيح ولكنك راحل نحو آفاق جديدة . العينان الواسعتان يلمع فيهما السواد المصقول ... اكتب الي كثيرا ... رسائلك سند في الليالي الطويلة ... العمل والهدف هما اللذان يسندان الانسان .

رفعت نادية راسها اليه . الخصلة البيضاء فيها كبرياء . تذكر يوم ان ارتدت باروكة . فوجيء بها انسانا آخر ... فتاة تخطو خطواتها الاولى خارج الجامعة . قال لها :

«انا احبك كما انت ... احبك لانك انت» . مد اصابعه الى شعرها «هذا الشعر الابيض يحدثني عنك» .

طوال الحديث كانا سعيدين ، يضحكان ... وتتحرك ايديهما وملامحهما بحيوية جديدة ... انه سينطلق ... سيخترق الاسوار ... الدماء الحارة تجري في الوجوه ، وعبر أطراف الاصابع تنقل دفئه اليها ، وتنقل حرارتها اليه . سعادة تطل من صفاء العيون بقوة ، ويبدو الا شيء يشوبها .

وفجأة انقض عليها الحزن ... سقط عليهما كالطير الجارح ... اعدت كل التفاصيل ، ولم يبق سوى الوداع ... سيرحل بعيدا لتفصل بينهما آلاف الاميال ... جاء وقت الوداع . طوال عمره كان يكره الوداع ... يذهب الى المحطات والمطارات وحده . يخفي ميعاد السفر ، وينطلق موليا ظهره الماضي ... وما اصعب هذا الوداع .

قال :

« نادية » .

فهمته ... لا داعي لاطالة العذاب . فلنقطعه بسكين حاد ، ونذهب حيث ينبغي ان نذهب .

وقفت ومدت اليه يديها . احس بشفتيها ترتعشان تحت شفتيه . ملأ صدره برائحة عطرها ... علمته السنون كيف يختزن اشياء تعينه على الطريق .

«احبك يا نادية» ... صمت ثم همس «الى اللقاء» .

ادارت له ظهرها وخرجت مسرعة . اغلق باب الحجرة وجلس على المقعد . راى شبح الحارس ظلا اسود خلف زجاج النافذة . سمعه يتنهد ويحرك قدما فوق الارض ... ساد سكون اليوم المنتهي . ثم فجاة صاح الرجل بصوت

عال كالنداء :

«يا رب ... سترك» .

* * *

سحابة شفافة تتبدل الوانها عند الافق وتتحول الى رماد . وطير ابيض وحيد يندفع مسرعا فوق البحر قبل ان يلحق به الليل . توارى الاطفال خلف الجدران ، وساد السكون كان الناس اعياهم السعي الطويل اثناء النهار . حتى صوت المذيع في الحجرة المجاورة انقطع ولم يعد ثانيا .

صمت غريب لم يعهده من قبل ... هل خرج كل من في الشقة ؟ اخذ يقلب صفحات الكتاب يحاول ان يقرا ... التقطت اذانه المدربة شيئا خلف باب الحجرة المغلق . اقدام حافية تتنقل بخفة فوق البلاط ، وانفاس مكتومة . انفتح الباب بهدوء ، ووقفت دون حركة تنظر امامها كانها تحاول ان تخترق نصف الظلام الذي يلف الحجرة ما عدا مساحة صغيرة تضيئها لمبة القراءة . لمحته جالسا في المقعد فاقتربت تجر قدميها فوق البساط بشيء من التردد .

«مساء الخير» .

«مساء الخير يا فاطمة» .

سكتت لحظة :

«هل تسمح لي بالدخول» ؟

«لقد دخلت فعلا» .

ضحكت كان الملاحظة اعجبتها . قالت بصوتها الناعم المنكسر «اشفقت عليك».

«ممَ ؟»

«من وحدتك» .

اقتربت خطوة اخرى كانها تستجمع شجاعتها :

«اريد ان اجلس معك قليلا» .

«تفضلي» .

«لماذا تجلس في هذا الضوء الخافت ؟»

«انه مريح» .

«انا كذلك ارتاح الى الضوء الخافت» .

احس باضطراب خفيف .

«اين باقي افراد الاسرة ؟»

«خرجوا» .

«وانت ؟»

«انا لا اخرج كما تعلم» .

«وتبقين وحدك ؟»

«لست وحدي الان . فانت موجود» .

سكت للملاحظة . اعادت الكرة :
«لا يوجد سوانا» ثم اكملت بشيء من التحدي «ايضايقك هذا في شيء ؟»
اجاب بسرعة :
«لا ابدا ... ولماذا يضايقني ؟»
ضغطت على الوتر من جديد .
«هل يبسطك اذن ؟»
تجاهل السؤال . قام من المقعد ليضيء النور .
سألت :
«لماذا وقفت ؟»
«ساضيء النور» .
«الم تقل انك تحب النور الخافت ؟»
سكت من جديد . لسانها حاد مستعد للمبارزة . استدارت وهي تقول :
«استرح انت . ساضيئه انا» .
سارت الى جوار السرير ، واضاءت لمبة اخرى صغيرة .
«ايكفي هذا ؟»
تردد . خطر له ان يستسلم فاحس بضيق .
«لماذا لا نضيء النور الكبير حتى نرى بعضنا ونحن نتحدث ؟.
«نحن الاثنان نحب النور الخافت ... ثم ماذا يهم ان كان النور قويا أم خافتا » .
قرر ان يهرب .
«اين ذهب الآخرون ؟»
«محمد سهران في المطبعة الليلة . هناك طلبية كتب كبيرة . ومصطفى سافر منذ الصباح الى القاهرة ... والحاجة قالت» ... ضغطت على الكلمة الاخيرة بطريقة غريبة «انها ستزور احدى صديقاتها . وابونا عطية طبعا لن يعود كعادته الا بعد ان يحل جميع مشاكل بورسعيد ... وهكذا لم يبق سوى انت» ... صمتت لحظة ثم اكملت ... «وانا» .
هذه المرأة ليست سهلة . انها تبث الالغام في كل لحظة . استمرت واقفة امامه تنتظر .
«لم تدعني للجلوس حتى الان» .
جلست دون ان تنتظر رده ، واضعة ساقا فوق ساق . لمح بياض الساق وهي ترفعه . احس بالنبض في معصمه ، فاعتدل في جلسته . نظرت في عينيه وهمست :
«منذ مدة وانا اريد ان اتحدث معك» .
اغلق دروعه حول نفسه وانكمش . عقله الباطن يقول «انك لم تغلقها تماما».
«اهلا وسهلا . لم تتحدث من قبل فعلا» .

حملقت فيه كأنها تبحث عن وقع اقتحامها للحجرة عليه . قطبت جبينها الاملس في شيء من الحيرة ، فبدت كطفل يفكر .

«انا قرات قصتك في «آخر كلمة» ... وانا احب المغامرات» .

احس لحظة بغرور الذكر ... ربما كان شعوره في الاول خاطئا . هي تريد ان تتفرج عليه ، على «البطل» ... وان تسلي سامها ... كباقي النسوة والفتيات المحبوسات . ضحك وقال :

«كل المغامرات» ؟

انه ترك قدمه تنزلق هذه المرة عنوة ... سقط الدرع لحظة ربما قبل ان يدرك ... لمَ لا ؟ انه يتعب احيانا هو ايضا ...

نظرت اليه طويلا .

«نعم ... كل المغامرات» .

وقعت عيناه على الحفرة الناعمة بين النهدين . تصور يده تسكن فيها لحظة. سرت فيه رعشة سريعة مستترة . اقتربت منه ... الان يسمع انفاسها ... مال الى الوراء وقال في صوت بدا هادئا :

«هل يمكنني ان اطلب منك طلبا» ؟

تطلعت اليه باهتمام كمن ينتظر شيئا يريده . احس بساقها دافئة تلمس ساقه ثم تبتعد .

«اطلب ... ما تشاء» .

الصوت تتخلله بحة الرغبة المدفونة ، بحة تنفذ اليه وتنتشر تحت جلده كالسائل الثقيل .

«اريد ان اشرب شايا من صنعك» .

جمدت في مقعدها ، وصمتت لحظة دون ان تجيب . ثم وقفت واتجهت ناحية الباب ... اللمبة الى جوار السرير تكشف عن استدارة الجسد القوي تحت القميص ... اصبح وحده الان ... اغلق عينيه ... هدنة حتى يستعيد توازنه ، ويهدأ الطوفان الذي اخذ يستيقظ ... سنين طويلة من الحرمان ... يحس احيانا انه سجن ، انه يريد ان يخترق الجدار براسه ليستريح ... ولكن هنا في بيت الرجل الذي خاطر من اجلك ، وحماك وسط اسرته ، واستامنك ؟ انت تتحدث عن القيم ... اين قيمك الان ؟... وماذا لو عرف احد منهم ؟ فضيحة وضياع لكل شيء ... كل هذا في سبيل لحظة مع امراة .

ولكن يا للذة هذا القوام القوي السخي ... تغمض عينيك ، وتنسى وتترك السدود تنهار ، ويتدفق مما وراءها ، كالوعاء المشدود ، المتوتر بما يحمل ، يفرغ كل ما فيه ويرتاح ... يرتاح .

وقف في غضب كانه يريد ان ينفض عن نفسه الافكار التي تحاصره ... ظهرت في الباب تحمل الصينية وعليها كوبان من الشاي . مرت الى جواره تكاد تلمسه ، ووضعت الصينية فوق المنضدة ... التفتت ناحيته ثم عادت ادراجها.. وقفت امامه ... امسك يديها وجذبها اليه ... مالت الى الوراء براسها

والتصقت به ... احس بامواج ساخنة ترتعش تحت القميص ... الضباب يلف عقله وعينيه ... ضباب احمر يفقده القدرة على الرؤية والادراك ... تهيأ له لحظة ان عينين واسعتين ترمقانه في حزن ... لم يعد شيء يهمه الان سوى ان يأخذ من هذا الجسد الفوار ويعطيه ... لا شيء يهمه الان ...

فجأة احس برنين حاد يخترق راسه كالمسمار . اخذت ملامح وجهها تتحدد ، كأنها ابتعدت عنه قليلا . سكنت لحظة بين ذراعيه ، ثم احس بها تفلت منه . انقطع الرنين الحاد وسمع صوتها تتحدث بعبارات مبهمة خافتة ... عادت اليه ... كان لا يزال واقفا وسط الحجرة كالمستيقظ من حلم ، يترنح جسمه فوق ساقين من المطاط . قالت في صوت يكاد لا يسمع :

«ابي عطية يريد ان يتحدث اليك في التليفون» .

خرج الى الصالة ورفع السماعة الى اذنه .

الو ... نعم ... انا عزب ... ستمر بعد ربع ساعة ؟... وهو كذلك ... سارتدي ملابسي وانتظر ...

* * *

الان اصبح يتفادى ان يتواجد وحده معها . عادا الى ما كان عليه الحال قبل تلك الليلة . انهما يجلسان سويا طالما ان باقي افراد الاسرة في المنزل . فاذا ما احس انها ستبقى وحدها في الشقة ، اختلق الاسباب لكي يصاحب عطية مبارك في جولاته ... ادركت انه يتفادى تكرار ما حدث ... ومع ذلك ، بالتدريج ، نشأت بينهما علاقة فيها قدر كبير من الود والتفاهم ... كانت تحدثه عن نفسها وعن الاسرة . انها تعرف السجن مثله ، ولكنه سجن من نوع آخر ، ربما ابشع من الذي احتواه ... هو على الاقل يستطيع ان يجد معنى فيما حدث له ، وان يتحمله ، اما هي فتتساءل عن جدوى الحياة ، وعن المصير ، وترى الايام تمتد امامها ، ارضا قاحلة تحت سماء من الرماد ، لا يرتفع منه خضار شجر ، ولا تتفتح فيه زهرة ... فقد ضاع منها الامل مبكرا ، وهي ما زالت شابة ، ربما تفجر هذا الامل من جديد اذا وجد الدافع ... ولكن ، اين لها بهذا الدافع ؟

مرت سنة من الزواج وكثر التساؤل ... الرحم القوي ما زال يفرغ غناءه الاحمر شهرا بعد شهر ... ومحمد يلح . انه يريد طفلا ذكرا ... في الايام الاخيرة اخذ يهددها ... لماذا تفعل ؟ انها سليمة تحس بنهر الحياة يسري عميقا ، عنيفا في احشائها ... تتطلع في المرآة وترى خطوط جسدها ، وحوضها العريض مفعما بالوعود ... ربما يكون هو السبب ، ولكنه يرفض هذا الاحتمال، ويثور عندما تشير اليه من قريب او من بعيد . عطية مبارك ناقشه مرة فانتهت المناقشة بعراك «طول عمرك ابله ... كرامة الرجل في الجزء الاعلى من جسمه ، وليس في الجزء الاسفل» . ولكنه لا يحب ان يضغط عليه ... رجل اطواره

غريبة ... من جيل سبق ولكنه لا يفكر مثل سائر الناس ... الحاجة ؟...
طرحة بيضاء وصلوات ، وتقوى عاهرة تطل حتى من العينين ... خانته مع احد التجار عندما سافرت للحج ... وما زالت ... تلح كل سنة ان تحج . يتركها لحالها ... لا احد يعلم ان كان يدرك ما يدور ام لا ... يحبونه ويكرهونه في نفس الوقت ... فهو كاتف ... حاد ، باتر . يضحي بالمطبعة ، وبالمال وبهم في سبيل الآخرين . يحيا حياته خارج نطاق الاسرة ... تلمح في عينيه احيانا حزنا عميقا ، وقنوتا بلا حدود ... علاقته بهم مزيج من الحنان والاحتقار ... ولكن الاحتقار مصحوب دائما بالحنان ، كانه يشفع لهم ضعفهم . آماله العريضة في اولاده تبخرت كقطرات الندى في شمس الصباح ... يغرق نفسه في دوامة الحياة ، كما يغرق آخرون انفسهم في كؤوس الخمر .

هذه المراة الطفلة تدرك كثيرا من الاشياء ... تتأرجح بين الفطنة السلمية ، ورغبات مكبوتة في الجسد ، كالوحش في القيود ، عندما يفلت قد يفتك بأقرب الناس اليه ... تركت المدرسة بعد الابتدائية ، واحتجزت في المنزل تنتظر الانتقال الى سرير الزوجية ... كانت لها احلام واماني غامضة ، ما زالت تراودها بين الحين والحين ... ولكنها لم تقو على الحصار المحيط بها ، وعلى الضغوط التي تتعرض لها ... ومن تقوى عليها سوى انسانة وهبت قوة غير عادية ... انها لم تجد احدا يساعدها على تحويل احلامها المبهمة الى شيء محدد ، الى طريق واضح تستطيع ان تسير عليه .

هكذا بحكم الظروف نشأت بينهما علاقة من نوع خاص ، وكأنه اخ كبير يهبها العطف الذي افتقدته... ولكنها علاقة تخفي في ثناياها شعلة من العشق المستتر ، يمكن ان تتوهج في اية لحظة اذا مستها يده . كانت قادرة على الانتقال في لحظة ، في اقل من طرفة العين الى لعبة الانثى القديمة ، الى الالفاظ الغامضة تحمل معنيين ، الى المداراة والموارِبة التي تستتر وراءها رغبة في استثارته ، الى حركة من الجسد تحتار ان كانت عفوية ، ام مدروسة ... ولكن في اغلب الاحيان كانت تنسى انها انثى ، ترفع الحجاب بينهما لتكشف عن مكنونات نفسها بصراحة مؤلمة ... انها كالمسافر وسط صحراء حارقة ، ألقت بأحمالها دفعة واحدة عند نبع من المياه اعترض طريقها صدفة ، ترتوي ، وتقي نفسها من لفح الشمس تحت ظل النخيل .

اما هو فكان يجد الراحة في الحديث مع هذه الفتاة البسيطة في جوهرها ، ينسى قلقه الدفين ، والسفينة التي تأخرت ، والصور المنشورة في الصحف ، وفرقعة السلاح على قرب منه ، والزاحفين على بطونهم فوق الرمال يتخيل من بينهم اصدقاء ، والحس المشدود في الليل كأنه ينتظر ان يسمع شيئا بين لحظة واخرى ... وفوق هذا كان يستمتع بوجود امراة الى جواره طالما انه في مأمن منها ... يختلس نظرة سريعة الى الشفتين الممتلئتين ، والى الثوب ينثني فوق خطوط القوام المسحوب .

ولكن منذ تلك الليلة التي ما يزال يضيق بذكرياتها ، والتي ما زالت تحيي فيه

احساسا يصغر الانسان في لحظات الضعف ، وضع حدودا حاسمة لنفسه ولها ، وحرص الا يتخطاها احدهما ، او يعرضها لخطر الاحتراق .

***

تبددت غيوم النوم على صوت النوافذ تفتح ، وخرير المياه في الصنابير ، والبحة المنتظمة للمشاعل تحت اباريق الشاي ، وبائع الفول يصيح في الشارع «فول ... لوز يا فول» ونباح كلب الجيران يمرح في الشرفة ، تحت اشعة الشمس الاولى .

تمطع في كسل ... يوم آخر يبدأ ... تنهد وقام من رقدته .. سمع طرقا سريعا على الباب ففتحه . اندفع عطية مبارك داخل الحجرة . كان مرتديا ملابسه، ما عدا سترته . حمالة واحدة فوق كتف ، والاخرى ما زال يرفعها بحركة ذراعه فوق الكتف الاخرى ... وربطة العنق معوجة على جانب . كان يبدو عليه الانشراح ... الوجه الاسمر اختفت عنه زرقة الارهاق ... وحركة اليدين فيها شحنة مكبوتة ... ورعشة خفيفة تمر فوق الشفتين ، وتنتقل الى الشارب الاسود المصبوغ ، عندما ينطق الكلمات . رن صوته مرحا على غير عادته في الصباح :

«صباح الخير ... كيف حالك اليوم ... مبسوط ؟»

اخذ يصلح من وضع ربطة العنق في حركة آلية ، وضاعت نظراته عبر النافذة المفتوحة لحظات ، ثم عاد بها الى وجه عزيز ... لمح البريق الماكر المرح الذي يطل من عينيه فسأله :

«قل لي ... ماذا بك اليوم ... تبدو عليك سعادة مفاجئة» ؟

«وهذا امر غريب بالطبع» ؟

«في الصباح على الاقل» .

اطلت منه ابتسامة الطفل النادرة . صمت لحظة ثم قال :

«ابسط يا سيدي ... السفينة وصلت» .

وقف عزيز امامه كالمشدوه ... ضحك الرجل في سرور ، ثم رفع ذراعيه فجأة فوق راسه ، وفرقع اصابعه . دار حول نفسه بحركة بطيئة راقصة ضاربا بقدميه على الارض واخذ يطبل له على الواحدة . بحث عزيز بعينيه في الحجرة فوجد المنضدة الصغيرة بجوار النافذة . امسك بها ، اختلطت ضحكاتهما بوقع الاقدام على الخشب ، ونقرة الاصابع ... اطلت الحاجة من الباب المفتوح بعينين واسعتين مندهشتين وهتفت وهي تضرب بيدها على صدرها :

«يا ندامتي ... الرجل فقد عقله» .

التفت اليها دون ان يتوقف .

«انسيت ... في شبابي كنت اجيد رقصة العصي ... اعدي لنا الافطار...

عندنا اعمال هامة تنتظرنا» .

اختفت من الباب ... مال على عزيز وربت على كتفه :

«هه ... مبسوط ... سترحل اليوم ... وتستريح ، ... من اشياء كثيرة » .

قالها وهو يحملق في وجهه ... ترى ماذا يقصد الرجل ؟... اتجه نحو الباب وتوقف لحظة ينظر الى عزيز بشيء كالحزن .

«سنفتقدك ... كنت اريد ابنا مثلك» .

«مثلي ؟»

«نعم مثلك ... ارتد ملابسك ... سنتناول الافطار سويا» .

خرج واغلق الباب خلفه .

***

جلس طوال اليوم امام النافذة يدخن ، وينتظر عودة عطية مبارك . على غير العادة لم يحضر في ميعاد الغداء ، دخلت عليه الحاجة مرتين تدعوه الى تناول طعامه معهم فرفض ، واستمر في جلسته امام النافذة ينتظر . كانت فاطمة تحمل اليه الشاي ، تضع الصينية على المنضدة امامه ، وترمقه بنظرة متسائلة ثم تنسحب في صمت .

قاربت الساعة على الحادية عشرة عندما سمع باب الشقة يفتح ، ووقع اقدام عطية مبارك تسرع عبر الصالة ، فانتفض واقفا ... ولكن الاقدام اتجهت ناحية الحجرة الداخلية حيث ينام محمد وزوجته ... تهيأ له انه يسمع من بعيد اصوات رجال ترتفع في غضب ... استمرت الاصوات مدة بدت له طويلة في سكون الانتظار ... ثم فجأة تحولت الى صياح عال لشخص يستغيث ، يتخلله صوت مكتوم كوقع عصي يرتطم باللحم ، ونشيج امرأة تئن في ضعف كأنها تحرص على الا يسمعها احد ... اخيرا سمع بابا يفتح ويغلق بعنف ، فرن كطلقة المسدس عبر البهو الطويل .

عاد الى مقعده بجوار النافذة . مرت اكثر من ساعتين دون ان يشعر باية حركة في البيت . كان قد قرر ان يخلع ملابسه وينام عندما راى بابه يفتح . ظهر عطية مبارك يرتدي جلبابا ابيض فضفاضا ... اغلق الباب خلفه ، وخطا بقدميه الحافيتين فوق البساط . وقف مترددا ثم جلس على المقعد امام عزيز . التجاعيد اصبحت كالحفر ، عميقة ، حادة ، وسمرة الوجه تبدو داكنة رمادية وكأن طبقة رفيعة من التراب استقرت فوقه ، وجه رجل عائد بعد سفر طويل مرهق ، او اب يتلقى التعازي على موت ابنه ... عيناه فقط كما هي ... صغيرتان يطل منهما الحزن ، ولكن حجرهما ما زال يبرق .

ابتسم ابتسامة واهنة ، فأطلت كالضوء الباهت بعد ليلة عاصفة ثم قال في صوت مختنق :

«فاتتنا الفرصة هذه المرة ... السفينة لم تكن ظروفها مأمونة ... سادبر رحيلك عن قريب» .

لم يسأله عن شيء ... تحدثا طويلا في تلك الليلة عن كل الامور ، ما عدا الموضوع الذي كان يشغل بالهما . كاد الفجر ان يطلع عليهما عندما انسحب عطية مبارك الى حجرته . قام عزيز واستلقى فوق سريره ... شهد الفجر من النافذة المفتوحة يبدا خطا شاحبا في الافق ثم ينتشر ... وشهد الشمس ترتفع قرصا احمر من البحر كانها كانت تطفىء لهيبها في الاعماق . وشهد مداخن السفن تتجه خارج الميناء ، وتتبعها حتى اختفت . قام من رقدته . اغلق الشيش وشد الستائر ثم عاد الى السرير . انقلب على جانبه ... بحث عن النوم طويلا دون جدوى .

***

كانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر عندما دخلت عليه أنحاجة تحمل صينية من الاكل ... وضعت الصينية فوق المنضدة ... ازاحت الستائر جانبا، وفتحت الشيش بحيث يدخل قليل من الضوء الى الحجرة ... اقتربت من السرير، فاعتدل من رقدته، وانتظر حتى تتكلم ولكنها لم تنطق. الضوء الخافت يخفي ملامحها.. لا يرى سوى خيال متشح بالسواد، وحفرتين مظلمتين مكان العينين ترمقانه في صمت ، كفوهات البنادق قبل ان تنطلق ... سرت فيه قشعريرة خفيفة . هذه المراة تكرهه .

«يبدو انك لم تنم الا متاخرا» .

الصوت جاف ، يقرر واقعا دون حس او حيوية ... كهف عميق نضب ينبوعه منذ سنين ، فلم يبق سوى الصخر الذي فقد حتى رطابته .

«نعم» .

«شيء يمنعك من النوم ؟»

«لا ... كنت اتحدث مع عم عطية» .

سكتت ... ثم جاءه صوتها تحاول ان تضفي عليه شيئا من عدم الاكتراث :

«لا بد انه امر هام ذلك الذي ايقظكما حتى الفجر» ؟

«لا ... ابدا ... كنا نتحدث في امور عادية» .

اخذت نفسا عميقا كالمقدم على قرار مهم .

«الم يحدثك عن ... الرحيل ؟»

تردد لحظة ... لا فائدة من المداراة . انها تعرف .

«نعم» .

«عن انه تأجل ؟»

«نعم» .

«لماذا ؟»
آن الاوان لكي يحاول ان يفهم ما حدث .
«لم اساله» .
«الا تعرف السبب في التاجيل ؟»
«لا» .
اخذت نفسا آخر . ثم استطردت في بطء :
«انا اعرف السبب» .
سكت ولم يسألها ، فقالت في شيء من السخرية :
«اراك غير مكترث» .
هز راسه نافيا :
«على العكس ... اريد ان اعرف سبب التاجيل» .
صمتت كانها تريد ان تمتحن صبره . هذه المراة ... شيء ما فيها يوحي بانها تتلذذ من ورطته .
«اراك تصمتين» .
«ربما تغضب» .
«لا ... لن اغضب ... ما فائدة الغضب الان» .
«اذن ساقوله لك ... ولكن ... عدني انك لن تردد ما ساقوله لك» .
«اعدك بهذا» .
تنهدت كانها ارتاحت لهذا الوعد .
«السبب ... السبب هو النقود ... او بالاحرى ... ضياع النقود» .
«ضياع النقود ؟... كيف ؟»
«النقود التي ارسلها والدك ... ضاعت» .
«من ضيعها ؟»
ضحكت ... ضحكتها اكثر جفافا من كلماتها ... كرنين الزهر في صندوق النرد .
«لا احد يعلم ... ولكن دون نقود هل تستطيع السفر ؟»
«لا ...»
ابتعدت ناحية الباب ، ثم عادت كانها تذكرت شيئا جديدا . قالت باسف احس بزيفه .
«ساكبلك بالهموم ولكن يستحسن ان تعرف كل شيء» .
«انا انكر في مصلحتك ايضا ... هل علمت ما حدث للمطبعة ؟»
الان لم يعد يسأل او يعلق ... انها ستتكلم من تلقاء نفسها .
«حجزوا عليها بالامس ... وفاء للديون» .
وقفت تطل عليه كاللص المقتحم في سكون ... لمعت عقارب الساعة عند معصمها ... اتجهت ناحية النافذة وفتحت الشيش على مصراعيه . تدفق الضوء يعمي الابصار ... فرك عينيه ونظر في وجهها ... تذكر ملامح المحتضر تفارقها

الحياة ، وتتحول بالتدريج الى لون التراب .

قالت :

«انهم يبحثون عنك بالطبع ؟»

«طبعا» .

«على اي حال لا تقلق . انك هنا في مأمن» صمتت ثم استطردت كأنها تفكر بصوت عال «ولكنني لا اعرف الى متى سنستمر جميعا في مأمن» .

التفتت اليه . نظرت في عينيه كأنها تريد ان تتأكد من انه ادرك ما تهدف اليه ثم قالت في هدوء بارد :

«سبقناك في الاكل... احضرت لك غذاءك... بالهناء والشفاء ان شاء الله».

تبعها بنظراته وهي تخرج من الباب .

***

المائدة البيضاوية مغطاة بمفرش ابيض ، نخلت اطرافه ، وتناثرت فوقه بقع من الطعام في لون الدم القديم . على المائدة طبق كبير ، وعلى الطبق جسد طفل؛ بشرته بيضاء ناعمة في لون اللبن ، ولكن اطرافه الصغيرة في لون الفحم ، تتصاعد منها رائحة اللحم المحروق ، رائحة نفاذه تثير الغثيان .

عند قمة المائدة تمثال من الطين في جلباب فضفاض ، فمه الغليظ يتمتم بصلوات خافتة ، واصابعه القصيرة تدفع حبات السبحة بحركة بطيئة منتظمة ، والجفون المنتفخة تطل من بينها العينان الصغيرتان ، بنظرة كبرياء ميتة .

بطن الطفل منتفخة تتوسطها حفرة عميقة ، ومن الحفرة يمتد شيء كالحبل السري فوق المائدة ، ويتلوى فوق المفرش الابيض ، ويزحف ليلتف حول عنق امراة تجلس على يسار التمثال شفتاها حمراوان ممتلئتان ، وطرحتها بيضاء ، وعيناها الواسعتان تبكيان ، قطرات شفافة تتعلق بالاهداب الطويلة لحظة ثم تنحدر فوق خديها ... وهي لا تكف عن البكاء ، وعن ترديد كلمة «يا حبيبي» . وتمتد أصابعها الرفيعة تتحسس الجسد الراقد فوق الطبق ، وتلمسه بحنان يخفي شيئا ما وراء الحنان ... كأنها تدرس ، وتجس ، لتنقض . وبالتدريج تتحول اللمسات الهينة الى عنف مستتر ، ويتحول العنف المستتر الى تقطيع بالاظافر ... والتقطيع الى تمزيق شره ... وتنتقل أصابعها الى فمها تحمل قطعا من اللحم الابيض . ويسمع صوت افواه تنفتح وتنغلق في حركة آلية منتظمة ... وشيء كاللحم يتمزق ، واحتكاك الاسنان بالاسنان ... وحول المائدة دائرة من العيون المتربصة ... والاصابع تتزايد ، وتتضاعف ، وتنغرس في جسد الطفل ، ولكن اظافر المراة تبرز واضحة بطلائها الاحمر .

جسد الطفل الممدود على الطبق مستسلم ، لا حياة فيه ... عيناه السوداوان فقط تتذبذبان بحركة مذعورة ، وتدوران حول المائدة كأنهما تبحثان عن مغيث ...

والفم يمط شفتيه كالسمكة تحت المياه ... كالوردة الصغيرة تتفتح في الصباح.

وهو يتطلع الى الوليمة البشعة من مقعده . يحاول ان يتكلم ولكن الكلمات لا تنطلق ويحاول ان يصرخ ولكن صوته لا يخرج من الحنجرة ، ويحاول ان يحرك ذراعيه او يديه ، ولكنه كالمشلول ، انفاسه مختنقة ، واطرافه عاجزة كأنها ترسف في اغلال مستترة . يحس انه يغرق في بحر من الصمغ فلا يستطيع ان يبدي اية حركة .

انه يصارع الموت ... فهذا هو الموت ، ينقض عليه بكل بشاعته ... بذل جهدا جبارا ليحرك اصبعا ... واخيرا نجح . رفع ذراعيه . وحرك قدميه ... انه يصعد الان من بئر عميق لزج ، يشق طريقه الى اعلى عبر سائل كثيف .

صرخ صرخة واحدة هائلة ... ثم استيقظ . التفت حوله مذعورا . لمح شبحا يجلس على السرير عند قدميه ... سمع صوتا نبراته خشنة يقول :

«ماذا اصابك ؟... كابوس ؟... استيقظ يا اخي ... السفينة الجديدة وصلت ... الا تسمعني ... السفينة وصلت ... وكل شيء معد» .

***

هبط على درجات السلم بخطوات ثابتة يكبح رغبة عارمة في ان يقفز من فوقها مسرعا ... الشارع خال ، والسيارة تنتظر ... جلس على المقعد الخلفي ، واخذ عطية مبارك مكانه المعتاد بجوار السائق ... رياح البحر تهب عليهم عبر النوافذ المفتوحة ، والسحب البيض الخفيفة تهرب امامهما في سباق سريع ، تفتح بحيرة زرقاء تطل منها الشمس احيانا ، وتغطي وجهه احيانا اخرى ... مواكب من الناس ، يتجهون الى الشاطىء ، يحملون المقاعد ، والشماسي الملونة ... اجسادهم نصف عارية ، ورؤوسهم تعلو وتهبط فوق الطريق مع كل خطوة ، تتخللها هنا وهناك قبعة زاهية من الخوص ... هواة الصيد يحملون البوص الطويل فوق اكتافهم ، والاطفال يجرون كالارانب الصغيرة ، غير عابئين بالصيحات التي تدعوهم الى التريث ... الفتيات يسرن أسرابا مرحة وقد اطلقن شعورهن الطويلة للريح ، ترتفع اصواتهن الضاحكة في ضجيج ... رجل بدين يلتهم التين الشوكي امام عربة وقفت عند ناصية الشارع ، تاركا تلا صغيرا من القشور الصفر يرتفع بسرعة ... زجاجة كازوزة مرفوعة في يد سمراء قوية تنسكب في الفم الواسع المفتوح ، ويهبط السائل في دفعات متقطعة داخل الزجاج الاخضر ... صفوف الرجال على الارصفة ، يحتسون الشاي والقهوة في اكواب صغيرة ، تروح عينهم وتجيء في حركة منتظمة من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين مع السيقان العارية التي تمر في طريقها الى الشاطىء ... امرأة بيضاء تطل بثدييها من النافذة على بائع الخضر وتصيح «بكام البامية النهارده ياوله» ... نظرة عتاب، وضحكة ساخرة ، وذراع حول كتف ، وعجوز تستريح مسندة يدها على جدار ، ورضيع يرفع قدمه الصغيرة الوردية في الهواء ويتطلع حوله في اندهاش .

توقفت السيارة عند مدخل الميناء الشرقي ... بوابة ضخمة ، وفتحة صغيرة على الجانب الايسر يدخل منها الناس ويخرجون ... فتحت البوابة على مصراعيها ودخلت السيارة ... سارت بهم مسافة تقرب من الخمسمائة متر ... هبطوا منها هو ، وعطية مبارك ، والسائق واتجهوا الى رصيف وقف في بدايته جمع صغير من الرجال يتحدثون ... يحس وكانه مقطوع الصلة بما يدور حوله ... مجرد متفرج ، عابر سبيل ، سائح يزور الميناء ... ولكن في قلبه سعادة عارمة ... تلك السعادة التي تأتي عندما تتخذ قرارا مهما تعرف انه خطير ، وتقدم على تنفيذه ملقيا وراء ظهرك بكل القلق ، والتوتر ، والهواجس ، ... الان عقله صافي ، بارد ... كعقل رجل بعد ان نام مع امراة لا يحبها ... راى البواخر وحوشا ساكنة ترقد فوق الميناء ، والحبال سميكة تلتف حول أوتاد من الصلب الاسود ، كراس مسمار عملاق ... وقطعا من الخشب والقطران ، وبركا من الزيت الداكن ، وعلبا من صفيح فارغة ، وقشور بطيخ تتأرجح فوق سطح المياه ثابتة في مكانها ، كانها هناك من سنين . لمح على يساره فكا ضخما ينقض باسنانه الحديدية على صندوق من الخشب ليرفعه ، ويدور مع الذراع الطويلة ليلقي به فوق سطح احدى البواخر ...ورجلا اسمر، صدره عريض يجلس على الارض امام رغيف من الخبز ، وقطعة من الباذنجان الاسود ويمضغ ببطء ، بينما تحملق عيناه بعيدا في الفراغ .

تحدثوا مع الرجال ، ثم هبطوا معهم من الرصيف الى زورق صغير كان ينتظرهم ... الشمس تسقط من السماء في البحر ، والرياح ترسل رذاذا مالحا في وجوههم ، كلما ارتفعت مقدمة الزورق المدببة وهبطت لتصطدم بسطح الماء... اخذ نفسا عميقا وتطلع حوله ... كانه في نزهة ... تملكه احساس لذيذ بالمجهول ... ما زال الزورق يسير ... صوت الموتور مريح يدغدغ الاعصاب بسعاله الهادىء المنتظم ... وحديث الرجال همهمة تضيع في الفراغ ... البحر، والرياح ، والمساحات المفتوحة ... حلم . قفزة في الخيال ... وهو جالس يتأمل ويسجل الاحداث والاشياء التي تجري امامه ، يسجلها بوعي احيانا ، وبلا وعي احيانا اخرى ... لا شيء يمر امامه دون ان يسجله ... كأن عينيه وأذنيه وعقله اصبحت كلها اجزاء من آلة الكترونية دقيقة تعمل بسرعة هائلة ... يتأمل حتى نفسه ... يتأمل السجين الهارب المدعو عزيز عمران الذي كتبوا عنه في الصحف ، ونشروا صوره ، والذي يجلس الان في زورق بخاري يحمله الى حيث القت السفينة بمراسيها ، ووقفت تنتظره في عرض الميناء .

ادرك انهم يتجهون الان نحو سفينة تقف وحدها في منتصف المسافة بين الشاطىء ... والبوغاز ، ترتفع وتنخفض في بطء مع حركات الامواج الناعمة . مع حركة السلسلة الحديدية الطويلة التي تمتد من عين مستديرة سوداء في مقدمتها ، وتنحني بعيدا الى سطح الماء ثم تختفي . راى حلقاتها العملاقة تقترب ، وسمع صوتها يرن كالجرس الضخم تدقه يد خفية .

صعدوا السلم الواحد تلو الآخر . سلم من الحبال والاخشاب تتارجح مع خطواتهم الصاعدة ، وهم ينقلون ايديهم فوق الحبل الجانبي مع كل خطوة ... عيناه تطلان الى اعلى . ترى الاثواب الواسعة ترفرف في الريح ، والظهور ، والسراويل حول السيقان ، ومساحة من الجلد الاسمر تظهر فوق الرسغ بين اسفل السروال وعنق الحذاء ، توقف الطابور لحظة فخفق قلبه ... كأنه افاق فجأة للواقع ... استأنف سيره ، انه يقترب الان من جسم السفينة ... مساحة من الصلب الرمادي الاصم يستطيع ان يمد اليه يده ويلمسه . عند اعلى السلم جمع من البحارة في ملابسهم الزرقاء ... وبعض العمال ، سيقانهم رفيعة كحبال الصلب المشدودة ، وملامحهم مختفية تحت العمم البيضاء الملفوفة حول رؤوسهم.

وجد نفسه امام ضابط شاب يرتدي البدلة الكاكي الرسمية ، ورجل آخر قصير القامة ، اصلع الراس يقف الى جواره .

قال عطية مبارك :

«مساء الخير ... جئنا نتحدث مع القبطان في شأن تموين السفينة ... انه رجل متغطرس يسبب لنا مشاكل مستمرة كلما جاء بسفينته الى بورسعيد».

قال الرجل الاصلع :

«هل معكم تصاريح ؟»

اخرجوا التصاريح ... التفت الى عزيز :

«والاستاذ اين تصريحه ؟»

اشار عطية مبارك باصبعه القصير الى احد الاوراق . احس عزيز بمقلتين في لون الرصاص تتطلعان الى وجهه بثبات بارد ، مصيره معلق على خيط رفيع ... على اللحظة الحاسمة التي تفصله عن الوقوع بين فكي وحش والافلات منهما ... نظر في المقلتين نظرة مباشرة غير مكترثة . قال الرجل «تفضلوا» .

اتجهوا الى منتصف السفينة ... سبقهما الآخرون . اوقفه عطية مبارك خلف زورق للنجاة ... اقترب منهما احد البحارة ... اشار البحار الى عزيز بيده وقال بالفرنسية :

«بسرعة اتبعني» .

احس بيد عطية مبارك على كتفه ، وباصابعه تضغط كأنها تتشبث بسه لحظة ... استدار وتبع البحار . فتح امامه بابا ضيقا ، وهبطا على سلم من حديد يدور كالحلزون ... كل شيء غارق في نصف ظلام ... هنا وهناك مصابيح تلقي ضوءا واهنا على مساحة صغيرة حولها . ادرك من تتابع السلالم والابهاء والابواب انهما يهبطان الى بطن السفينة ... وصلا امام باب من الحديد مغلق ، فتحه البحار بمفتاح كان يحمله معلقا حول عنقه . اضاء النور فرأى عزيز حجرة واسعة كالمخزن وضعت في جانب منها كتل مستطيلة بدت كاللفات الضخمة من القماش .

قال له البحار :

«هذا مخزن القلوع ... يمكنك ان تختفي خلف هذا الكوم . سأعود اليك

بعد ساعتين عندما تبحر السفينة» .

اخرج من جيبه بعض الاوراق النقدية .

«هذه نقود فرنسية طلب مني صديقك ان اسلمها لك» .

تفرس في وجه عزيز لحظة ، ثم خرج واغلق الباب خلفه .

***

النهار مثل الليل ... قطيفة سوداء تلفه ، وتحتويه ... في بطن السفينة ، كالجنين في رحم الام تلفه الانسجة الكثيفة ، وتحتويه . لا يصله شعاع من نور ، ولكنه في مأمن ... يتنفس وينبض نبضه الخاص ... ويحتمي في الجدران ، ويعيش بعيدا عن العيون .

حفرة مستطيلة خلف القلوع ... وجدار من الخشب ... ومساحة تكاد لا تكفي جسده ، ينام ويستيقظ ... ويشرب ، ويأكل ، ويقضي حاجته فيها ... وينقلب عليها من الجانب الايسر الى الجانب الايمن ... ومن الجانب الايمن الى الجانب الايسر ... عندما تشتد الآلام في ظهره .

السفينة تعلو وتهبط مع الامواج ، كأنها ثابتة في مكان واحد فوق كرة ضخمة من المطاط ، تتمدد وتنكمش في حركة واحدة لا تتغير ... فراغ معلق على قشرة الارض الخارجية ... على حافة الهاوية ... لا يحميه شيء من السقوط ... فراغ فوق الفراغ ... وظلام ينزلق فوق الظلام ... يتخيل سطح الماء يجري تحته ، ويكاد يلمسه عبر الحاجز الذي يفصله عنه ، ولكنه لا يراه ... يتصور المحيط الواسع التي تعبره السفينة ولا يراه الا سوادا لا ينتهي ... يفكر في الكون الذي يدور حوله ولكنه لا يراه ... حتى جسمه يلمسه ، ويحس به ينبض ، ويتنفس ، ويشرب ، ويبول ، ويتحرك كما يشاء له ان يتحرك في الحيز المحدود ، ولكنه لا يراه ... احس في لحظة انه فقد قدرة الابصار فانتابه ذعر خاطف بالا تعود ... ذعر الانسان الاول امام المجهول ... صرخة مكتومة يقاومها لتزول .

انه لا يرى شيئا ، ولكنه يسمع . نبض المحركات بعيدا في الاعماق كأن السفينة جسد حي ... وخطوات على سلم من حديد ... واقدام الجرذان تجري كقطرات من المطر فوق سقف من الصفيح ... وخشب السفينة يئن من الجهد ... ولطمات الموج على الجدار والقاع ... وخرير المياه كالغرغرة في حلق الغريق ... اصوات كلها مخيفة ولكنها تقتل الصمت ، فتقتل الخوف .

النور يضاء في المخزن ثلاث مرات في اليوم ... دقيقتين في كل مرة ... عقرب الثواني يدور سريعا دورتين كاملتين ؛ ثم يطفأ النور ، ويسقط عليه الظلام من جديد ليبتلع كل شيء حتى ذرات الفوسفور تنتظم في عقارب الساعة ... كبروتينات الحياة في خلايا الجسم ... ست دقائق نور في اربع وعشرين ساعة

من الظلام ... يسمع المفتاح يدور في الباب ... وخطوات حذرة تقترب من المكان الذي يختبيء فيه ، فينكمش ... ويرقد دون حركة دون ان يتنفس ، حتى يسمع الاشارة ... خمس نقرات خفيفة على عامود من الخشب .

عندئذ يطل براسه فيراه ... وجها وعنقا وكتفين ... قبعة صغيرة بيضاء .. وسترة زرقاء ... وبينهما عينين صغيرتين تطلان بنظرة ثابتة بين الخطوط الرفيعة التي حفرتها الشمس والامواج ، والرياح العاصفة ... وجه من بين الوجوه ... لباس من النيل الازرق ... كنزلاء السجون ... كالجندي والشرطي وعامل المصنع والطفل في المدرسة ... كالمريض في المستشفى ... ملابس موحدة... وجدران مغلقة ... نمط واحد يسحق الانسان ويصنع القطيع ...

يقف صامتا في المساحة الصغيرة الخالية من القلوع ، يحمل جردلا فارغا يضعه مكان الجردل الذي امتلأ بالفضلات ، فيشعر عزيز بشيء من الضيق لان شخصا آخر يشم رائحة فساده ... ويحمل طبقا معدنيا عليه طعام وخبز ، يضعه مكان الطبق الفارغ ... ووعاء ممتلئا يضعه مكان الوعاء الذي فرغ من الماء ... ثم ينسحب في صمت دون ان يتبادلا كلمة واحدة .

كان عزيز ينتظر هذه اللحظات ... فاليد الممتدة اليه بالطعام والماء ، تغذيه، وتطفيء ظمأه ، وتخلصه من سموم جسمه ، وتشعره بانه ليس وحده في هذا الظلام ... انها تصل اليه كالحبل السري في بطن السفينة ... والرجل الذي يقف امامه ... هو صلته بالحياة ... ينتظر قدومه بلهفة ... ويترقب خطواته ... ويعتمد عليه ... ويشعر بسعادة طاغية عندما يرى وجهه الجامد.

في اليوم الاول احضر اليه لباس البحارة الازرق ... سروالا وسترة مثل اللتين يرتديهما ... خذ ، ربما اضطررت الى مغادرة المخزن ... ادرك عزيز انه يحتاط المفاجآت ... طمانه هذا الاحساس ، وازعجه في نفس الوقت ... ماذا لو شب حريق ، او واجهت السفينة عاصفة ؟.. لم يوجه اليه هذا السؤال.. ادرك بغريزته ان الرجل لن ينساه ... شيء ما في عينيه ... نظرة يلمحها احيانا ، فيها تساؤل ، وفيها رقة ... تفاهم صامت نشأ بينهما ... اقتراب بين الانسان والانسان تصنعه المحن ... دون حاجة الى الكلمات .

دارت الساعة ثماني دورات كاملة فوق معصمه ، واضيء النور واطفيء اثنتي عشرة مرة ، فادرك ان اليوم الخامس يزحف عليه ... شيء ما تغير في حركة السفينة ... يد ضخمة امسكت بها ، واخذت ترفعها الى اعلى ثم تلقي بها في قاع سحيقة ... سقوط مفاجيء في الفراغ ، .. كالمصعد انقطع الحبل الذي يحمله في الظلام ... لمسة الامواج الخفيفة تحولت الى صفعات ترج الجدران ، وانين الخشب كالشكوى من الالم العنيف ، وقاع السفينة يعلو ويهبط تحته ، كظهر الحصان الجامح في الليل ...

لف ذراعيه حول عامود من الخشب ليمنع نفسه من السقوط ... الدنيا تنقلب من حوله . لم يعد يميز بين سقفها وارضها ... اسرع النبض في معصمه ، وتصبب العرق البارد ينز من كل مسامه . اخترقت احشاءه طعنات

كالسكين ... بحث عن الجردل في الظلام فلم يجده . خلع السترة والسروال فأصبح عاريا ... ترك العنان لجسده ينقبض ، وينقبض ، كالوعاء المعذب يحاول ان يطرد ما فيه ليستريح . مرة واثنتين ، وثلاثا ، وعشرا وعشرين ... يحس بالراحة دقيقة او دقيقتين ثم يبدأ من جديد ، دورة وراء دورة . ينكمش الجسد على نفسه كانه يريد التخلص من شيء يثقل أعماقه ... عروق نافرة ، وعضلات تتوتر وترتعش ، وعينان جاحظتان من المجهود ، وبركة صفراء كريهة تنتشر حوله، يشعر ببلولتها حيث يرقد فوق القماش ... لم يبق الا احشاءه ليطردها ، الا القلب ، والمعدة ، والمصارين ، ولكنها تابى ان تخرج من اية فتحة من فتحات جسمه ... كلما قاومت الخروج ارتفع منه أنين كالصراخ ... صراخ حيوان تزهق روحه ، ولكنه لا يموت .

اخيرا هبطت العاصفة بالتدريج ، وهدات حركة السفينة ... ابطا النبض في معصمه ، وتوقفت عضلاته عن الانقباض ، وجف العرق من فوق جلده ... احس بالاعياء الشديد والضعف . رقد مكانه دون حركة ... يستمتع بالهدوء الذي احاط به ... ويحافظ على نفسه من الدوار بالجمود المطلق .

★★★

نفذ شعاع من النور الاحمر عبر جفونه فاستيقظ ... جلس مسندا نفسه بيديه ... شعر بالبلولة اللزجة تحت كفيه ، عينا الرجل تنظران اليه في استطلاع وقلق ...

«هه ... كيف حالك يا بني ؟» بصق على الارض «يا للعاصفة القحبة !!. لم استطع ان اغادر مكاني» ... قالها في شيء من الاعتذار ...

«دع عنك» ... التفت حوله كانه يتأكد من وجوده «ما زلت على قيد الحياة» ... صمت لحظة ثم سأل : «كم الساعة الان ؟» .

«الخامسة» .

«صباحا أم مساء ؟»

«صباحا . لم يبق سوى ساعتين لنصل بعدها الى مرسيليا» .

لسانه ينطلق الان كان ثقلا انزاح من عليه .

شمشم عزيز حوله باشمئزاز :

«اريد ان اغتسل» .

«حسنا ... انتظر حتى اطمئن على الطريق ... ساضع ملابسك في الحمام واعود » .

ارتدى عزيز سروال البحارة ، والسترة ، وعاد الى رقدته ينتظر . اختفى الرجل بضع دقائق دون ان يطفيء النور ثم عاد ... رأى يده تمتد اليه لتساعده فامسك بها ... قوية كالفولاذ ... همس :

«اليمني» .

قاده عبر بهو ضيق تضيئه لمبة صغيرة ... فتح بابا عند آخره وقال :

«ملابسك في الداخل» .

احس بالريح الباردة تندفع تحت عقب الباب حول قدميه العاريتين ... ضوء خافت يتسلل عبر الزجاج السميك في العيون المستديرة ... ورؤوس الادشاش تتدلى في انكسار كصف من الجنود بعد الهزيمة ، الماء ينهمر على جسمه كالثلج ، والرياح تلفحه كالسكين ... اندفعت الدماء عبر العروق تولد سخونة في الداخل ... احس بلذة عارمة كالذي يستعد للقاء امراة انتظرها سنين ... سيرتدي ملابسه ، وينزل الى الشاطىء ويمشي فوق الارض ... الان كل شيء له طعم خاص ... الماء والصابون ورائحة الملابس النظيفة ... الفجر ... خط رفيع شاحب يفصل بين السماء والبحر ... اصبحت أحاسيسه حادة كالموسى وذهنه صافيا كالهواء فوق قمم الجبال ... يمشي بأعصاب مشدودة ، تكاد خطواته لا تلمس الارض . ونبضات قلبه سريعة ممتلئة كالذي يستعد للسباق .

عاد الى المخزن يقوده الرجل بخطوات حذرة تتحسس الطريق . قال عزيز :

«كيف انزل من الباخرة ؟»

«بعد ان ترسو السفينة بنصف ساعة ساعود اليك ... سنصعد الى الكوبري حيث يوجد سلم الهبوط» .

«والبوليس ؟»

«بوليس ؟»

قال عزيز بشيء من العصبية :

«الجوازات والجمرك» .

«اليوا من رجال البوليس ... يجلسون في الصالون حيث يتجمع الركاب وتتم الاجراءات» .

«وعلى سلم الهبوط ؟»

«لا يوجد احد» .

«وعلى الشاطىء ؟»

«كذلك ... هناك رقابة ... ولكنهم لا يعترضونك الا اذا شكوا فيك» .

«والخروج من الميناء ؟»

«ستجد سيارات الاجرة قريبة» .

اخذ نفسا عميقا ... ساله الرجل :

«اي شيء آخر ؟»

«لا ..» .

حملق في وجه عزيز لحظة :

«حظ سعيد ... يا بني ...»

ثم اختفى مغلقا الباب خلفه ... متى يغلق الابواب خلفه بنفسه ؟

★★★

توقف نبض المحركات ... لماذا تاخر ؟... ربما تركه لمصيره ... احس بالخوف ثم هدأ ... تعود الا يفكر في المشاكل طالما انه لا يملك لها حلا ... نوع من التواكل يحمي به توازنه ... عندما يقع سيجد مخرجا ... لكنه لن يتركه رغم انهم قبضوا اجرهم ... القبطان ، وهو ، وربما آخرون مصيرهم مرتبط.. انه دليل الجريمة وينبغي التخلص منه ...

سار الرجل امامه بخطوات ثابتة ... خفان من قماش يزحفان بهدوء كالقط ... بياض عند اسفل السروال الازرق . بهو طويل ضيق ... سلم من حديد يلف بهما الى اعلى ... بهو آخر ... سلم ثان ... بـاب مفتوح ... وجوه وضجيج ، يرى ، ويسمع ، ولا يحس ... اشياء تقف عند حافة الادراك ... عيناه ، واذناه ، وحواسه المستترة اجهزة دقيقة تنتقي الذبذبات التي تفتح وتغلق الطريق : الاخضر ، والاحمر ، والبرتقالي ... الامان او الخطر ، او ما بين الاثنين ... فكل اشارة تحتاج الى قرار ... ما عدا هذا ، لا يوجد شيء . بهو طويل آخر ... انه يقترب من الكوبري ... راى جمعا من البحارة ينطرون مفارش بيضاء كبيرة كانهم ينظفونها ... صنعوا له ستارا محكما مر عبره ... لمح نصف وجه اسمر ينبت فيه الشعر ، وعيني صغيرة تطل من بين جفنين حمراوتين بنظرة فضول خاطفة ... التقت العين بعينه لحظة ثم ضاعت ... انهم يعرفون ... هذه الستارة عند نقطة الخطر ... الان اصبح على الكوبري ضوء يعميه ، ودفء ، وناس يتحركون ، وضجيج ، وحقائب ، وحبال ، وحاجز جانبي يقف عنده ، ووجوه على الرصيف تتطلع الى اعلى في بلاهة ... اسرة تستعد للهبوط على السلم ، رجل وامراة ، وطفلان وقبعة على راس المراة ، وحقائب يد ، وشمسية سوداء ... سار خلفهم وهبط معهم ... خطى على الرصيف ... جسمه عبارة عن عينين فقط ... حوله مربع مصنوع من الحواجز الحديدية ترتفع حتى عنقه ... قضبان مثبتة على ارجل مقوسة.. تحيط به من كل ناحية ... قفص ... انتظر ليرى ماذا سيفعلون ... دفعوا احد الحواجز جانبا وخرجوا ... شرطيان عملاقان يقفان خلف جانب من المربع ... تقدم نحوهما بثبات يخفي اضطرابه ... راى وجهين حمراوين تحت القبعتين واربع عيون تراقبه ... تتبعه ... اقترب ... دفع الحاجز ومر الى جوارهما ... اصبح خارج الطوق ... ارهف السمع ينتظر صوتا يوقفه ... سار مسافة مائة متر ... مائتين ... لا يدري ... توقف عند صف من سيارات الاجرة ...

ساله السائق :

«الى اين ؟»

«الى قهوة مرسيليا» .

اسرعت السيارة ... توقف عند بوابة ضخمة تجمع حولها عدد من رجال الشرطة ... لمح السناكي ... احس بنبضه مرة اخرى ... اقترب احدهم... معطف سميك وحزام من الجلد، ووجه احمر تحت القبعة... اطل الشرطي براسه داخل السيارة .

«اليس معك حقائب ...؟»

«لا كنت أوصل احد اصدقائي ...»

لوّح بذراعه الى السائق ... يد ضخمة تطل من قمة الكم وتطلق سراحه .

مرت السيارة تحت القوس العالي وانطلقت كالنحلة في الشارع . تراجع عن جلسته على حافة المقعد ... اسند ظهره على الوسادة الخلفية ... اخرج علبة من جيبه واشعل منها سيجارة ... نظر الى اصابعه ... وجدها ثابتة لا ترتعش، فابتسم ... لمح سترته الرمادية ، جرابه الازرق وحذاءه الاسود ، كأنه يفيق الى وجوده ، ويكتشف نفسه جزءا بعد جزء ... تطلع من النافذة ... المباني البيض تحت الشمس ، والاشجار ، والناس . ادرك فجاة انه اصبح حرا ... اخذ يتلفت حوله بعينين نهمتين . مرت الى جواره فتاة تركب دراجة ... لوّح لها بيده من النافذة فضحكت ... اسنان بيض بين الشفتين .. أحس بالحياة تتدفق في اعماقه من جديد ، كالمريض عاد من رحلة طويلة مع الموت ...

***

موائد ، ومقاعد من القش تناثرت في اهمال منظم فوق الرصيف ، كاللآلئ البيض ضفرتها اصابع دقيقة ... وفساتين ملونة كالزهور فوق المقاعد ، تعبث بها رياح «المسترال» القوية ... الشعور اجنحة ذهبية تتموج في الشمس ، و«الباستيس» الاصفر في الكؤوس الفارغة يلمس الشفاه. جلس الى احدى الموائد يستمع الى لهجة الجنوب المميزة ، كأنها انغام اعادت اليه ذكريات حلوة .

رشفات القهوة باللبن تسري في جسمه دفئا ويقظة ... يغرس اسنانه في «الكراسوان» فينتشر طعم الزبد فوق اللسان . لمح السماء ... مساحة زرقاء صافية تطل بين المباني ، وسحبا كالقطن تهرب مسرعة امام الرياح القوية ... سيدة عجوز تبتسم عيناها في ود ، وتمد يدها بسحبة صغيرة من البنفسج ملفوفة في اوراق خضر ... اخذها من بين الاصابع المرتعشة وثبتها في عروة السترة .

قالت :

«اشكرك يا سيدي» . ابتسم :

«انا الذي اشكرك» .

هزت راسها ، وانصرفت ، تكاد لا ترفع قدميها من فوق الرصيف .

اشار الى بائع الصحف ... ذراع واحدة ، وعينان زرقاوان تطلان بجد من الوجه الشاب تحت قبعة البحار ... اخذ منه «الفيجارو» و«الاورور» و«ليتر فرانسيز» و«الاوبر فاتير» و«الاومانيته» و«البيتيه باريسيان» ... وضعها امامه ... وليمة سيتذوقها على مهل ... تناول «الاومانيته» «عدد الاحد ٣ اكتوبر» . تلفت حوله ... نهر بشري يتدفق ... جو الاجازة ... اصوات مرحة يلتقط منها كلمات عابرة ، تمر بالقرب منه ، ثم تبتعد ... وقمصان زاهية ... وسيقان ملفوفة في الجراب الرقيق ... وموسيقى ، وكعوب ... آلاف الكعوب تزحف فوق الرصيف . عينان واسعتان في لون البنفسج تلتقيان بعينيه لحظة ... ثم لحظة اخرى ... انت اعجبتني ... وانا جميلة ... والحياة قصيرة ... راى قوامها الفارع يختفي داخل المقهى .

دفع الحساب وقام ... انه يريد ان يمشي ، ويمشي ، ويمشي ... الارض تحت اقدامه ، والسماء المفتوحة فوق راسه ، ومسافات لا تحدها حدود . انه يستطيع ان يمد خطواته كما يريد ... الى آخر المدى ... وصل الى الميناء القديم ... مراكب الصيد والزوارق البخارية ... صفوف من العواميد العارية تميل في بطء مع حركة الماء ... اجازة ... رائحة السمك المقلي ... وملابس مغسولة ترفرف في الشرفات .

المكتبة منزوية في ركن احد المباني القديمة ... دفع الباب ودخل ... رن جرس صغير فوق راسه ... عيناه تدوران على العناوين ... رفا فوق رف ... وكتابا بعد كتاب ... فكر بلا حدود ، بلا قيود ... خرج يحمل لفة كبيرة تحت ابطه .

يريد ان يمشي ويمشي دون هدف ... مجرد احساس بالوجود ... بالحرية . المدينة مفتوحة يستطيع ان يغزوها بلا حدود ، بلا قيود ... الشوارع، والارصفة ، والميادين ، والحدائق ، والساحات ملك له ، يسير فيها اينما شاء . راى مساحة واسعة من الارض ، واعلاما ، وعجلة ضخمة تدور ، ومقاعد معلقة في الهواء ... ووجوها تطل من اعلى ، واياد تلوح ، ومواكب ضاحكة من الشباب ... حملت اليه الرياح ابواق الموسيقى النحاسية ، وفرقعات كالرصاص ... دخل واختلط بالزحام ، سار مع السائرين من مكان الى مكان.. ترك التيار يحمله على هواه ... البنادق تصوب على رؤوس الدمى ... وعجلة الحظ تدور ... والحلقات تسقط حول رقاب البط العائم ... والمرايا المشوهة شهد نفسه فيها كرة منتفخة مرة ، وبيضة تبتسم في غباء مرة ، وخيزرانة رفيعة بائسة مرة اخرى . ركب العجلة الضخمة وارتفع عاليا فوق الرؤوس ، يطل على المدينة ، والبحر ، والناس ... امتطى ظهور الخيول الخشبية تدور في سرعة جنونية ، وتعلق برقابها خوفا من السقوط... قاد سيارة كهربائية صغيرة تنحرف فجأة نحو اليمين او اليسار ، كأنها فقدت عقلها ، تصطدم بغيرها ، تتوقف ، ثم تنطلق من جديد بعنف متهور ... ارتفعت ضحكاته مع ضحكات الآخرين ... ضاع وجهه وسط وجوه الآخرين ، وعيونه في عيون الآخرين ، وابتسامه بين

ابتسامات الآخرين ... وانصهرت سعادته في النهر المتدفق من الشباب ترن اصواته مع أنغام الموسيقى .

خرج من الباب الخشبي الكبير المزدان بالاعلام ... أزال التراب من على سترته وسرواله ، وحذائه ، وجفف عرقه بالمنديل . سيقانه تنثني في ضعف تحت ثقل الجسم ... احس بمعدته خاوية كالطبلة تحت الضلوع ... اتجه الى قلب المدينة بخطوات بطيئة تجره عضلاته المرهقة ...

المطعم حجرة مستطيلة وصفان من الموائد ... مفارش بيض ... وزهور تتزاحم رؤوسها في الاواني ، وملاعق وسكاكين يلمع معدنها ببريق مرح ... وسيدة بدينة تشيع جوا من الاطمئنان ... واطباق ساخنة يرتفع منها البخار ، ورائحة الطعام الجيد ... والكرم الاحمر في الكاس دافيء مسكر .

اخرج ورقة بيضاء من حقيبة اليد وكتب فوقها :

«مرسيليا في ١٢ أكتوبر»

«عزيزي الاستاذ عطية مبارك ،

أكتب هذه الرسالة بعد خمس ساعات من وصولي ... سأستقل القطار السريع في الساعة التاسعة مساء اليوم لاصل الى باريس في الساعة الخامسة صباحا .

اشكرك والى اللقاء» .

«عزب»

★★★

السيارة تسرع على الطريق ... الرياح الساخنة كالزئير الاجوف في طبلة الأذن ... والشريط الاسود يتلوى من الحرارة وسط الرمال .

السائق صامت ، جامد كالتمثال ... لا يتحرك الا ليمسح العرق من فوق حاجبيه بالمنديل . العينان على الطريق ، والعنق منتصب ، كعمود من الخشب. فسيارته لا تحمل الا اصحاب السلطة .

عندما هبط عزيز سلالم الوزارة ، فتح له الباب الخلفي وقال :

«تفضل يا افندم» .

تركه واقفا في مكانه ... فتح الباب الامامي وجلس ... لكنه احس لحظتها بشعرة رفيعة من الزهو ... قطرة من السلطة كحقنة مخدر ... تصعد الى الراس ... تملكه شعور بالضيق من نفسه .

التفت الى السائق وسأله :

«ما اسمك» ؟

«فؤاد يا افندم» .

«فؤاد يا دكتور عزيز» .

شبح ابتسامة تحت الشارب الكث ... ردد :

«فؤاد ... يا دكتور عزيز» .

«من اين ؟»

«من القنال» نطقها «الكنال» . لا بد من الصياح حتى يعلو صوتهما فوق صوت الريح المندفع حول السيارة ... ضم جفونه ، يريح عينيه من الوهج المتصاعد ، والضوء الابيض الحاد ... راح في سبات يقظ ... سبعة عشر عاما منذ تلك الليلة ... ليلة ١٧ يونيو ١٩٥١ . كانت السيارة المسرعة تحمله هاربا في الصندوق الخلفي ... على نفس الطريق ... سبعة عشر عاما من العمر قضاها يتنقل بين السجون والمنافي ... تقفز فوقها بذهنه ... ما زال يتفادى التفكير فيها ... الحياة هي ان تحيا في الجديد ... ترى هل سيرى عطية مبارك مرة اخرى ؟

منذ ساعات كان في حجرة الوزير الفسيحة ... مائدة يجلسون حولها ، فناجين القهوة ، واعقاب السجائر ... والاوراق تتزاحم فوقها لتجد مكانا ... طلاء ازرق على النوافذ ، واشرطة من الورق البني ملصقة باهمال على الزجاج ... اللمبة الصغيرة تلقي دائرة محدودة من الضوء . كل شيء غارق في الظلام ما عدا وجه الوزير ... جبهة عالية حفر فيها المنصب خطوطا عميقة زاد عمقها في الايام الاخيرة ... الملامح جامدة ... والعينان ضيقتان كانهما شقتا بحد الموسى ... تدوران بنظرة فاحصة قلقة حول المائدة ... تتحركان وحدهما في الوجه ... حيوانان صغيران ... يبحثان عن شخص يطمئنان اليه ... فلا يجدانه ... طفل عجوز نزح من الصعيد ... كان طبيبا ناجحا يتنقل ليل نهار بين غرف الكشف الثلاث في عيادته ... حتى لا يضيع الوقت في اعداد المريض للفحص ... دخل في لعبة النقابة ... والنقابة منذ قديم الزمان محطة انتظار للمناصب والوزراء.. ذلك النوع من الخدمة العامة الذي يحقق الكثير لمن يهواه ... الصعود على أكتاف الآخرين ... يتتبعون النجوم الصاعدة بمزيج من الذهول والياس ، وقليل من الامل يتبدد بعد كل انتخاب ... يدورون في الساقية بعيون نصف مغمضة ... تحكمهم القوانين الجبرية ... وارادة الاقوياء ... والنظم الموروثة التي لا يفلت منها الا القليلون ...

وجه تدرب على ارتداء قناع ... قناع السلطة ... ولكن التقاطيع الريفية فيها بساطة مالوفة ... والابتسامة التي تبرق في العيون ... تخرق السدود، والجمود ، وخطوط العمل المضني وتكشف عن صفاء الطفل الذي ما زال يعيش في الاعماق ... وجه خال من الشر ... مفعم بالمكر ... تانس اليه ... وتحذر منه احيانا في نفس الوقت .

جلس خليل على يمينه ... هكذا ، دائما على يمينه ... كالياور المخلص.. دخلا سويا في مجلس النقابة ... قفز احدهما الى كرسي الوزارة ... فهو طبيب الاسر الحاكمة .. وقفز الثاني الى مقعد الوكيل ... فبات يشكو من قلة تقدير القيادة للكفاءات الثورية ... تتأجج احلامه مع كل اشاعة تطلق عن تغيير الوزارة ... او استقالة الوزير ... كل شيء في وجهه كما هو ... لم يتغير..

كيس الدهن البيضاوي ما زال يرفع الجلد في منتصف الجبهة ... خطوط الوجه بسيطة مستقيمة ... ولكن شيئا فيه يوحي بالفراغ ... كان الرجل مجرد هيكل خارجي مات من الداخل ... العينان تطلان من خلف زجاج النظارة بنظرتها العمياء ... لم يتغير ... «الثورية» المدروسة التي تحسب الاشياء جيدا ... التضحية المعقولة التي تنفع صاحبها ... والحس الدقيق الذي يعرف ما يمكن ان يضربه .. سعي حثيث الى اعلى ... واعلى ... هكذا منذ كان في الكلية .. شابان في الحركة الوطنية افترقا عن بعضهما في مرحلة مبكرة ... اجزاء تيار واحد واسع ممتد ... يتفرع ، ويلتقي ليتفرع من جديد ...

صوت المذيع كلمات بلا معنى ترن كالمعدن الرخيص في الصندوق الاسود الصغير ... مد الوزير يده الى المفتاح فساد صمت مفاجىء في الحجرة . قال :

«لم يعد هناك مجال للمناقشة ، ولا بد من ان نحسم ، فما رايكم» ؟

دارت عيناه مرة اخرى حول المائدة ثم استقرت على وجه عزيز بنظرة فيها تساؤل حريص ... هكذا حالهم معه دائما ... اعتراف من تحت الضرس بقدراته ... يحرصون على اخفائه ، ولا يبوحون به الا لغرض ، واستعداد لاستخدامها احيانا ... عندما تلح الحاجة . فليكن ، ليس هذا هو المهم الان... هناك اشياء كثيرة حدثت لا بد ان يفكر فيها من جديد .

قال بهدوء :

«الاعتماد على الاجهزة الحكومية وحدها لا يكفي ... يجب اقامة نظام للطوارىء بسرعة . اقترح ان نوزع اعضاء اللجنة على مدن القنال» .

عند الطرف الآخر من المائدة رجل قصير القامة ... اشيب الشعر ... انيق . مال الى الامام فاصبح وجهه تحت الضوء ... شفتان غليظتان تحت الشارب المهندم ، وعينان فيهما طيبة .

«اجهزة الوزارة قادرة على القيام بواجبها» .

قالها كأنه يدلي بتصريح الى الصحف .

آثر عزيز الصمت ... موقف الوزير سيحسم ... اذا كانت لديه توجيهات سيوافق ... فلينتظر .

قال الوزير :

«اوافق على الفكرة ... وارى ان نتفق على التوزيع . ماذا تقترح يا حضرة النقيب ؟ »

نبرة من السخرية في صوته ... التعليمات تجعله مقداما .

«ما رايك يا خليل ؟»

ساد الصمت لحظات واتجهت العيون الى يمين الوزير . ثبت خليل عينيه على نقطة ما فوق المائدة ، كأنه يتفادى النظر الى احد ... انه يدبر شيئا ... يعرفه جيدا الآن ...

«طلعت وزكي في بورسعيد ، ونادية وسعد في الاسماعيلية ، وفخري في

السويس» .

هز المجتمعون رؤوسهم في حماس ... هكذا هم دائما ... يشمون الاتجاه بأنوف مدربة ، ويهزون رؤوسهم كالذيول ... كم يكره هزة الراس هذه ... لا اعتراض الا خلف الابواب المغلقة ، في السر ، ولا حتى هذا احيانا . انهم كاجهزة الالتقاط العصرية تلتقط ادق الموجات وتستجيب .

في شبابهم لم يكونوا مطيعين كل هذه الطاعة . افسدتهم الايام ... حفظوا لغة الاشتراكية ... ورددوها كالابواق ؛ ينفخ فيها لاعب المزمار ... يرنون بعيونهم الى اصابعه ... ويصدرون النغمات المطلوبة ... يدفعهم الامل الخفي في مكتب واسع ، ومقعد وثير ... وصورة الرئيس معلقة فوق رؤوسهم ... تتبع تأشيراتهم على الورق ... وكلمات بالحبر الاحمر يخطونها كأنهم يصنعون التاريخ .

راى وجه نادية ، عينان تشتعلان في جمود يستعد للانفجار في لحظة ... قنابل العدو تدك المدن ... وما زالوا يغلقون امامه الفرص ... حتى فرصة الموت تحت القنابل .

«وانا» ؟

رنت الكلمة كالمطرقة في الصمت ... لا احد ينظر اليه ، كأنهم اكتشفوا في الحجرة اشياء تستحق التأمل ... تتبع عيونهم فهربت منه ... انه يتسلى الان بالفرجة عليهم .

قال خليل :

«تبقى معي في القاهرة لنسق العمل» .

كتم عزيز ابتسامته ... حريص على نفسه الاستاذ خليل ... عيناه تطلان بنظرتهما العمياء خلف النظارة ... ربما تكون صمامات قلبه هي السبب ... اجرى فيها عملية منذ ثلاث سنوات ... سيقتله الحرص مئات المرات قبل ان يموت .

«انت خير المنسقين ... ساذهب انا الى بورسعيد» .

قال النقيب :

«ولماذا بورسعيد» ؟

توقع السؤال ... لو اختار الجنة لقالوا «لماذا» ؟

«كما تشاؤون ... اخترت انا بورسعيد» .

ساد الصمت ... الرؤوس محنية والعيون تنظر الى اسفل ... انهم يشعرون بالهزيمة حتى اذا انتصروا ... لانهم لا ينتصرون لفكرة او مبدأ ... الهزيمة في الاعماق ... يفهمهم ولا يفهمهم... ماذا في الحياة يساوي الاحساس بأنك تستطيع ان ترفض اذا اردت ؟

حملق الوزير في وجه النقيب وقال :

«اتركه يذهب الى بورسعيد ... ماذا بعد» .

التعليمات اذن بلا حدود ... حسنا ... قال خليل :

«يجب الاتصال بالمحافظين حتى يقدموا كل المساعدات اللازمة ، ويعطونا سلطة كاملة في التصرف » .

مفيدة اقتراحاته احيانا ... يدرك جيدا كيف تسير الامور ... اما انت ، فكثيرا ما تحلق في الخيال ... لا بأس ... الخيال احيانا هو الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم المبني على الزيف .

هز الوزير راسه موافقا ...

«قبل ان اترك مكتبي الليلة ستصلهم التعليمات» .

انصرفوا في سكون ... بقي خليل معه في الحجرة ... هكذا دائما ... ينبغي الا تفصله عن الوزير مسافة ... الدكتور خليل دخل عند الوزير ... خرج من عند الوزير ... في اجتماع مع الوزير ... طلبه الوزير ... ذهب لمقابلة الوزير ... في مرور مع الوزير ... في مكتب الوزير ... في منزل الوزير ... سافر مع الوزير ... ينبغي ان يتردد هذا الكلام ... أن يتناقل على الالسنة تأكيدا للقرب ... ضمانا للصعود درجات اخرى على السلم .

هبطوا السلالم العريضة يتحسسون طريقهم في الظلام ... اصابع نادية حول ذراعيه ... ترى احسن منه في النور ... ويرى احسن منها في الظلام .. اختلاف يميز بينهما في الحياة ايضا ...

الحوش الواسع مهجور والمباني المظلمة تزحف عليه فينكمش ... استنشق الهواء الرطب ... ليالي الصيف في القاهرة ... متى تعود كما كانت ... قال النقيب :

«تصبحون على خير يا جماعة» .

تسللت سيارته من الباب ... شبحا ابيض تومض عيونه بزرقتها المريضة ، يفحص السور والاشجار ، والطريق في حرص ، ويختفي في جوف الليل ...

تلكأ الآخرون ... هكذا دائما ... ينتظرون خليل حتى يخرج من عند الوزير ... ويأتيهم بما لا يتاح للآخرين ... مخلصون يرضون بالقليل .

لوّح بيده اليهم ... عادت اصابع نادية تلتف حول ذراعيه باردة تنم عن توتر دفين . اصابعها ... كقلبها ... اما ساخنة كالجمرة او باردة كقطعة من الثلج ... لا مكان للوسط عندها ... اختلاف آخر بينهما ... جعل حياتهما في الايام الاولى صعبة ... الليلة يشعر بها قريبة منه ... هي جزء منه ، وهو جزء منها ... غدا سيفترقان ... هي الى الاسماعيلية وهو الى بورسعيد ... يجمع بينهما احساس واحد بالمخاطر ... بأيام مقبلة يكتنفها الغموض ... بطفليهما ينتظران في الشقة الرابضة في الظلام ...

سارا وحدهما ... هكذا دائما ... لا ينتظران ... فتح لها باب السيارة.. جلست الى جواره ... فمال عليها وقال ضاحكا :

«يبدو انك تنازلت عن القيادة» .

راى بريق عينيها رغم الظلام ... جاءه صوتها مرحا ، فارتاح .

«انت تعشق القيادة ... والليلة سارضي غرورك» .
«ومع ذلك ... انا منتظر توجيهاتك ... الى اين» ؟
«الى المنزل» .
«لماذا الا تقف عند شاطىء النيل قليلا» ؟
«لا ... ليس الليلة ... اريد ان اطمئن على الاولاد» .
ايقظه صوت السائق من سباته :
«انظر ... انظر يا دكتور ... اليهود على الشاطىء الآخر» .

***

الطريق يمتد شريطا اسود الى جوار القناة ... على الشاطىء الآخر رجال يتحركون ... وعلم مرفوع يرفرف في اطمئنان كسول . تطلع بنوع من الفضول المتامل الى العلم ، والى اجسام الرجال تتنقل ببطء عبر تلال الرمل ، كالخنافس الكبيرة .

هؤلاء هم العدو ... راى يدي السائق تلتفان حول عجلة القيادة بعنف ... اطراف العظام تزداد بياضا تحت الجلد ... كانه يتفضى بغضب مكتوم . لماذا لا يحس هو بالغضب ... لماذا يتاملهم بهدوء ... كانه يشاهد حدثا عاديا ...؟

التفت ناحيتهم من جديد... ينظر من طرف عينه كانه يخشى ان يلاحظوه.. هكذا على مرمى البصر ، لا تفصل بيننا سوى مياه القنال ... مسافة لا تزيد ربما عن مائتي متر ... احس فجاة بعيون تختفي وسط التلال ... عيون الجنود... وعيون البنادق ... صيد سهل مكشوف يجري فوق الطريق العاري ... اصبع واحد يضغط على الزناد ، فينتهي كل شيء .

بدا له كأن السيارة تزحف ببطء شديد ، ولكنه آثر الصمت . خجل من اظهار الخوف . مال السائق ناحيته وصاح في صوت عال حتى يتغلب على صفير الرياح :

«سأسرع ... الطريق مكشوف» .

قفزت السيارة قفزة هائلة الى الامام ... وقفز معها المؤشر الابيض ... مائة وثلاثون كيلومترا في الساعة ... انحنى ليريح رباط الحذاء ... عندما يجلس مدة طويلة يزداد الالم في قدمه اليسرى ... آثار الضرب بالعصي .

جنود العدو على الشاطىء الآخر ... فأين جنودنا ؟ طوال الطريق لم يشاهد جنديا او ضابطا واحدا ... كانهم ذابوا ... او ابتلعتهم الارض ... ابطات السيارة فجاة كانها تتفادى شيئا يعترض طريقها ... لمح صفا من السيارات... بعضها ما زال يحترق ... السنة النيران حمراء تحت الدخان الاسود ... واوتوبيسا ... هيكلا من الحديد تتلوى ضلوعه ، وثغرات مفتوحة كالافواه الفاغرة تصرخ في صمت ... وعلى الرمال مقعد انقلب على ظهره ، وحقيبة نصف مفتوحة يطل منها طرف سروال ، وجثة مفحمة تضحك اسنانها البيضاء في

سخرية .. الموت الآلي الذي يسقط من السماء .

سمع السائق يقول في صوت مبحوح :

«الطائرات الاسرائيلية» .

وصلا الى بورسعيد في الساعة الثانية بعد الظهر ... تقدمت السيارة ببطء تبحث عن طريقها بين اكوام الحجارة والطوب... شيء كالغيوم يحلق فوق المدينة، ورائحة حريق ... الشوارع خالية الا من بعض الجنود ، يقفون بالسناكي امام الاسلاك الشائكة ، تحيط بالابنية البيضاء المنخفضة . هنا وهناك أكياس من الرمل مرصوصة فوق بعضها ، ومواسير المدافع ، طويلة ، تحملق في الفراغ ... امراة تجلس امام جدار متهدم ... شال اسود وكتفان منحنيان في استسلام ، وخلفها حجرة تكشف عن احشائها ... سرير من النحاس ، وصندوق من الخشب ، ولحاف ، ولمبة مكسورة تتدلى من السقف ... كالمسرح المهجور .

وقفت السيارة امام باب المستشفى ... التفت الى السائق ... «تناول غذاءك وانتظرني ... سأعود» .

ثم صعد السلالم مسرعا .

***

تطلع الرجل اليه في ضيق . اليست عنده متاعب كافية حتى ياتيه هذا «المفتش من القاهرة ؟» وهل هذا وقت «التفتيش» ؟ على اي حال لا بد ان يكون حريصا ... في هذه الايام لا يعلم المرء ما يمكن ان يحدث له ... اختفت علامات الضيق ، وحل محلها شيء من الحيرة ... انه لا يبدو كباقي المفتشين ... قميص ، وبنطلون ، عينان هادئتان ثابتتان تطلان من خلف النظارة ... لم يسأله عن الدفاتر ... والعهدة ، وعدد المترددين على العيادة الخارجية . سيتمشى معه ليرى ماذا يريد بالضبط ... منذ ثلاثة اسابيع أرسلت مذكرة الى القاهرة لتمديد مدة خدمته سنة اخرى ...

طوارىء ... وحجرة عمليات تحت الارض ... وبنك للدم ... انهم يعيشون في الاحلام ... اليهود سيحتلون المدينة باكرا او بعد باكر على الاكثر ... هكذا سمع من أوثق المصادر ، من غرفة العمليات العسكرية نفسها ... فقد حرصه لحظة :

«لا ارى فائدة من كل ذلك ... سمعت ان اليهود يستعدون لاحتلال بورسعيد بين لحظة واخرى» .

قالها بشيء من التشفي البارد ، كان الاحتمال لا يزعجه في شيء .

حملق عزيز في العينين الصغيرتين المدفونتين على جانبي الانف الغليظ ... الخنزير . «ما علينا ... لم آت لمناقشة الموقف العسكري ... حجرة العمليات ينقصها مولد كهربائي يمكن استخدامه اذا انقطع التيار» .

«طلبنا المولد من الوزارة عدة مرات ولا مجيب ... عندي المراسلات» هم بفتح درج المكتب فأوقفه بحركة من يده .
«الا يوجد مولد كهربائي في بورسعيد ؟»
«لا اعتقد» .
«هل سألت ؟»
«ومن اسأل ؟»
«شركة القنال مثلا» .
«لا توجد صلة ادارية بيننا وبين شركة القنال تمكني من مخاطبتها» .
«لا في السلم ولا في الحرب طبعا» .
قالها في شيء من التهكم ... راى العينين تحملقان فيه بكراهية مكتومة . اليهود على الضفة الاخرى ، والروابط عند الكثيرين اصبحت هشة ... لا داعي للسخرية .. استطرد في هدوء :
«المحافظ حاكم عسكري ... سلطاته مطلقة ... سنعد كشفا بما تحتاجون اليه من مخازن الشركة لاعرضه عليه الليلة» .
مد عزيز يده بعلبة السجائر ... قال الرجل في انفة كانه يرفض رشوة :
«شكرا ... لا ادخن» .
اشعل سيجارته بالولاعة واكمل :
«احتياطي الدم في البنك ... بالمعدل الحالي ... يكفي ثلاثة ايام فقط ... اليس كذلك ؟»
«نعم ... ولكن ليست لدينا ثلاجات كافية في المستشفى ، ولا مكان يتسع لاكثر من هذا» .
«والبنك الاحتياطي ؟»
«لسنا في حاجة الى بنك احتياطي ... المتطوعون متوفرون يرسلهم الينا الاتحاد الاشتراكي ... اننا نجدد المخزون عندما نريد» .
مال الى الوراء وابتسم في رضى ، كانه كسب جولة .
«وماذا لو سقطت قنبلة على المستشفى ؟»
اختفت اسنانه الصفر خلف الشفتين الرفيعتين كانها تنسحب بسرعة ، وظهرت علامات الحيرة من جديد ... انه لم يفكر في هذا الاحتمال . كل الاحتمالات مطروحة منذ زمن بعيد ، ما عدا احتمال المقاومة ... هزمنا قبل ان نبدا .
«لا يوجد مكان آخر يصلح لبنك الدم» .
«ومستشفى النصر» ؟
«يتبع التامين الصحي» .
كاد عزيز ان يقول «والتأمين الصحي طبعا يتبع اسرائيل» ، ولكنه كتم غيظه.
«ساناقش الموضوع مع مدير المستشفى باكر . بقيت مسالتان : اولا ، احتاج الى مكان للمبيت . وثانيا ، السيارة التي معي ستعود الى القاهرة ، ولا بد من

توفير سيارة اخرى لاتنقل بها» .

صمت لحظة كانه يفكر .

«مستشفى الرمد توجد به استراحة ، تصلح للمبيت ... أما السيارة فموجودة هنا في الجراج» .

رفع سماعة التليفون وتمتم ببضع كلمات .

مال الى الامام وقد بدا على وجهه الارتياح ... كانه انتهى من مهمة ثقيلة على نفسه ... دخل رجل قصير القامة يرتدي ثوبا ابيض ممزقا تناثرت فوقه بقع مختلطة من الشحم القديم والطعام . استأذن عزيز وهبط السلالم مع السائق الجديد ... توقف امام الباب ... فتح السائق باب السيارة ... تطلع اليها في دهشة ... هيكل متهالك يميل على اربع عجلات متفاوتة في الحجم ... قفز فوق السلالم عائدا ، واندفع عبر الباب كالعاصفة ، وهو يلهث .

«السيارة لا تصلح» .

حملق الرجل في وجهه لحظة ثم قال :

«لا توجد سيارة اخرى في المستشفى» .

«وفي المنطقة» ؟

كلماته الان تهتز بالغضب . صمت الرجل ، واخذ يرسم باصبعه فوق المكتب، كانه يعيد توزيع السيارات . هتف :

«آه فعلا ... توجد سيارة مناسبة يمكن وضعها تحت تصرفك» .

ارتسمت بين شفتيه ابتسامة اعتذار صفراء ... «نسيت أن لدي سيارتين ... احداهما استخدمها بصفتي رئيسا للمستشفى ، والاخرى بصفتي رئيسا للمنطقة ... سأعطيك سيارتي» .

***

مد ساقيه المتعبتين فوق السرير ... الجسد مرهق يشتاق الى الراحة ... والعقل يقظ يدور كالساعة في معصمه ... كالتروس الصغيرة التي لا تتوقف «تك ، تك ، تك» . حركة لا ارادية كنبض القلب ... او التنفس ... كالذي يقف على حافة الجنون ... فالجنون هو عقل افلت من سيطرة العقل ، واخذ يعمل وحده ... مركز ادنى تمرد على المركز الاعلى ، تتزاحم فيه الافكار والصور، والاوهام ، في سلسلة تتكرر ، وتتكرر ، الى مالانهاية .

ثلاثة ايام بلياليها قضاها يتنقل بين اطراف المدينة ... خرائب كالعظام العملاقة في ضوء القمر ... جثث تتعفن تحت الشمس تحيط بها الغربان ... اسراب الذباب ، سحاب اسود فوق اكوام الفضلات ... وسيول المهاجرين تتدفق من الشرايين المفتوحة لمدينة تنتحر . الشوارع في الليل كالقبور ، توحي بأن كل شيء قد انتهى... ثم يأتي الصباح ، ومع الصباح ساعات من الامل ، ...

يجلس الناس على المقاهي ... وتفتح الحوانيت ابوابها ... وتـدق اجراس الدراجات في مرح ... ويدفىء الشاي اطراف الاصابع ... وتسري الحياة في المدينة من جديد .

عينا الشاب فيهما مرارة تجمدت ... والكلمات تخرج من صدره جوفاء ... كانها تاتي من مكان بعيد ... كلمات مرعقة ، مثقلة بعبء فظيع ... قال :

«الجميع يهربون من بورسعيد . من اين جئت» ؟

«من القاهرة» .

«من القاهرة» ؟

«نعم» .

«لمَ جئت» ؟

السؤال خال من الاهتمام ... مجرد شكل .

«لتنظيم الطوارىء الطبية» .

انفجر نجاة كانه انتظر هذه اللحظة ليريح نفسه من الالم المكبوت :

«الطوارىء الطبية ... اي طوارىء طبية يا دكتور ... المعركة انتهت ... القاهرة ترقص على شاشة التليفزيون ... مهى توفيق ، وزينات عمر ، وفرقة القرن العشرين ... مدافع اليهود هنا ، وجنودهم ، ودباباتهم ... وكل شيء على ما يرام ... فلنرقص ، ولنغن ، ونستمتع بالحياة» .

تطلع عزيز عبر النافذة المفتوحة ... الامواج تتسابق نحو الشاطىء ... جدار من الزجاج الاخضر ... حصان عملاق يعدو ... يتوقف لحظة ... يرفع جسده في الهواء ويحني عنقه كالقوس ... ثم يهبط بكل ثقله على الارض ، ويسرع نحو الشاطىء عرفا ابيض متمردا تحت الشمس ، ورذاذا يتطاير في الهواء كاللعاب من الفم ... اشياء في الحياة ، باقية .

نظر الى وجه الشاب في ثبات :

«اذا كنت تريد ... يمكنني ان انصرف» .

صعدت الدماء ساخنة تحت الوجه الاسمر ، فزاد سماره :

«ماذا تريد مني» ؟

«اقامة مستشفى ميدان هنا» .

صمت ... كانه يصارع نفسه ... جلس على المقعد ... العينان ما زالتا قادرتين على البريق .

«كيف ؟»

«نحتاج الى حجرة عمليات وعنبر تحت الارض ... وجراح... وطبيب بنج».

«انا جراح» .

«وطبيب البنج ؟»

«موجود في الوحدة العسكرية المجاورة» .

«هل تستطيع الاتصال به» ؟

تردد لحظة :

«استطيع» .
«والبقية» ؟
صمت طويل كانه يفكر :
«هناك مبنى جديد للجمعية التعاونية ... في البدروم مخزن ... مساحته تقريبا مائة متر مربع ... مزود بالكهرباء ، واحواض ، ودورات مياه » .
«والاسرة» ؟
«موجودة بالصدفة في البدروم ... اعدوه كمخبا للنساء والاطفال ... ولكنهم رحلوا .. الوحدة التي اعمل فيها قريبة من مبنى الجمعية ، وفيها حجرة عمليات بسيطة ... يمكننا استكمالها من مخازن التموين الطبي ... حاولت ذلك مرارا قبل الحرب ... ولكن رئيس المنطقة رفض . قال لي : «انت غاوي متاعب ... حول الحالات للمستشفى» .
الآن يتكلم وحده دون ان تنتزع منه الكلمات :
«اكتب كشفا بما تريده ... ستصل اليك الاجهزة والادوات باكرا صباحا».
عادت خطوط السخرية الى الشفتين ... تطلع عزيز من النافذة يقطع عنه فرصة التعليق . شبع من الاحاديث اليائسة ... أمواج البحر ما زالت تتسابق نحو الشاطىء ... وطفلة تجري فوق الرمال ... وحيدة ... نقطة صغيرة ضائعة في الكون الواسع . ترى ماذا يفعل يوسف ؟

***

اضواء الفجر ترفع غطاء الليل في حرص ، ثم تلقي به جانبا دفعة واحدة ... فتح الشيش على مصراعيه ، واستنشق الهواء البارد المشبع برطوبة مالحة ... سمع وقع اقدام ، ورجلا يتحدث بصوت مكتوم كانه ما زال راقدا تحت الفراش. في الحديقة خيمة تبدو كالشبح الابيض عبر تكعيبة العنب ، وسيارة لاسلكي مختفية تحت فروع الشجر ، وماسورة مدفع طويلة تطل خلال الشبكة بعينها السوداء الفاغرة ... لمح عددا من الجنود يقطعون في كسل ، أذرعهم مرفوعة الى اعلى كانهم يتضرعون الى السماء ، يتحركون هنا وهناك دون هدف ... رفع عينيه الى اعلى ... اكياس من الرمل ومدافع رشاشة على السطح ... لن تخطئه القنابل اذا اغارت طائراتهم على المدينة ... «مكان مناسب للمبيت» ... ابتسم في سخرية ... يريد الرجل ان يتخلص منه نهائيا ان امكن ... اين ...
غسل وجهه ، وازال الشعر من على ذقنه وهو يفكر في أفضل طريقة لترتيب أعمال اليوم ... ارتدى ملابسه ، وهبط على السلالم مسرعا ... تطلعت اليه الحكيمة السهرانة بفضول وهو يمرق من الباب ... الزهور الصفر والبنفسجية تصعد مع اللبلاب فوق الجدران البيض حتى السطح المائل المصنوع من البلاط الاحمر ... مستشفيات الرمد من ايام الانجليز ... بصمات تذكرنا بهم ...

مثل معسكراتهم ... وسجونهم .

كانت الشمس دائرة كاملة فوق سطح البحر ، عندما وصل الى التموين الطبي ... سيارة النقل تنتظر في الحوش يحيط بها بعض الرجال .. صعد الى جوار السائق واشار الى السيارة الاخرى لتتبعهم ...

جميع نوافذ الوحدة مفتوحة ، يصلهم خلالها صوت رجل يصيح «لا ليس هنا ... هناك ... على مهلك» وزجاج يقع على الارض وينكسر . قفز من الكابينة العالية ، واتجه الى الشاب الجالس على مقعد يدخن في صمت ، ويتطلع الى الافق ... قال :

«صباح الخير يا دكتور» .

خطوط السخرية اختفت من الشفتين الممتلئتين تنفرج عن أسنان قوية منتظمة .

«ارجو تفريغ الادوات والاجهزة واعادة سيارة النقل الى التموين الطبي بسرعة » .

الاصابع النحيلة تضغط على يده بقوة .

«الى اللقاء» .

استدار واتجه نحو السيارة ... اخذ مكانه بجوار السائق .

لمحه في المرآة قواما منتصبا في المعطف الابيض وبدا تلوح ... ثم اختفى..

سأل السائق :

«الى اين ؟»

فكر لحظة ثم اجاب :

«الى مستشفى النصر» .

***

سباق ضد الزمن... احس براسه تدور... في كل خطوة يواجه مقاومة... آلة ضخمة تفككت تروسها وتابى ان تدور ... يتساءل احيانا : ما فائدة كل ذلك ... ينفخ في قربة مقطوعة ... ولكن لا مفر من النفخ ... قوة عمياء تسوقه ... اذا اعطى لنفسه فرصة للتفكير سيتوقف هو ايضا ... «لا شيء يضيع ... ذكرى للمستقبل ... لحظات مع الناس في لحظات يأسهم ... شمعة تضاء» ... كلمات يبرر بها الاشياء لنفسه ... جمل حلوة تصلح للقصص ... وفي الخطب ... اوهام يصنعها لان الواقع مستحيل .

القميص من حرير ، والاساور من ذهب ، وربطة العنق انيقة ... ربما من باريس ... والجبهة العريضة تمتد حتى الصلعة دون فاصل من الشعر ... وتحت الجبهة عينان فاحصتان تلمعان بذكاء .

انه اشهر طبيب امراض نساء وولادة في بورسعيد ... رجل مجتمع يعرف الاصول ، واثق من نفسه ... ساخر من كل شيء ... سرى ... احساس ما

يقول له «هذا الرجل ليس صغيرا» .

«بنك للدم ؟... يا صديقي ... سنملأ المستشفى قذارة ... انظر حولك ... هل رايت مثل هذه النظافة من قبل ؟» . يطرح الفكرة جانبا بحركة يد بطيئة ، فيها عظمة ، كانه يطرد ذبابة ... فص الخاتم يبرق في شعاع من الشمس تسلل عبر النافذة المفتوحة .

قال عزيز في اصرار :

«نعم بنك للدم» .

«وما شأننا نحن بهذا» ؟

«شأن اي طبيب يرى الناس يموتون ... شان اي انسان في الحرب» .

اعتدل في جلسته ... هذا القادم من القاهرة ، راى من أمثاله الكثيرين ... بطاقة الاتحاد الاشتراكي في جيبه ... وكلمات عن الوطنية والتضحية تجري على لسانه ... ما زالوا يتكلمون ... ضاعت مدينته وما زالوا يتكلمون ... عاش فيها طول العمر ... حفظ كل شارع من شوارعها ... وكل بيت من بيوتها ... واستنشق هواءها النقي يهب من البحر في الصباح ... بنى لنفسه اسما ، ومركزا ، وثروة ... ثم ضاعت ... انه يبدو شابا رغم الشعر الذي شاب على الجانبين . ربما يكون في عمر ابنه ... مع ذلك يريد ان يعلمه واجبه ... كلهم سواء ... كلام في الظاهر ... وفساد في الجوهر ... وجبة غذاء جيدة ستنسيه حماسه .

لمح عزيز مسحة حزن على الوجه ... ابتسم الرجل كانه يتمالك نفسه بسرعة امام الخصم .

«قبل ان نتكلم عن بنك الدم هذا ... لنتفق اولا على ما هو اهم ... انت غريب عن بور سعيد ولا بد من ان نقوم بالواجب ازاءك ... فلمَ لا نتناول الغداء سويا اليوم ونتحدث عن كل شيء ؟»

حملق عزيز في العينين حتى رآهما يهربان امامه .

«بنك الدم هو الاهم» .

ساد الصمت لحظة طويلة ... وقف وقال :

«هيا بنا نمر على المستشفى لنختار المكان» .

قاده في اتجاه العيادة الخارجية ... ممر طويل وصفوف من الحجر ... المكان خال من الناس ... في نهايتها ملحق مستقل مكون من اربع غرف ... سارا من غرفة الى غرفة وهو يشرح :

«هنا مكان الثلاجات ... هنا المعمل ، وهو معد كما ترى ... هنا حجرة انتظار المتطوعين ، ... وهنا «فتح الباب» حجرة بها اربعة أسرة لاخذ الدم منهم «اغلق الباب» . بالاضافة توجد ميزة اخرى ... المكان منفصل عن باقي العيادة.. له باب للدخول ، وباب آخر للخروج ... وهذا يسهل حركة الحضور والانصراف دون ان يحدث زحام ، ودون ان نحول المستشفى الى مزبلة» ... اخرج الكلمة

الاخيرة من بين شفتيه كالطلقة .

ابتسم عزيز :

«مكان مناسب فعلا ... لم يستغرق منك اختياره وقتا طويلا» ...

ضحك بشيء من الرضى ... ذابت الخطوط الحادة المتعالية كالقناع يسقط من الوجه ، واطل الحزن في العينين من جديد ... قال في بطء :

«كنت افكر فيه ونحن نتحدث» ... صمت ثم استطرد «الآن ... ما رايك في موضوع الفداء» ؟

«وهو كذلك ... باكرا ... ساتصل بك تليفونيا لنتفق» .

★★★

شقة في الدور الرابع ... تحسس خطواته في الضوء الازرق القاتم ... لافتة مربعة من النحاس بجوار الباب ... حاول ان يقرأ الحروف المحفورة فوقها دون جدوى ... دق الجرس ، فلم يفتح احد ... دقه مرة اخرى ... سمع الرنين المتصل يتردد في الداخل ... رنين حاد يتردد في الفراغ كان الشقة خالية ... فتح الباب نصف فتحة ... رأى خيالا غامضا يطل .

«من انت ؟»

«انا الدكتور عزيز عمران ... أريد مقابلة الاستاذ فهمي عطا الله» .

«بطاقتك» .

اخرج البطاقة ... حملق فيها الرجل طويلا ، واخذ يقلبها كانه يتشكك في صحتها ... اعادها اليه ، ثم اشار له بالدخول ... قاده عبر بهو طويل مظلم الى باب يتسرب الضوء من تحت عقبه ... نقر عليه مرتين بشيء صلب ... ثم انتظر ... جاء صوت رجل يقول :

«ادخل» .

وقف وسط الحجرة يغمض عينيه في الضوء المفاجيء ... بعد قليل استطاع ان يميز ما حوله ... مكتب صغير جلس وراءه رجل اشعث الشعر ، تبدو عيناه جاحظتين خلف النظارة السميكة ... مقاعد من القش ... وكنبة قديمة متسخة تمزق جانب منها ليكشف عن احشائها... قطع من القطن والقش واسلاك ملتوية. على الجانب السليم جلس رجل اسمر ، نحيف ، يفحص ملفا تناثرت اوراقه على المنضدة البيضاوية واختلطت ببقايا الطعام ، واكواب الشاي ... في احدى الاركان خلف الباب الذي دخل منه امراة اسندت نفسها على طرف المكتب بردف ممتلىء ، وتركت ساقها الطويلة تروح وتجيء كالبندول ... كانت تتحدث في التليفون . سمعها تقول :

«آخر فوج وصل منذ ساعتين ... حسنا ... سامر باكرا صباحا» .

وضعت السماعة والتفتت اليه تفحصه .

وقف الرجل الجالس وراء المكتب ، ومد يده ... قامته طويلة بشكل غير

عادي ، وصوته جهوري كانه يخطب على الدوام :

«اهلا وسهلا ... انا فهمي عطا الله مسئول الاتحاد الاشتراكي ... من القاهرة ... السيدة علية توفيق من الهلال الاحمر ... مسئولة عن خدمة الجنود العائدين ... الاستاذ صبحي عرفات مدير مكتبي» .

دخل عدد من الشبان وجلسوا على المقاعد ... في وجوههم وفي حركاتهم البطيئة ملل ، كانهم لا يجدون ما يفعلونه ... انتقلت السيدة علية من المكتب الى الكنبة ... الثوب الابيض القصير يكشف عن ساقين ملفوفتين ... تتبعتهما العيون من طرف خفي .

سال عزيز :

«ما آخر الاخبار» ؟

ماله فهمي عطا الله الى الامام يطلق رذاذا من اللعاب مع الكلمات ؟

«انا ندرس الموقف بدقة ... المقاومة الشعبية احتلت مراكزها في جميع انحاء المدينة ... كل شيء معد ومدروس ... والحماس على اشده . انا ننتظر التعليمات » .

وقف اثناء الكلام ، واخذ يلوح بقبضته في الهواء ، كانه يحتل مكانا على المنبر ...

«ما هي التعليمات التي تنتظرونها» ؟

جاءه صوتها من الكنبة :

«التعليمات الخاصة بالمقاومة طبعا» نطقتها «المكاومة» اضاف فهمي عطا الله موضحا :

«اذا دخل اليهود بورسعيد ... ماذا نفعل ؟»

تدخل احد الشبان الجالسين بحماس :

«نقاوم طبعا ... اليس هذا دور المقاومة الشعبية ؟»

«بلا تعليمات» ؟

قال عزيز :

«وهل تعتقدون ان اهل المدينة سينتظرون تعليماتكم ؟»

حملق فيه فهمي عطا الله كانه يضعه في كف ميزان دقيق :

«وماذا تقصد «بتعليماتكم» قالها في شيء من الضيق كانه اشتم سخرية مستترة في السؤال .

«اقصد ما تقصده ... تعليمات الحكومة ... تعليمات الاتحاد الاشتراكي».. كما تريد» .

تحرك الثوب الابيض يكشف عن مساحة جديدة من الساق ... العيون الجوعى تزداد جراة ... شارة الهلال الاحمر تعلو وتهبط مع النهد .

قالت :

«لا مكان للفوضى ... ينبغي ان نتحكم في اعصابنا» دق جرس التليفون ...

صوته جهوري حتى في التليفون .

«لا ... لا تفعلوا شيئا ... لا نريد ان نتحرك الان ... مراكزنا ينبغي ان تبقى كما هي ... انسحبوا ثانية من البيوت المجاورة للقتال ... ليس هذا شانك ... نحن ننتظر التعليمات ... اتصل بي غدا ... مع السلامة» .

ساد الصمت في الحجرة ... قال الشاب :

«اذا احتل اليهود بورسعيد لن انتظر انا شخصيا اية تعليمات» .

استقرت عليه العينان الجاحظتان ... قام من مقعده ، وخرج من الحجرة .

شيء في هذا الجو يثير الغثيان ... الدخان ، والانفاس المكتومة ، واعقاب السجائر على الارض ، ورائحة العرق مختلطا بالعطر يفوح من جسد المراة ... شيء كرائحة المني وطشوت الغسيل ، وعرق الاجساد في بيوت الدعارة ... كرائحة العفونة ... كالزهور الميتة في مستنقع تحت الشمس ، كرائحة المرض ، والصديد في عنابر الجرحى ... شيء كرائحة الموت .

الوجوه ، والمقاعد ، والجدران تدور في راسه بحركة بطيئة ، كالخيول الخشبية في ملاهي القرية ، والعرق يتصبب باردا فوق جلده . بطنه خاوية تنقبض تحت ضلوعه ... ولعابه يسيل بالمرارة ... اسند يده على المقعد ... ربما هو الجوع ... كان ينبغي ان ياكل شيئا قبل ان يأتي ... الهواء النقي ... قليل من الهواء النقي ... فليته بسرعة ويخرج من هذا المكان .

«نريد عددا اكبر من المتبرعين بالدم» .

العينان الجحظتان ما زالتا تفحصانه .

«لماذا» ؟

«اتفقت مع قائد المستشفى العسكري ، ومع مدير مستشفى النصر على اقامة بنكين احتياطيين للدم» .

«والعدد المطلوب يوميا» ؟

«عشرون للمستشفى العسكري ، وعشرون لمستشفى النصر ، بالاضافة الى العدد المعتاد للمستشفى العام ، وهو ثلاثون» .

«اي شيء آخر» .

«اريد ان اتفقد مراكز ايواء الجنود العائدين» .

«متى» ؟

«باكرا ... ان أمكن» .

التفت الى المراة الجالسة على الكنبة تفحص طلاء اصابعها باهتمام :

«هل تستطيعين اصطحاب الدكتور عزيز باكرا» ؟

اخرجت نوتة صغيرة من حقيبة اليد البيضاء المطرزة بالخرز الاحمر في شكل هلال ، واخذت تقلب صفحاتها :

«نعم ... اين تقيم» ؟

«في استراحة مستشفى الرمد» .

«مستشفى الرمد ... امجنون انت» ؟ قالتها كانها كانت تبحث عن فرصة

لمهاجمته فوجدتها ... احس بالضيق .
«مكان مناسب لي ... اختاره رئيس المنطقة» .
«لا بد من تركه حالا لأن» ...
قاطعها قبل ان تكمل جملتها :
«ليس هذا مهما الان ... لديّ اسباب تدعوني الى البقاء ... متى انتظرك ؟ »
بلعت ريقها ، كمن استعد للكلام ثم غيّر رايه وآثر الصمت... سواد العينين فيه قسوة من تعود ان يطاع ...
قالت في صوت نبراته باردة ، خالية من الاحساس :
«الساعة الثامنة صباحا ... سامر عليك بسيارة الهلال» .
«وهو كذلك ... اشكرك» ...
التفت الى الآخرين :
«تصبحون على خير ...»
دلف من باب العمارة ... اخيرا ... الهواء النقي ... وقف بضع دقائق على الرصيف يملأ رئتيه بانفاس عميقة ... احس براسه تستقر ، وبالعرق يجف فوق جلده ... اتجه الى السيارة ... كان السائق ينام واضعا يديه وراسه على عجلة القيادة ... فايقظه .

***

جلس في المقعد بينها وبين السائق ... ذراعها تمتد وراءه على ظهر المقعد.. احس بنهدها يضغط على كتفه عبر القميص ... تطلع الى وجهها من طرف عينيه ... يتأمل ملامحها في فضول ... هذا النوع من النساء لا يشبع ... تبحث دون ملل عن ارتواء لن يتحقق ... عينان حادتان كالطيور الجارحة ... يزيد من حدتهما الكحل الاسود على الرموش ... الأنف مستقيم فيه رقة ، يميل عند الطرف الى اعلى ، نوع من التحدي ، كانه يقول ... «تركت مكانا للقبل ، ولكن اياك ان تحاول» . هذا الأنف ... اين رآه من قبل ؟ شيء غريب ... يكاد يجزم انه رآه من قبل ، انه يعرفه ... منذ زمن بعيد ... ايام الامتياز ... تذكر الان ... حفلة عند احد اصدقائه ... اخذا يتحدثان ... بدات تزوره في المستشفى . في بعض الايام يخرجان سويا عندما ينتهي من العمل ... كانت تحمله في سيارتها البيضاء الى شاطىء النيل ... يتوقفان قرب المعادي ... لم تكن تتحدث عن نفسها كثيرا ... ملمس المقعد الاسود الوثير ، والراديو ، والقمر يذوب في النيل ، يرتعش كلما مسته الاصابع الفضية ، والنسيم يحمل اليه عطرها ، لحظة ثم يهرب ، خفيفا مثيرا كما جاء ... شقتها عالية في قمة العمارة ... والشمس تتدفق من النافذة المفتوحة فوق جسدها العاري . عيناها

تضحكان في حزن . علمته ان الجنس فهم ، واحساس ، ثم اختفت ... عرفت ان طريقه ليس طريقها ... ما الذي ايقظ هذه الذكريات الان ؟ كل شيء هنا يذكر بالموت ... وانت تفكر في النساء ... ربما لهذا السبب بالذات ...

توقفت السيارة ... مدرسة ... وصفوف من الاسرة ... وجنود بلا صفوف ... قطيع ، ضائع ، مهزوم ... عيون مفتوحة في حيرة ... واقدام حافية تورمت من المشي فوق الحصى والرمال ... شيء كخف الفيل مفزع بشع ... لحم ممزق ... وجروح كالافواه المفتوحة يسيل منها الصديد ... وملابس ممزقة ، وذقون ينبت منها الشعر في اهمال ... وعيون ... وعيون.. واياد تمتد بالجوع ... بالأواني المعدنية ... ومغرفة .. وحساء ساخن يغلي في وعاء ضخم ... والعيون ... العيون التي تنطق بالحيرة .. ماذا حدث ؟ لم يفيقوا بعد مما حدث ... لم يفيقوا بعد من عذاب الجسد حتى يبدأ عذاب من نوع آخر .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة . احتل مكانه مرة اخرى بينهما وبين السائق وانطلقت السيارة مسرعة عبر الشارع العريض ترتفع على جانبيه اشجار الكافور العالية ... قالت متسائلة :

«انت صامت» .

«ماذا اقول» ؟

«هل تريد ان تزور باقي المراكز» ؟

«لا ... هذا يكفي» .

«أين سنذهب الان» ؟

«عندي موعد مع مدير مستشفى النصر» .

«سازور ضباط الوحدة البحرية ... أتريد ان تأتي معي ؟»

«كم تستغرق الزيارة ؟»

«ساعة» .

«اذن لا مانع ... هل يوجد تليفون قريب ؟»

«عند آخر الشارع ... توجد كابينة» .

جاءه صوته مرحا عبر الاسلاك ...

«اين انت ... يا اخي ! الا تريد ان تزور بنك الدم ؟»

«عندما يعمل» .

«انه يعمل فعلا ... المتطوعون وصلوا ... وزجاجات الدم بدات تدخل الثلاجات . من اين تتكلم ؟»

«من الكابينة في آخر الشارع الجسر» .

«احضر حالا اذن . سترى شيئا يشرح القلب ... المستشفى كان كالمأتم بعد ان ذهب اصحابه ... دبت فيه الحياة من جديد» .

رنت ضحكته عالية عبر السماعة .

«سأحضر بعد ساعة ونصف» .

«والفداء ؟»
«كما اتفقنا» .
«ناكل سمكا ... ونشرب بيرة مصقعة كالثلج» .
«وهو كذلك» .
«منتظرك ... لا تتأخر» .
تركا السيارة عند باب الميناء ... الجميع يعرفونها هنا ... رفع الحارس يده محييا وتركهما يدخلان ... سارا مسافة على اقدامهما ، ثم اتجها الى اليمين ... الى جوار الرصيف زورق طوربيدات . الصلب الرمادي ، والمقدمة الحادة كالسكين ... غضب مكتوم يستعد للقتل ... كلب الصيد ينتظر اشارة لينطلق .
دلفت عبر باب الكشك وأشارت له ليتبعها ... المساحة الصغيرة يحتلها مكتب ، وبعض المقاعد ، واربعة اسرة مثبتة في الجدران ... في احد الاركان جلس ضابطان شابان يلعبان «الكوتشينة» ... استقبلاها بحرارة واضاءت الابتسامات قتامة الحجرة بطلائها الرمادي الحزين ...
«أهلا وسهلا ست علية ... نورت المكان ... تفضلي» .
اتجهت عيونهما الى عزيز فقدمته :
«الدكتور عزيز عمران .. النقيب البحري عصام .. الملازم اول رجائي» .
«مرحبا بكما ... اجلسي يا ست علية ... شلتة تريحك ... لا مؤاخذة ، المكان ضيق تفضل مقعد يا دكتور ...» .
النقيب البحري عصام ... شعره اشقر وعيناه زرقاوان . قال :
«هكذا تركتنا طوال هذه المدة يا ست علية ... لا زيارة ، ولا حتى سؤال.. يا رجائي الم اقل لك كذا مرة ... وحشتنا الست علية» ؟
«اي والله ... وحشتنا زياراتك بالفعل» .
«وأنا اصبت بالتهاب في عيني ولم اجد من يداويني ...» .
مال ناحيتها ورفع عينيه الزرقاوين الى السقف كمن يستعد للفحص ... وضعت اصابعها على جانبي وجهه ومالت براسه قليلا الى الامام ، ثم اخذت تفتح جفونه ... استسلم للمساتها في سكون ، كان أصابعها فراشة ستطير عند اي حركة ...
قالت :
«يا نصاب ... عيناك ليس فيهما اي شيء» .
انفجر ضاحكا :
«شفيت من اول لمسة ... والله يديك فيهما الشفاء واكثر من الشفاء» .
جلس عزيز هادئا يتتبع حديثهما ... الاشياء البسيطة في الحياة تقهر الاحساس بالموت ... الملازم اول رجائي ... عينان ضاحكتان ، وملامح فيهما براءة ، ورقة ... مال عليه وساله :
«حضرتك «تردد لحظة» لم التقط الاسم بالضبط» .

«الدكتور عزيز عمران» .
«عمران ؟»
«نعم» .
«الاسرة من قطور» .
«نعم من قطور ... هل تعرف منها احدا ؟»
«انا اسمي رجائي عمران ... ومن قطور ايضا» .
وقف عزيز واحاطه بذراعيه :
«سمعت عنك الكثير يا دكتور عزيز ، وكنت اتمنى ان نلتقي ... وها نحن قد التقينا في هذه الظروف الغريبة» .
العينان تطلان عليه في صفاء ... بدا سعيدا كالطفل ... التفت الى صديقه الذي انهمك في حديث هامس مع السيدة علية ...
«تصوروا ... انا من نفس الاسرة ... نفس الاسرة ... ولم نلتق من قبل «كاد ان يقع من على المقعد» لا بد ان نحتفل بهذه المناسبة ... حضرة الصول ، حضرة الصول» .
اطل رجل من الحجرة الاخرى عبر الباب :
«نعم يا افندم» .
«عندنا بطيخ في الثلاجة ؟»
«يوجد بطيختان» .
«ارسلهما بسرعة» .
وضعوا المنضدة الصغيرة وسط الحجرة ... فرشوا فوقها ورقة جريدة ... شقوا البطيختين بمطواة البحارة الحادة ... واكلوا ... الشفاه والاسنان ، والانوف تنغرس في اللحم الاحمر ... والعيون تضحك في العيون فوق حافة القشرة الخضراء ... كانها تلتقي فوق الكاس ... والعصارة تسيل فوق الذقون ، وتسقط على الارض ... واللب الاسود يتطاير في الهواء مع الكلمات .
جاء وقت الانصراف ... قال عزيز :
«هذا الكتاب هدية مني لكما ... ترجمة مسرحية اسمها «الانسان الطيب»».
«شكرا ... كنا نبحث عن شيء نتسلى فيه ... الانتظار صعب ، والساعات طويلة ... ولكنك ستعود لزيارتنا بالطبع ؟... وانت ايضا يا ست علية» ؟
«طالما انني في بورسعيد» .
ضمه مرة اخرى بين ذراعيه ... احنى راسه ومر من الباب المنخفض . الصول ينتظرهما في الخارج ليوصلهما ... زورق الطوربيد ما زال رابضا فوق المياه ... ينتظر ... الشمس مشرقة والسماء صافية ... ولكن رائحة الموت في كل مكان ...

★★★

نظر الى ساعته ... الواحدة بعد منتصف الليل ... جلس السكرتير على مكتبه يتناول طعامه ... رغيف من الخبز ، وثلاثة اقراص من الطعمية يسيل منها الزيت مع الحبر الازرق على الورقة ، وكوب من الشاي . في ركن الحجرة سرير، عليها ملاءة بيضاء متسخة وبطانية «ميري» . قال معتذرا :

«نحن ننام ونأكل هنا ... تفضل ... لقمة بسيطة» .

«شكرا ... سبقناك» .

«السيد المحافظ منتظرك ... اول باب على اليمين» .

مكتب عريض ، ولمبة تلقي ضوءها الابيض على الاوراق ... خلفه نافذة مغلقة تمتد بعرض الجدار ... جلس على المقعد ... ملمس الجلد الطري مريح تحت إليتيه ... قدم له علبة من الصدف .

«سيجارة» ؟

«شكرا» .

اشعل السيجارتين بولاعة فضية ... ذراعه تمتد عبر المكتب بسهولة لا بد انه طويل القامة ... شعره يلمع باحمرار خفيف في الضوء الخافت .

«هه ... كيف الحال ؟... ارجو ان يكون كل شيء على ما يرام» .

«كل شيء على ما يرام ... بنوك الدم الثلاثة تعمل ... مولد الكهرباء نقل من مخازن شركة القنال الى المستشفى العام ... ومستشفى الميدان الجديد جاهز ... بقي ان ندخل بعض التعديلات على مراكز ايواء الجنود» .

«ونظام الاسعاف ؟»

«سأتفقده باكرا ... لم يتسع الوقت لذلك حتى الان» .

«الوزير اتصل منذ ساعة يسأل عن حالة الطوارىء ... أبلغته انني سأقابلك بعد ساعة ... سأطلعه في الصباح ... هل تريد شيئا ...»

«لا . شكرا ... بفضل مساندتك كل شيء أنجز ...»

نظر عزيز الى ساعته ... لمح الحركة فابتسم .

«امتعب انت ؟»

«لا ... ابدا ... ولكنني اريد ان اتركك لترتاح ؟»

«ليست لي رغبة الى النوم ... امكث قليلا لنتحدث ... في هذه الايام لا توجد فرصة للتحدث مع احد ... خذ سيجارة اخرى ... انها طازجة ... نحصل عليها من السفن المارة من القنال ... ولكن الان ...»

صمت ... انه ينظر الى عزيز كأنه يحاول ان يتذكر شيئا .

«يا دكتور عزيز ... الا تتذكر اننا التقينا من قبل» ؟

قطب عزيز جبينه ...

«منذ سنين طويلة ... في المندرة بالاسكندرية ... كنت انا طالبا بكلية البوليس» .

تذكر فجاة الشاب الفارع الطول ... سنه الأمامية مكسورة عند طرفها ... وشعر احمر . حملق في وجهه ... فعلا ، الشبه يتضح الان ... كان يرتدي

بذلة الكلية ... السترة البيضاء والسروال الاسود ... وضفائر القصب الذهبية على الكتفين ... يضع العصاة تحت ابطه ، ويختال على رصيف الكورنيش ...
«ثلاثون عاما مضت» .
قال ضاحكا :
«حسبتها بسرعة ... اتتذكر اسرة حمدان ... كنت انت دائما معهم ...»
«نعم ... اتذكر ... واتذكر ايضا ابنة حمدان الشقراء التـــي اردت ان تتزوجها» .
عاد اليه كل شيء الان .
ضحك في سرور ... ذكريات الشباب والحب القديم ... جاءه الســؤال الذي توقعه ...
«اين هي الان ...؟»
«تزوجت ... ولم توفق في زواجها ... فاتفقت مع زوجها على الطلاق ... تعيش وحدها الان وتعمل مدرسة» .
«يا للخسارة ... كانت فتاة رائعة الجمال» .
«لماذا لم تتزوجها ؟»
«رفض اهلها ... قالوا انها صغيرة على الزواج ، وانني ما زلت طالبا ... فقلت لنعقد الخطوبة ، ونتزوج عندما تسمح الظروف ... ولكن اسرتي كانت على قدر الحال ... ربما كان هذا هو السبب الحقيقي في اعراضهم ...» .
«ربما» .
«كل شيء نصيب» .
«فعلا» .
ابتسم عزيز ... سلوى للانسان عندما يفكر فيما فاته ...
ساد الصمت ... جفونه تسقط من التعب ... ربمـــا يشعر الرجــــل بالوحدة ... اسرته لم تعد في بورسعيد بالطبع ... قفز ذهنه الى موضـــوع آخـــر ...
«من المسئول عن الاسعاف» ؟
«رجل يدعى عطية مبارك» .
خفق قلبه ... اذن هو هنا ... على قيد الحيـــاة ... «لماذا اختــــرت بورسعيد ؟» من اجل عطية مبارك يا حضرة النقيب ... من اجل اشياء مضـــى عليها سبعة عشر عاما ...
«عطية مبارك ؟»
«نعم ... هل تعرفه» ؟
«لا ...»
«شخصية نادرة . عمره سبعون عاما الان او يزيد ... عندما تحدث غارة يركب سيارة الاسعاف ويذهب الى مكان الحادثة ... يرفض ان ينتظر حتـــى

تنتهي ... القنابل تسقط فوقه وهو يجري هنا وهناك ... قلب لا يعرف الخوف رغم سنه ...»

عاد الصمت ... قلب لم يعرف الخوف ابدا ... القلب الكبير يستوعب كل شيء ... حتى الخوف ... يحس به ولكنه يستوعبه ...

«انت تدرك ان عمله كمحافظ يتطلب ان أدرس الناس جيدا ... انه عمل سياسي قبل كل شيء» يتحدث الآن من موقع المنصب ... يجلس منتصبا على مقعده ويطل من اعلى ...

«وقد تنقلت كثيرا في أنحاء القطر اثناء الخدمة في البوليس ، ولكنني لم اقابل رجلا مثله» .

حسنا ... فليتركه يتكلم ... لم يعد يريد ان ينصرف ... ولا ان ينام ... زال التعب ، واختفى ثقل الجفون .

«عطية مبارك ابن بورسعيد لحما ودما ... لا توجد اسرة لا تعرفه ... بل لا يوجد طفل وصل سن الكلام ولا يعرفه ... ربما اعتقدت انني أبالغ ... ولكنها الحقيقة ... والله لو تقدم امامه جمال عبد الناصر نفسه في انتخابات حرة فعلا، لنجح عطية مبارك في اية دائرة يختارها في بورسعيد» .

«ولكنني لم اسمع انه دخل مجلس الامة» .

«قصة ستدهش لها ... رفض ان ينضم الى الاتحاد الاشتراكي ... حاولوا معه المستحيل ... اصدقاؤه ، واقرباؤه ، والقائمون على السلطة ... انا شخصيا حاولت معه . قلنا له سنغلق عليك اية دائرة تختارها في بورسعيد ... ذهبت كل المحاولات سدى ... راسه صلبة كالحجر» .

«ماذا كانت حجته ؟»

«قال : انتم اكيلة عيش تبحثون عن اللقمة السهلة ... اما انا فلن انافق ابدا ... ساحيا وفديا ، وسأموت وفديا ... وليكن ما يكون ...» صمت لحظة ثم اكمل في بطء كأنه يسرح فيما يقول «رجل أطواره غريبة» .

رجل اطواره غريبة ... نفس الجملة ... سمعتها منذ سبعة عشر عاما ... انه كما هو ... لم يتغير ... احس ان قلبه سينفجر ... انه كما هو ... لم يتغير ... غدا سيلتقي به ... سيضع يده في يده ... ويسمع صوته المبحوح ... ويلمح بريق السخرية والحنان يطل من بين جفونه المثقلة بالهموم .

تردد في الحجرة اهتزاز خفيف ... سمع صوتا بعيدا كالانفجار المكتوم... ارهف السمع ... مرة ثم صمت ... ثم مرة اخرى ... ثم صمت ... ثم عدة انفجارات سريعة متتالية .

قال المحافظ :

«انها ناحية البحر» .

أطفأ النور على مكتبه وفتح النافذة ... خرجا على الشرفة الواسعة ... عند الافق شيء كالوهج الاحمر .

«معركة بحرية ... ربما حاول الاسرائيليون الاقتراب من شواطئنا» شيء من

القلق في صوته ... عادا الى الحجرة .
قال عزيز :
«ينبغي ان اتركك الان حتى تتناول شيئا من الراحة ... الساعة الان الثالثة صباحا» .
«وانت كذلك ... امامك يوم طويل» .
هز عزيز راسه موافقا ... مد يده عبر المكتب :
«تصبح على خير» .
اتجه ناحية الباب ... سمع قرص التليفون يدور ثم صوت المحافظ يقول :
«الو ... غرفة العمليات ... اعطني ...»
اغلق الباب خلفه ... هبط السلالم ببطء ... النجوم تبرق واضحة في الليل ... كانت هكذا في الصحراء ... فتح باب السيارة وجلس ... الملازم اول رجائي عمران ... ترى اين هو الآن ؟... رائحة الموت في كل مكان .

***

ليس الزمن الا وهم ... فانت تعيش الماضي مئات المرات ... كانه حاضر متجسد امامك ... وانت تعيش الحاضر مئات المرات كانه حلم ، يفلت من بين اصابعك ، ويتبخر ، فلا تجد شيئا تمسك به في قبضة يدك ... وانت تعيش في المستقبل مئات المرات ... قبل ان ياتي ... تعيشه كانه حاضر ... تضع اطراف اصابعك عليه ، وتكتشف ملامحه ، كالمثال ... يغلق عينيه ، ويتحسس ثنايا الحجر المنحوت ... كالاعمى يعرف وجه حبيبته دون ان يراها ... فالخيال يتخطى كل الحدود ... يقفز فوق السنين في لحظة ... ويجعل من اللحظة سنين .
صعد الى حجرته في مستشفى الرمد ... خلع ملابسه ، واطفأ النور ... نام فوق السرير ، واستسلم لنعاس قلق ... احس ان سريره يتحرك ... كالسيارة ، على اربع عجلات ... انه ينام متكورا على نفسه ... راسه مضغوطة تحت سطح منخفض ... وركبتاه تصطدمان بجدار خشن ... صوت المطاط على الاسفلت كالنغم ... وخيوط الماضي لم تعد تربطه ... فالسيارة المسرعة تحمله بعيدا ... الذكريات احمال تركها وراءه ... وجيوبه خاوية لا تحوي شيئا ... لا نقود ، ولا صور ، ولا بطاقة ، ولا جواز سفر ، ولا حتى مفتاح لبيت . الآن لا يملك الا عقلا يقظا ، وجسدا صقلته لسعة الكرباج ... جسدا لا يحمل اوزانا او اثقالا ... لا شيء سوى قميص ... وسروال ، وحذاء يتحمل الحصى والحجارة.
توقفت السيارة فجأة ... سمع خطوات تقترب... انتفح غطاء الصندوق.. شبح رجل يطل عليه ، ومن ورائه نجوم السماء ... صوت مبحوح سمعه من قبل يقول :

«الا تريد ان تمد ساقيك» ؟

المقعد الوثير يمتد كالاسفنج تحت جسمه ويبدد بقايا الالم ... أطل من النافذة يحاول ان يرى شيئا ... الصق انفه في الزجاج دون جدوى ... فراغ ضخم كالبحر الساكن في غيبة القمر ... واضواء بيضاء كالكشافات تشق الليل امامهم .

يجلس الرجل الى جواره صامت ... لا يسمع الا انفاسه المنتظمة ، ولا يرى تفاصيل الملامح ... ولكنه ، مع ذلك ، يعرفه ... وجه مربع تحت الطربوش... وجسد راسخ فوق المقعد .

أحس بيد تمتد اليه في الظلام .

«لم اعرّفك بنفسي ... انا عطية مبارك» .

***

كانت الساعة السابعة صباحا عندما دق جرس التليفون ... رفع السماعة ... جاءه صوتها واضحا كانها معه في الحجرة :

«صباح الخير ... ما برنامجك اليوم ؟»

«سأتفقد نظام الاسعاف» .

«الا تريد ان تزورنا في الهلال الاحمر» ؟

«لا ليس اليوم ... كنت افكر في الاتصال بك» .

«لماذا ؟» بشيء من اللهفة .

«اريد ان اذهب الى الوحدة البحرية» .

«اليوم ؟... كنا هناك بالامس» .

«يوجد سبب خاص» .

«وما هو ؟»

«عندما نلتقي ...»

«ساكون عندك بعد نصف ساعة» .

وجد سيارة الهلال امام الباب ... اخذ مكانه المعتاد بينها وبين السائق ... ترتدي نظارة سوداء اليوم ... لا يحب النظارات السود ... تخفي عيون الانسان ، والعيون الفاحصة في الخفاء ، وعيون المباحث ، والبوليس ، والعمي. كالجفن المعدني يسقط فوق عيون الابواب ... قالت :

«الى الميناء» ؟

«نعم ...»

«خير ان شاء الله» .

«الم تسمع شيئا اثناء الليل ؟»

«شيئا» ؟

«انفجارات» .

«في اية ساعة من الليل» ؟
«حوالي الساعة الثانية والنصف» .
«كنت اغط في النوم ... اين كنت ؟»
«عند المحافظ ... خرجنا الى الشرفة عندما سمعنا الانفجارات» .
«ارايتما شيئا» ؟
«وهجا احمر على مسافة بعيدة في البحر» .
صمتت .
«تريد ان تطمئن» ... قطعت الجملة كأنها تطرد الفكرة .
دخلا من باب الميناء ، سائرين على نفس الطريق ... الرصيف خال ... لا اثر لزورق الطوربيد ... في الكشك ضابطان ... بدلة البحرية الزرقاء ، والكوتشينة ، والجدران الرمادية ... كل شيء كما هو ... الوجهان فقط جديدان .
سأل : ـ
«اين الملازم رجائي عمران ؟»
«نقل» .
«متى ؟»
«بالامس» .
«والنقيب عصام ؟»
«كذلك» .
«الى اين» ؟
«لا اعرف ... لمح كتابا فوق المنضدة ... قلبه بين يديه ... لم يقراه ... سبقه الزمن قبل ان يقراه ... الزمن ليس وهما ... الزمن هنا حقيقة ...
قال : ـ
«هذا الكتاب اعطيته لرجائي بالامس ... هل تسمحان لي بان آخذه معي... ذكرى » .
خرجا ... الرصيف خال ... لا اثر لزورق الطوربيد ... السنة المياه تلحس الجدار باطرافها القذرة كأنها تسخر منه ... سارا نحو الباب . أحس بعينين تتبعانهما ... تلفت .. على مقربة من الباب وقف الصول ... الوجه جامد كالصخر ... والشارب الكث ... والعينان واسعتان لا تطرفان .
«اين الملازم رجائي يا حضرة الصول» ؟
لحظة تردد خاطفة ... ورعشة خفيفة في العين ، تكاد لا ترى ... ربما مجرد تهيؤات ... خرجت الكلمة بطيئة ... حجرة تسقط من بين الاسنان .
«نقل» .
اعاد السؤال :
«اين الملازم رجائي يا حضرة الصول ؟... انه قريبي» .

نظرة العينين ما زالت ثابتة ... صامتة ... تنطق بصمتها . وقف امامه لحظة طويلة ، عيناه في المقلتين ... اللسان يقول لا ... والعيون تقول نعم .. ربما مجرد تهيؤات .. التعليمات تقول لا ... والعيون تقول نعم ... ربما مجرد تهيؤات . لماذا هو بالذات ؟.. ربما خرج آخرون في الزورق . ربما نقل الزورق الى مكان آخر بالفعل ... ربما ...

«متى نقل ؟»

«بالامس» .

«الى اين» ؟

«لا نعرف» .

انه يعرف الاجابات مقدما الان ... نقل ، بالامس ، لا نعرف ... كالاسطوانة ... كشريط التسجيل الرديء ينتظر المسح ... الاجابات تقول لا .. والعيون تقول لا استطيع ان اقول شيئا ... العيون اصدق من اللسان ... العيون فيهما حزن صامت ... حزن لا يبكي ... رات الكثير ... وتحملت... ولم تعد تبكي ... ربما مجرد تهيؤات .

رافقهما حتى الباب ... مد يده ... يد كبيرة ، خشنة احتوت يده «مع السلامة» ادى التحية العسكرية وانتظر حتى تحركت السيارة ثم استدار . لمح ظهره العريض يعبر الباب .

الملازم رجائي عمران ... لن يراه بعد اليوم ... انه متاكد الان ... كان يمكن ان يراه مجرد اسم على كشف ... خاطر سريع ... هذا قريبي ... اسم لا يعني شيئا بالنسبة اليه ... ولكن ، الان ، ماذا يربط بينهما ... لقاء عارض؟ لحظات في كشك ؟ ضحك في العيون ؟ ماذا ؟

وضع الكتاب امامه خلف الزجاج ... سالت :

«ما هذا الكتاب ؟... اريني» .

مدت يدها واخذته .

سمعها تقرا كانها تهمس في اذنه :

«الانسان الطيب» .

كان صوتها رقيقا حزينا هذه المرة .

***

الزمن مجرد وهم ... فالنافذة المفتوحة ما زالت تطل على البحر... مساحة خضراء باهتة تمتد حتى الافق ... وعلى الشارع ... نفس الشارع ... وعلى المباني الحكومية ... كتل رمادية مستطيلة او مربعة ، تفصل بينها الاحواش ...

المبنى المقابل لهم تماما مبنى المحافظة ... يرى رجال الشرطة بستراتهم البيض ، والازرار النحاسية اللامعة في ضوء الشمس ، وحركاتهم المتشنجة ، كالعرائس الميكانيكية ، كلما مر الى جوارهم احد الضباط ...

في الساعة الثامنة والنصف يتدفق سيل من الموظفين عبر الباب الحديدي الكبير ... الاكتاف محنية ، والصحيفة تحت الابط ، والوجوه الشاحبة المتشابهة، والسبحة تتدلى من بين الاصابع ، ففي مثل هذه الايام تكثر السبح ... اصواتهم وضحكاتهم تتلاشى فجاة عندما يصعدون درجات السلم ، وحركة الاصابع فوق حبات السبحة تسرع كلما اقتربوا من الدور الذي يوجد فيه مكتب المحافظ .

تطلع الى اوراق الشجر في دهشة ... كانها غريبة عن هذا المكان ... يتساءل كيف احتفظت بنضارتها وسط كتل الحجر ، وكتل البشر يبدون كالآلات المنضبطة ، اكتافهم محنية من ثقل الاوامر ، وعيونهم مثبتة على الارض ، كانما مجرد رفعها عنه قد يشتمّ منه العصيان .

مر اسبوع منذ ان وصل الى بورسعيد ... صعد السلم مع عطية مبارك . عشرات التفاصيل تذكره بتلك الليلة ... ضوء اللمبة الخافتة المثبتة فوق الباب عند كل دور ... رائحة التقلية تنضج فوق النار ... اصوات النساء في الشقق المغلقة ... الصالة الصغيرة والمرآة ، والستائر .. النجفة البيضاء تتدلى من السقف العالي ، وفراشات الصيف تدور حولها بحفيف منتظم ، لا يقطعه سوى ارتطام الاجسام الهشة بالزجاج الساخن .

امسك بذراعه ، وقاده الى حجرة الاستقبال ... المقاعد المذهبة الغليظة ... كأن لا شيء يستطيع ان يزحزحها ابدا ... والانوار الخافتة ... وجو الكآبة ... والمراة السمراء ، تجلس امامها ، طرحة بيضاء حول الوجه المستطيل (فلم يعد بيضاويا كما كان) وعيناها ، نفس العينين تصبان في عينيه بنظرة فاحصة ... قالت في صوت هامس ضعيف ، كانها تؤكد بقايا الانوثة :

«اهلا وسهلا . الحمد لله على السلامة» .

قامت تتكيء على ساقيها كأنهما عكازتان من الخشب ... مدت يدها الى ذراعه ...

«حجرتك جاهزة ... والمياه الساخنة في الحمام» .

النافذة المفتوحة تطل على البحر ... مساحة خضراء باهتة تمتد حتى الافق .. كالملل ... البواخر لم تعد تسير فوق سطحها ، خيوطا من الدخان الاسود بالنهار ، واضواء تتلألأ بالليل ... انها تقف جامدة في الميناء ... عيونها المعدنية تحملق بنظرة صماء خالية من البريق ... خالية من الحياة ... تقف على مسافة قصيرة من الرصيف ... يكاد ينفذ الى أعماقها ... لكنها لا تكشف عن شيء في الاعماق ...

يخرج مع عطية مبارك في الصباح الباكر ، ويعودان بعد منتصف الليل . في بعض الايام يتناولان طعام الغذاء مع الاسرة ... اطباق الارز الابيض ، والبوري المشوي يرقد صفوفا مفحمة ، الذيول كالمراوح ، والعيون كالخرز الاخضر في الرؤوس المدببة . يجلس الرجل عند قمة المائدة ... الان يستعصي عليه السمع فازداد صمته ... عيناه نصف مغلقتين ، تطل منهما نظرة مرهقة كأنه مل المنظر

المألوف ... الى جواره الحاجة ... الوجه الاسمر المشوب بصفرة مريضة ... قناع تتحرك فيه الشفتان الرفيعتان دون أن يصدر عنهما صوت ... العينان... العينان فقط كما هما ... تلاحظان ... كأنهما تدبران في الخفاء ... وفاطمة كل شيء فيها تضخم ... الذراعان ، والنهدان ، والبطن المنتفخة تحت قميص النوم ... اظافرها الحمر تمزق اللحم الابيض ... والعينان ترنوان الى زوجها بنظرات ذبيحة كالضحية تحت يد الجزار . ومحمد ... يمسح على شاربه الدقيق بحركة بطيئة من طرف ابهامه ... أسنانه اصبحت داكنة من كثرة التدخين ... يشفط من سيجارته بصوت مسموع ... ويضحك فجأة ... ضحكة غبية ممطوطة ... ثم يعود الى الصمت ... لا تعرف لضحكته او لصمته سببا ... وبين الحين والحين يلقي على زوجته بنظرات جانبية كالذي يطمئن على شيء يملكه ويخشى عليه من الضياع ... بقايا انسان التهمه المخدر ... ومصطفى قامة طويلة تنحني عند الكتفين ... وشعر اشيب ... يحملق امامه على الدوام ... باحثا عن شيء مفقود .

الوجوه تطل في صمت ... والاصابع تمتد في صمت ... وحركة الفك الاسفل على الفك الاعلى ... ترتفع وتنخفض في انتظام رتيب... سلوك الاتصال انقطعت بينهم منذ زمن ... جمع من الغرباء يعيشون تحت سقف واحد ...

خرجا من باب الشقة ، وهبطا السلم ... عطية مبارك يسند يده على كتفه ... فلم يعد يرى الدرجات جيدا ... الدائرة البيضاء تتسع في المقلة السوداء ... قال :

«سنمشي على اقدامنا ... ليس عندي سيارة» .

سارا بخطى بطيئة فوق الرصيف ... نفس الرصيف ، عند ناصية الشارع، امام القهوة ينتظرهما رجل ... ممتلىء الجسم في بدلة الاسعاف الصفراء . مد عطية مبارك يده .

«كيف حالك يا عم مرزوق ؟.. الدكتور عزيز عمران ، من القاهرة» .

الاصابع تلتف حول يده قوية كأنها تقبض على خشبة النقالة ... احس بالقشور الخشنة .

«جئت مبكرا يا مرزوق» .

اقترب من اذنه وصاح بصوت عال :

«لم تعد لدينا اسطوانات اكسجين» .

«هه ... لم أفهم ...»

مال على اذنه مرة اخرى ...

«لم تعد ... لدينا ... اسطوانات ... اكسجين ...»

«ساذهب الى المحافظة بعد ساعة ... اجلس معنا نشرب الشاي ، ثم نذهب سويا ...»

جلسوا على مائدة صغيرة من النحاس في ركن القهوة ... تلفت عزيز

حوله ... لا يوجد احد سوى رجل ينام فوق مقعده . يفتح عينيــــه بين الحين والحين ثم يغلقهما دون ان يتحرك . قال :

«قررت ان اسافر الى القاهرة اليوم» .

«هه» .

«قررت ... ان أسافر ... الى القاهرة ... اليوم» .

«لمَ الاستعجال ؟... ابق معنا الليلة ثم سافر في الصباح الباكر ... اتفقت مع الحاج سيد على لحمة الراس» .

«لا ... لا بد ان أسافر اليوم» .

«ومتى تعود ؟»

«بعد يومين ... سانصرف الان حتى اصل قبل الظلام ...»

«ترجع بالسلامة ان شاء الله ... منتظرينك» .

خرج من القهوة مسرعا ... لم يبق سوى نصف ساعة ليعود الى الاستراحة ويعدّ حقيبته ... اطل عليه عطية مبارك من النافذة وصاح :

«اياك أن تتأخر ... اتصل بي فور وصولك الى بورسعيد» .

راى اسنانه بيضاء في الوجه الاسمر ... ابتسامة واهنة في الظلام ... شيء في الوجه لم يلاحظه من قبل ... زرقة داكنة وتورم يلغــي قوام الملامح ، كأنها استسلمت للارهاق ... الزمن ... ليس الزمن وهما يا عزيز ... اسرع الخطى كمن يهرب من شيء في نفســه ...

***

قفز فوق درجات المستشفى كأنه في سباق ... كاد ان يطيح باحــــدى الممرضات تطرقع كعوبها العالية فوق البلاط ... التقط انفه الرائحة التـــي يكرهها ... رائحة الدم ، والصديد مختلطا بالليزول ... دفع الباب الهزاز بقوة ثم وقف ... انهم يجلسون امامه على صف من المقاعد ... الحاجة ، وفاطمة ، ومحمد ، ومصطفى . حملقت فيه العيون بنظرة مرهقة فارغة كأن شيئا اعتصرها حتى من الاحساس ... انحنى وقبل وجه الحاجة ... دفعة فجائية مــــن العطف ... مهما كان ...

«اين هو ؟»

اشار محمد براسه نحو الباب المغلق ... فتحه برفق ، ودخل ... اسطوانة من الاكسجين صدئة قبيحة في الركن ... وسرير ابيض ، ورجل ينام على ظهره فوق السرير ... الجسم المربع .. والوجه المنحوت تشوبه زرقة داكنة ... والفم نصف مفتوح يسيل منه اللعاب ... مد يده الى معصمه واخذ يبحث عـــن النبض ... رفع الذراع الى اعلى وتركها تسقط ... العينان تنظران اليـــه كقطعتين من الزجاج ... خاطب الجسد الممدود ...

«عم عطية ... كيف حالك ؟... عم عطية ...»

سؤال أبله يائس ... يعرف الاجابة عليه مقدما ... ويرفضها ...

خرج من الباب الآخر الى الطرقة ... انه لا يريد ان يرى احــــدا ... لا يستطيع ان يرى احدا ... الميدان الفسيح امام المستشفى لا حركة فيه ... صبي صغير يجلس القرفصاء على الرصيف وامراة تحمل مشنة من الفجل على راسها وتحملق في شيء بعيد ... وفوهات المدافع ترفع عيونها الفاغرة الصامتة للسماء .. سار يضع خطوات فوق الرصيف المهجور ... سمع صوت الراديو ينطلق من نافذة مفتوحة في الدور الاول للمستشفى كان احدا ادار المفتاح ليسمع الآخرون ... جاءه صوت المذيع واضحا يعبر الميدان ...

«اعلنت حكومة الجمهورية العربية المتحدة قبولها وقف اطلاق النار فـــي الساعة ...»

سيقانه تحمله وحدها ... الى اين ؟ لا يعرف ... الصبي ما زال يجلس القرفصاء على الرصيف ... والمراة تحمل مشنة الفجل ، وتحملق في شـــيء بعيد ... وعطية مبارك يرقد هناك ... والمدافع ... وصوت المذيع يقول ... وعطية مبارك يرقد هناك ... وصوت المذيع يقول ...

آه لو كان يستطيع البكاء ... آه ... لو كان ... يستطيع ... البكاء...

★★★

النافذة مفتوحة ... وضجيج المرور في الشارع العريض يرتفع في زئير متصل ... سيارات ، وتاكسيات ، ومقطورات النقل عملاقة ، وعربات كارو ، ودراجات بخارية ... سيل لا ينقطع ... يطرقع ، وينفجر ، ويدب فوق الطريق، ويسرع في جنون الى هدفه كأنه يريد ان يصل اليه قبل سقوط الظـــلام ... واصابع تضغط في اصرار على أبواق التنبيه ... حركة عصبية من عضلات اليد اصابها نوع من التشنج ... الشمس الغاربة تسقط كالبرتقالة الضخمة خلـــف الاشجار ... والزهور الحمراء كالدماء القاتمة فوق الفروع ... تحوم حولهـــا أسراب الطيور باحثة عن مكان للمبيت ... النوافذ تغلق الواحدة بعد الاخرى ، واضواء المنازل تنسحب خلف الزجاج الازرق ... مقهورة امام زحف الظلام ...

جلست نادية امامه على الكنبة تقرا في بقايا النهار ... ساقاها مرفوعتان تحت القميص في وضعهما المعتاد ... والقدمان تبرزان من تحت الطرف فـــي خجل كانها تحاول ان تخفيهما ... يحس بعينيها ... سواد مفتوح يطل من فوق الكتاب على وجهه ... لحظة ... ثم يتوارى تحت الجفون ... سؤال صامت يظهر ويختفي ... يقدم على النطق ، ويتراجع عنه ... انها تعرفه الان ... ايام الطفولة ، وايام السجن ... تركت آثارها ... القلق والالم اشياء تدفن فـــي النفس ... فهي كالوباء تسري الى الآخرين ... الصمت طبيعة تعجزه عـــن الكلام ... تغير الان ... ولكن ، احيانا ، يعود كما كان .

آخر اجتماع في مكتب الوزير ... جلسوا في صمت ... قرار بحل اللجنة ... هكذا في دقيقة ... ولا كلمة واحدة من التقدير ... لا ينتظر منهم شيئا ... ولكن هؤلاء ... تركوا بيوتهم ... ذهبوا الى القتال ... تقديسر للعمل الجيد ... للتضحية مهما كانت بسيطة ... اشياء لا يعرفونها الا لغرض.. الا في الخطب ... حتى شهامة الرجل العادي لا يعرفونها ... ابتسم في سخرية .. كالارانب .. الآن تغير الموقف ... لا احد يعلم ماذا سيحدث ... الخوف يحلق في الحجرة كالبومة في الظلام ... تحس بوجودها الخفي ... الخوف في العينين القلقتين ... ربما عمل اليوم يحاسب عليه غدا ... هكذا دائما ... التأرجح من موقف الى موقف ... من الاقدام الجريء الى الانسحاب غير المنتظم ... من الثورة الى الاستسلام ... فئة تقف في الوسط ... لا في الاكواخ مع الناس ... ولا في القصور مع الاقطاع وملوك المال .. عين في الجنة ... وعين في النار ...

منذ ان عاد انقطع عن العمل ... يقضي اليوم كله في البيت ...

اقدام تصعد السلم وتهبط عليه في كل وقت ... وفي اي وقت ... جرس الباب ... وجرس التليفون ... يتناوبان في رنينهما .. احاديث ومناقشات.. واخبار ... واشاعات ... الامريكان يضغطون .. يريدون تغيرا اساسيا في النظام ... شيء يدبر في الجيش ... اسرائيل ستعبر القنال .. لا ، لن تعبر... اوقفت كلعملياتها العسكرية. لا تريد اذكاء روح المقاومة في الشعب... حققت انتصارا وتنتظر لتجني ثماره ... تترقب عوامل الانهيار في الداخل ... الرجعية تطل براسها ... وجوه ، ووجوه ... زملاؤه القدامى ، عادوا ... سيد ، وعماد ، وحلمي وغيرهم ... الان شيء يدفعهم الى اللقاء ... قلق على المصير ...

ولكن منذ ان عاد اعتراه احساس غريب ... فراغ في داخله ... خواء... كمن جرى مسافة طويلة ليصل الى هدف ... فوجده سرابا ... الدنيا توقفت عن حركتها .. الشمس تشرق وتغرب ... الناس يسيرون في الشوارع والحوانيت تفتح وتغلق ... اوراق الشجر تهتز في نسيم الصباح والمساء ... الليل ينقضي والنهار يأتي ... ولكنها مجرد حركة آلية تسجلها عقارب الساعة.. الاشياء فقدت روحها ... لم يبق سوى قوام خارجي ... سوى هيكل افرغ من معناه ... من السخونة ، والبرودة ، والانفعال ، والحس . عقله يسجل ، وعيناه تريان ... ولكن في النفس ، لا شيء ... نادية تروح وتجيء امامه ... ينظر اليها كالغريبة ... وجدت في هذا المكان بالصدفة ... حتى يوسف يبحث عن الاطمئنان المفقود الى جواره ، فلا يجده . يقترب منه ، ويبتسم له ابتسامة مترددة ، متسائلة ، ويضع راسه على كتفه احيانا ... ثم ينطلق من الحجرة صائحا : «ماما ، ماما ابن انت» كانه احس فجأة ان هذا الاب ليس اباه ...

طوال السنين الماضية ، منذ ان عاد ... كان ننفخ في قربة مقطوعة ... اكاذيب ... اوهام ... احلام ساذجة انهارت على صخرة الواقع ... اكتشاف

بطيء ، ويومي للحقائق ... للكلمات التي تؤدي الى عكس ما تقول ... للسوس والحشرات تنخر في الجذع المتين ... تمتص العصارة ، فتجف الاوراق والثمار ... تمتص ، وتمتص ، وتنخر وتنخر حتى سقطت الشجرة كلها على الارض ، دفعة واحدة .

محاولات لا فائدة منها ... سيضيع العمر كله جريا وراء اشياء لن تتحقق.. الواقع اقوى ... لماذا لا يستمتع كالكثيرين ... فرص الحياة مفتوحة ... ما زالت فيه قوة الشباب .. سينسحب من كل هذا العناء ... الدنيا الواسعة ... والسماء الصافية ... والاقطار والبحار والكتب ... والسفر .. ولحظات من السعادة مع نادية ... سينسحب ويعيش لنفسه ... لن يستطيع ان يغير شيئا ... ربما استطاع ان يكتب ... ولكن عما يكتب ؟... لا يوجد ما يريد ان يكتب عنه ... وما فائدة الكتابة ... لا شيء ينشر ... ولا احد يقرأ ... يد من حديد احكمت قبضتها مع الايام .

العينان الواسعتان تطلان اليه من فوق الكتاب .. ثم تعودان الى الصفحات.. سؤال خاطف يكاد يلتقي ... يتردد ... ينسحب . لماذا لا يتكلم ؟ في الكلام راحة ... لم يبق سوى انت وانا ... حملنا العبء سويا منذ البداية ... عتاب في العينين ... انا احبك . حدثني ... هذا الصمت يقتل ... الا تثق فيّ.. لماذا تعذب اقرب الناس اليك ؟... لست مسئولة عما حدث لك في الماضي .. كانك تكرهني في بعض الاحيان ... المرارة .. واحساس بالفشل ... الى متى تحملهما في صدرك .. كالكنز الثمين ... الجدران ، و .. القضبان تبرير سهل لكل شيء ... تبرير للغضب ، وللقسوة ... تبرير للنزوات الصغيرة التي تسيطر عليك احيانا ... للقنوط ... احساس دائم بالاحباط ... الان كل شيء انهار ... قال : «من المسئول عن الفشل الذي احاط بنا ؟... من المسئول عما حدث» ...؟

وضعت الكتاب جانبا ... اخيرا ... تبحث عن اجابة تريحه ... قاسية مع نفسها والآخرين عادة ... قوة الحقيقة ... لكنها الان تبحث من اجله عن اجابة تريحه ...

«اولئك الذين كتموا كل الاصوات المخلصة» .

«وحدهم ؟... واين كانت الاصوات المخلصة ؟»

«ماذا كنا نستطيع ان نفعل ...؟»

صمت ... فعلا ... ماذا كنا نستطيع ؟.. الواقع فرض علينا .. اما هذا ... او الانتحار ... لم يعد احد منا شابا ... لنا زوجات واطفال ... تعلمنا الان اشياء كثيرة .. المرونة .. فهم الواقع .. الاستفادة من الخبرة ... اشياء كثيرة لم نكن نعرفها من قبل ..

دق جرس التليفون في الصالة ... قام ..

جاءه صوت خليل يصيح في السماعة وسط ضجيج من الاصوات ... كانه

يتحدث في حجرة مزدحمة بالناس :

«دكتور عزيز ... انت ؟.. مساء الخير ...»

«مساء الخير» .

«الرئيس سيلقي بيانا هاما في الساعة السابعة والنصف» ...

«اعلم هذا» .

«اقترح ان نجتمع في الوزارة لسماعه ... هل توافق ؟»

فكر لحظة ... لمَ لا ؟.. بدلا من الاسئلة الحائرة التي لا تنتهي ...

«موافق ... اين نلتقي ...؟»

«في حجرة النقيب .. الساعة السابعة» .

***

جهاز التليفزيون ينتصب امامهم على مكتب النقيب ... وصفوف من المقاعد جلس عليها الموظفون في نظام ... توتر وقلق في الجو ... واحاديث هامسة.. كبار المسئولين يجلسون كالعادة في الصف الامامي ، السترة ، ورباط العنق ، والسبحة ... كأنهم في حفل للتأبين .. لمح احدهم ... يجلس صامتا ، منتصبا على المقعد ... ساق فوق ساق .. لا يلتفت الى احد .. شعره مصفوف في دقة ، كل شعرة في مكانها ... ذقنه الحليقة تلمع في الضوء المنبعث من النجفة.. وعيناه تحملقان امامه من خلف النظارة المذهبة ... أمين المجلس الاعلى لتخطيط الخدمات الطبية ... كان يجلس في حجرته الكبيرة ... يدرس التقارير ... والارقام ... أرقام عن الوفيات ، والمواليد ... والصحة ... والمرض ... أرقام عن الناس في بلاده ... عن أجسام ، وعقول ، وقلوب ... لها ماض ، وحاضر ، ومستقبل ... ولكنها بالنسبة اليه مجرد أرقام يحركها .. يلعب بها كما يشاء ... على الآلات الحاسبة ... وفي الجداول والرسوم البيانية ... تخفي الحقائق باسم الحقيقة ... باسم العلم ... العلم الدقيق العميق الذي لا يعرفه سوى نفر قليل من الخاصة ... من الخبراء ... ترى ما الذي يخطط له في ذهنه الان ؟

جلس الى جوار نادية في ركن من الحجرة الكبيرة ... هكذا يجلسان دائما في الاجتماعات ... يكرهان الصفوف الامامية ... ويحبان الصفوف الخلفية عند الطرف حيث يمكنهم مشاهدة الآخرين ... والانصراف اثناء الاجتماع بسهولة ، اذا ارادا .

اضيء الجهاز ... موسيقى عسكرية ومساحة رمادية كملايين من حبات الارز المرتعشة ... وترقب ... لا احد يتكلم الان ... ظهر الان على الشاشة جالس على مقعد ... العينان الواسعتان حولهما دوائر من السواد ... الكتفان العريضتان زاد انحناؤهما ... حتى في هذه اللحظة ... بل ربما في هذه اللحظة بالذات ... شيء يشدك اليه ... ايام مضيئة ، وأيام مظلمة ، حالكة الظلام

كهذا اليوم ... طريق طويل ... تاريخ ... الجسد الضخم ينوء الان تحت حمل ثقيل .. تحت الكارثة .. اسد ولكنه مكسور ... الصوت الهادىء يشرح .. يهتز قليلا ... ولكنه خال من الانفعال ... كان شيئا ارهقه واعتصره الى آخر قطرة فلم يعد قادرا على الانفعال ... ما زال يبحث عن التبريرات ... جاءت طائراتهم من الغرب ... السفير السوفييتي نصحنا بالا نكون البادئين بالهجوم.. وكذلك امريكا ... يسمع الكلمات بنوع من الانفصال ... ليس هذا هو المهم ... المقدمات ، اين تقود ؟.. ماذا ستفعل الان ؟.. ماذا سنفعل نحن الان ؟.. فجاة رنت الكلمات في الحجرة ... اتحمل المسؤولية وحدي ... قررت ان اتنحى.. حتى افسح الطريق امام من يستطيع التفاهم ...

اطفئت الشاشة ... لحظة طويلة من الصمت ... الناس جامدون في اماكنهم ... صاعقة سقطت من السماء عليهم ... طعنة افقدتهم القدرة على النطق والحركة ... ثم فجاة ارتفع ضجيج الاصوات ... المقاعد تزاح الى الوراء وتقع على الارض ... هرج .. واضطراب .. كالدوامة يتحركون هنا وهناك ، لا يلوون على شيء ... يصطدمون ببعضهم ... انطلقت الالسن ... راح عنها الشلل ... مستحيل ... يتنحى ؟... في هذا الوقت يتركنا ؟

لمح النقيب يقف في وسط الحجرة ... الضياع في العينين ... الملامح تفككت ... تقدم نحوه ... الان نسي كل شيء.. الغريزة القديمة استيقظت.. عندما تسهل الحياة يتخبط احيانا ... ولكن في الكوارث يعرف ... عقله كالسكين الحاد يقطع .. يحمل جسده معه دون ان يشعر به ... وقف امام النقيب :

«ماذا ستفعلون ؟...»

«لا أعرف ... يتنحى ... مستحيل ...»

الناس حولهما ما زالوا كالسكارى ... يترنحون تحت ضربة اصابتهم ... يصيحون دون ان تعرف للصياح معنى ... كبار الموظفين انسحب اغلبهم في هدوء ... سيستقلون سياراتهم الى بيوتهم ... يغلقون ابوابها على انفسهم بالضبة والمفتاح ... وسينتظرون ليروا اين تسير الامور ...

سمع صوت يصرخ فوق الضجيج ... فالتفت ...

«ارجوكم ... ارجوكم ... الهدوء ... الهدوء ... اسمعوني» .

وقف طلعت فوق المكتب ... طويل ، اسمر ... العينان تتذبذبان في جنون ... ورذاذ من اللعاب يسقط من بين الشفتين ... يبدوَ كالمصاب بهيستريا مفاجئة ... يداه تلوحان في رجاء .

«ارجوكم ... الهدوء ... الهدوء ... ارجوكم ... انتظروا .. هنا .. سأذهب الى الاتحاد الاشتراكي ... لاتلقى التعليمات ... وأعود» .

يا اولاد الكلب ... نظامكم يتفكك ... وما زلتم تنتظرون ... التعليمات.. اية تعليمات ؟.. واين الاتحاد الاشتراكي ؟.. البلد تنهار ... وهم قابعون في

الحجر المغلقة يحسبون ... البلد تنهار .. والرجعية تزحف في الظلام ... والمساومات تجري خلف الابواب ... في الكواليس ... وما زلتم تنتظرون التعليمات .. الا تدركون معنى التنحي ... ليس الرجل هو المهم ... انه رمز .. قائد لما تحقق ... تجسيد للشعب في هذه اللحظة ... مسئول عن الكارثة ، نعم .. مسئول عن آلام لا تحصى منذ سنين ، نعم ... ولكنه قائد لما تحقق ... تجسيد للشعب الكادح في هذه اللحظة .. التعليمات .. ضاع كل شيء باسم التعليمات ... تملكه غضب عارم .. كالموجة .. رفعته فوق المنضدة دون ان يدري ... صاح :

«الى الشارع ... الى الشارع ... عبد الناصر ... عبد الناصر ... الرجعية لن تمر .. ناصر .. ناصر .. الرجعية لن تمر ...»

الوجوه تتطلع اليه مشدوهة ... فخري ، خليل ، زكي ، عصام ، عبد الوهاب ... يراهم ... يرى عيونهم ... ولا يراها .. يرى عيونا .. لا شيء سوى عيون .. تنظر اليه ... تفكر لحظة ... تتردد ... تحسب في اقل من الثانية .. في شعرة من الزمن ...

سمع صوت خليل يصيح عاليا :

«الى الشارع .. الى الشارع .. الرجعية لن تمر .. ناصر .. ناصر ..»

اندفع السيل من الابواب ... هبط فوق السلالم ... ملأ الحوش ... اخذ يصب في الشارع كالنهر ... آلاف الاصوات تنضم الى الآلاف ... ملايين الاصوات ... «ناصر ... ناصر ... الرجعية لن تمر» بحر من البشر في الظلام تصب فيه الانهر من كل شارع ... اصابع نادية حول ذراعه ساخنة ... واصابعه حول ذراع النقيب ... يحب هذا الرجل الليلة ... يحبهم كلهم ... ذاب كل شيء ... يسيرون على موجة عارمة تحملهم الى حيث لا يدرون ... كتل من البشر ... لا ترى الوجوه ... ولا الاجسام .. ولا العيون .. ولا الملامح ... مئات الآلاف تسير في الشوارع .. والميادين ... في الظلام الحالك ... كيف.. لا يعرف .. انها تسير .. جدران متلاصقة متلاحمة .. جدار ، وراء جدار ، وراء جدار ... ملايين الخطوات في خطوة واحدة ... وملايين الاصوات في صوت واحد يهز الليل .. ناصر .. ناصر .. وبين الحين والحين كوردون من الشباب ... وجه يضيئه كشاف ازرق لحظة ... «على مهلكم ... احذروا السيارة ... اتجهوا الى اليمين ... الى ميدان التحرير ... الى القبة ...»

توقف امام محل العصير ... قالت نادية في صوت مبحوح :

«لم اعد قادرة على السير ... اقدامي ... وعطشانة عطشا فظيعا» .

«نشرب عصير من هذا المحل» .

هزت راسها موافقة ... تخشى عادة محلات العصير ...

الى جوارهما رجل قصير ... جلبابه ممزق .. وعينان تطلان بالكاد من بين الجفون الحمر الملتهبة .

«اعطني قليلا من الماء ... يا عم» .
«امش يا رجل ... ليس عندنا ماء ...»
قال عزيز :
«تشرب عصير» مد يده بالكوب .
«متشكر يا افندي» اخذها .
«بالهناء والشفاء ... من اين جئت ؟»
«من البدرشين» .
«كيف ؟»
«جزء على سيارة نقل ... وجزء على الاقدام» .
«كل هذه المسافة» ؟
«نعم» .
«لماذا ؟»
لحظة صمت .
«ما اخذناه في عهد عبد الناصر ... سيضيع اذا ذهب ... لذلك جئت» .

عاد الى المنزل في الساعة الرابعة صباحا ... الجموع ما زالت تطوف الشوارع في الظلام ... دلفا من الباب ... الهتاف يتردد عملاقا في الليل ...
«ناصر .. ناصر .. لن نعود .. لن نعود .. لن نعود قبل ان تعود ...»

سارا على اطراف اصابعهما ... النور الخافت يضيء حجرة الاطفال ... وجهان نائمان في هدوء ... يا لنقاء الطفل النائم !!.. يحس بقلبه يتضخم ...

النافذة في حجرة المكتب ما زالت مفتوحة ... جلس على الكنبة ... اطلت نادية من الباب .
«الا تريد ان تنام ؟»
«لا ... ليس الان» .
«الساعة قاربت على الرابعة والنصف» .
«اعرف ... نامي انت ... ان اردت» .
اقتربت .
«فيمَ تفكر ؟»
التفت ناحيتها وابتسم :
«اجلسي الى جواري» .
جلست ... مد ذراعه حول كتفيها ... واحتضنها .
«في ما حدث اليوم» .
صمتت تنتظر ليكمل كلامه . سال :
«ارايت الشعب ؟»
«نعم» .
«من المسئول عن الهزيمة اذن ؟»
عيناها تبحثان في عينيه عما يريد ...

«من ؟»

«كلنا» .

«لا ... لا اوافقك ... ما هي مسئوليتي ... ماذا كنت املك ... كنت اقول ما اعتقده ... ودفعت الثمن ...»

«لا اقصدك ... اقصد جيلنا ... التيار الذي كنا نمثله ...»

«كيف ؟»

«هذه قصة طويلة ... تعود الى سنين مضت» .

«الا تنسى السنين التي مضت» ؟

«لا ... ينبغي الا ننساها ... انها سبب الهزيمة» .

«وما ستجنيه من العيش في الهزيمة» ؟

«اريد ان اعرف موقعي ... اين اقف ... والى اين سأسير ...»

صمت لحظة ... «الآن لم يعد مفر من ذلك» .

***

مات ابوه منذ شهر ... جاءته البرقية وهو يجلس في حجرته الواسعة ... مقعد من الجلد يرتفع وينخفض اذا ادرته عدة دورات مع عقارب الساعة او ضدها ... ومكتب عريض يمتد جانب منه ، على يمينه كالجناح يحمل التليفون، والدليل ، ومنفضة فضية ، ورفين صغيرين للبريد الوارد والصادر ... ويحتوي على صفوف من الادراج مغلقة على اوراقه الهامة ... ينفتح بنعومة عندما يضع فيها المفتاح ويجذبها اليه ... ومقعدان وكنبة وساداتها الاسفنجية مغطاة بقماش لونه برتقالي ... ودولاب مدفون في الجدار وضعت فيه صفوف الكتب ... وخريطة لافريقيا معلقة خلف ظهره ...

فتح الظرف باصبعه واخرج الورقة الصغيرة المطوية في داخله ... ارقام ورموز ... وعدة كلمات مطبوعة بحروف بنفسجية باهتة ... «تعازينا القلبية .. توفي الوالد الى رحمة الله صباح اليوم ... هاشم» .

قام من جلسته وسار بضع خطوات ... اقدامه صامتة فوق البساط السميك... والحجرة الصامتة، لا يقطع صمتها سوى صوت الآلة الكاتبةالكهربائية يخترق الباب الزجاجي ... دقات خفيفة منتظمة كالمنبه ... كدقات الزمن ... تسير دون ان تشعر بها ... يوما بعد يوم .. وشهرا بعد شهر .. وسنة بعد سنة ... الى ان يحدث شيء ... هكذا فجاة ... في لحظة .. فتدرك ان الزمن يمر .. ان السنين تمر ... وانه لم يبق الا القليل ...

اطل من النافذة ... زهور الربيع تتفتح في الحديقة ... بقع من اللون تهتز فوق الفروع .. تهتز في الرياح الهابطة من جبال نيروبي الخضر ... جبال مغطاة بنسيج اخضر ... محلوقة ... مستانسة ... كأن موسى ضخمة مرت فوقها

لتزيل غاباتها المتمردة ... يد الانسان تخضع الطبيعة لاغراضها ... تـــزرع وتــثمر ... وتصدر العرق ... عرق الاجساد السود في لباسها الابيـض تتحرك ببطء فوق سفوح الجبل ... تمر عبر شجيرات الشاي المقصوصة ... وتنزع الاوراق الصغيرة اليانعة باصابع نحيلة لا تكف عن الحركة ...

في الحديقة شجيرة صغيرة زهورها حمر ... انه يحب ان يتطلع اليها عبر النافذة .. العصافير تحط عليها كل يوم في الصباح عندما يصعد قرص الشمس الملتهب في السماء من خلف الجبال ... وعندما يهبط متواريا خلفها في المساء.. يقف في نفس المكان ليشاهد دورة اليوم تنتهي ، وكأن الزمن لا يتحرك ... دورة تتكرر مرة واثنتين وثلاثا وعشرا ومائة ... تبدأ وتنتهي عند نفس النقطة .

انها تذكره بحديقة الدوار في قطور ... كانت لديهم شجيرة مثلها تماما ... زهورها واوراقها وعطرها يحملها اليه النسيم كلما اتى الربيع ... انه يتذكر طفولته باستمرار الان ... وبما لانه اخذ يحس بالعمر يمر ... فتعود افكاره الى الايام الاولى ... او ربما لانه يحيا لاول مرة وسط الطبيعة ، بين اناس يشرق الابتسام في وجوههم السمر بسهولة ... فيضيء ... حياة هادئة تعطي فرصة للتأمل .. فنحن نتأمل العالم الواسع حولنا ... نتتبع احداثه ... ونتنقل بين قاراته احيانا ... ونتحرك في رحلة خارجية لا تتوقف ... نبحث عن قــوت اليوم .. ونتناسل .. ونكره ونحب .. ونناقش ونصمت ... ولكن كم منـــا يذهب في رحلة داخلية الى النفس ... ليكشف هذا العالم الغريب ... يجتاز أغواره وكهوفه العميقة ... ويغوص في الماضي البعيد الذي اتى منه ...؟

اخرج البرقية من جيبه حيث كان قد طواها وقراها مرة ثانية ... «تعازينا القلبية ... توفي الوالد الى رحمة الله صباح اليوم ... هاشم» .

مر شهر منذ ان مات ابوه ... لم يحزن اذ ذاك ... بل لم يشعر بـــأي شيء ... كأن حدثا عارضا مر به وانتهى ... صعدت الى ذهنه صورة طالمـا رآها ... صوان ... ومقاعد من القش ... وناس يجلسون ويتحدثون فـــي همس ... ويستمعون الى آيات القرآن من رجل معمم يرفع يده الى وجهــه ويصيح بعروق نافرة في العنق ... ثم ينصرفون ... كل منهم الى شئونه ... كان شيئا لم يحدث ...

عاد الى المنزل ... يقود سيارته البيضاء ويستمع الى دقات الموسيقى تنبعث خافتة من الراديو ... دقات الطبول ومزمار ينوح في الجبل الواسع ... كانت نادية قد وصلت قبله ... احس بالراحة التي يحس بها دائما عندما يدخل من الباب ... فيراها جالسة على السرير ... ظهرها يستند الى وسادة وضعتهـا خلفها ... وقدماها مرفوعتان تحت قميص النوم كأنها تخفيهما في حياء ... وفي يدها كتاب ... انها ترتدي نظارة الان ... فالزمن يمر ... والياف العدسة لم تعد مطاطة كما كانت ... نظارة اطارها اخضر يلمع تحت الشعر الذي شاب .

رفعت راسها وتمطت في كــل ... راى الابتسامة التي يراها على وجهها دائما عندما يعود ... وسمع السؤال الذي يسمعه كلما تلاقيا في نهاية اليوم ...

«كيف حالك ... كل شيء على ما يرام» ...؟

جلس الى جوارها على حافة السرير كما يفعل عندما يريد ان يتحدث معها ليتخلص من عناء اليوم ... قال «ابي مات» .

رفعت النظارة بيدها فاطلت العينان السوداوان بحنانها القوي .

سالت :

«متى ؟»

قال :

«بالامس» .

«كيف علمت ؟»

«جاءتني برقية من اخي» .

«احزنت ؟»

«لا» .

ظلا صامتين كل منهما مستغرق في افكاره .

قالت «انه استراح ... واراح ... فالمرض .. فظيع ...» سرحت كانها تذكرت شيئا ... انا لم احزن عندما مات ابي ... «ولكنني اشعر بالحزن الان .. بعد ان مرت سنين طويلة» .

«لماذا» ؟

«ربما لانه مات قبل ان استطيع ان اعطي له شيئا ... كان الى جواري ايام المشاكل .. عاش لبناته واولاده السبعة ... لم ير بعينيه ما حققوه من نجاح .. لم ير الا الصراع اليومي من اجل الطعام ، ومصاريف المدارس ، والحفاظ علينا».

مر شهر منذ ان مات ... والآن فجاة احس بالحزن .. حزن عميق هادىء . كانه ادرك فجاة انه لن يعود ... انه لن يراه ... ولكن كيف ؟ .. ما زال يحس انه موجود ... انه لم يحدث شيء ... انه سيعود الى القاهرة ويصعد السلم ويدق الجرس .. ليرى العينين الواهنتين تطلان من الفجوة الصغيرة التي فتحها في حرص ... ثم تضيئان بنور ما زال يختفي بعيدا في الاعماق ويسمع كلماته المعتادة «اهلا يا بنيّ» وكانه ما زال صبيا صغيرا عائدا من المدرسة .

قبل ان يغادر القاهرة بعد انتهاء اجازته السنوية اصطحباه ، هو ونادية الى طبيب الاشعة ... عمارة في شارع شريف ... بجوار المدخل محل ليبيع الحلويات الشرقية ... عزيز يحب الحلويات ... بقية من ايام الطفولة ... يحبها ويقاومها ، فما زال حريصا على قوامه ... عيناه تمران على صفوف الحلوى ، تلال صغيرة من البقلاوة المرصوصة بدقة ، واطباق مستديرة من الجلاش ، وعيش السراي ، والبسبوسة ، يسيل منها شراب كالعسل ... يقول لنفسه ... «ساشتري منها ليوسف» ... هذا هو عذره ... عندما يدخل الى الشقة ، سينقض عليه ويساله في لهفة «جبت ايه معاك يا بابا» ؟.. سيجلسون حول المائدة ... نادية وسناء ، ويوسف ، وهو ... يتحدثون وياكلون .

يوسف يثرثر بلا انقطاع ... وينثر قطعا من الحلوى حولـــه على المائدة ، والمقعد والارض ... ويحتج كلما انصرفوا عنه ... «مش بتردوا عليّ ليه» ...؟ سناء كبرت ... فتاة بيضاء فارعة تاكل في صمت وتنظر اليه بهدوء فيه تساؤل كانها تحاول ان تستشف ما طرأ عليه من تغير ... تبدي عناية خاصة به ، وتعزم عليه اذا فرغ طبقه ... بينما تتامل نادية الحلوى من تحت رموشها الطويلة ... ترنو اليه بين الاقدام والاعراض ... تاخذ قطعة وتاكل في تلذذ ... تقول «كفى» وتتوقف دقيقة او اثنتين ، وقد بدت عليها علامات الصراع الخفي ... عيناهـــا تخطفان نظرة الى الاطباق بين الحين والحين ... تمتد يدها من جديد .

صعدوا السلم الى الدور الاول ... عيادة لا طعم لها ولا روح ... يشعر دائما بالانقباض عندما يدخل عيادات الاطباء ... المقاعد المعهودة بألوانها الباهتة.. مائدة بيضاوية القيت عليها بعض المجلات القديمة لزوم الثقافة ... ستارة ممزقة تحول بياضها الى لون التراب ... سجادة تآكلت من حركة الاقدام القلقة عليها.. وممرض ... اسود عجوز ... هيكل ضخم منحن يرتدي مريلة ... يذكـــره بحامل الجثث في المشرحة ... وجه مطبوع بالغضب الصامت ... العينـــــان تتطلعان اليهم بلا احساس من تحت الحاجبين الأشيبين ... قال «نعم» كانـــه يبحث عن سبب للعراك ...

«عندنا ميعاد مع الدكتور ... قل له فلان ...»

اختفى خلف الستارة ، ولم يعد . جلس ابوه صامتا في المقعد يغلق جفونه في النوم ثم يفتحها كأنه يركب قطارا ويخشى ان تفوقه المحطة ، فاذا ما اطمأن عاد الى النوم من جديد ... في الحجرة شخصان آخران غيرهما ... امراة بدينة تحمل حقيبة يد كبيرة وتضغطها على بطنها كأن بها اشياء ثمينة ... لحمها الابيض يبرز من فتحات الثوب الضيق القصير الذي ترتديه ، تشد عليه من كل جانب في محاولة يائسة لتغطية ما لا سبيل الى تغطيته ... فتحت حقيبة اليد واخرجت مرآة صغيرة... تطلعتالى الطلاء الاحمر علىوجهها بامعان.. والىالرموش الطويلة المكحلة ... اعادت المرآة الى مكانها ، واغلقت حقيبة اليد بصوت معدني اخترق صمت الحجرة ... فتح ابوه عينيه وتطلع الى المرآة ببريق فيه بعض الاهتمام ... كأن الشعلة خبؤت ولكنها لم تمت ... ثم اغلق عينيه ونام من جديد ...

في الجانب الآخر رجل اسمر يرتدي جلبابا مخططا ، وحذاء مفتوحا ... تحس انه جاء من الريف ... على وجهه شحوب يدل على المرض ، ونبت مـن الشعر نما منذ ايام ... اخرج محفظة جلدية ضخمة من جيب الجلباب الداخلي ، وفحص أوراقها ، ثم اعادها الى مكانها بحركة يد تدفعها تحت الابط .

اشعل عزيز سيجارة ... القى الرجل ناحيته بنظرة جامدة ... الشهـــر شهر رمضان ... والحركة لم تعجبه طبعا ... كل منا يحمل شرطيا مدفونا في داخله ... بدافع عن الامن ... عن اشياء كثيرة تبدو له بديهية ... اخطر مـــا فينا ... هذا التسليم بما يبدو بديهيا ... واحســن ما فينا القدرة علـــى التساؤل ... القدرة على قتل الشرطي الذي يختبىء في الاعماق ... يرى عيني

نادية تتساءلان من فوق الجريدة ... فيمَ تفكر يا ترى ؟ أفكر في اشياء تعلمتها منك ...

دخل مع ابيه الى حجرة الاشعة ... الطبيب رجل بشرته وردية ... نحيف، يرتدي معطفا ابيض نحل عند الياقة ... ونظارة طبية مذهبة ... صوته خافت ناعم ... واصابعه ناعمة تعودت ملمس القطن ، وعد النقود ... عيناه تبتسمان في ود ... ترحيب مدرب ، بلا احساس ... هو والمرض ... وجهان لشيء واحد «اخلع ملابسك ونم على المنضدة» ... ساعده عزيز على خلع ملابسه ... الاصابع المرتعشة تتعلق بكتفه ، والجسد الهزيل يترنح ... كان قويا في يوم من الايام ... وضع ذراعه حوله ليسنده ... كل حركة تتم في بطء مضن ... اصبر ... السن احكامه ... ترى هل سنكون مثله في يوم من الايام ؟.

اخيرا نام فوق المنضدة ... وقف الى جواره يتامله ... الجلد متهدل حول العظام البارزة التي تضغط على الخشب الصلد فيئن من الالم ... قدماه متورمتان تشوبهما زرقة قاتمة في لون الكبد ... راسه خالية الا من بضع شعيرات بيض يمر عليها كلما افاق بكف يده ... ما زال يحرص على مظهره رغم كل الظروف... ينظر بشيء من القلق الى الاسطوانة المخروطية السوداء تهبط من اعلى جهاز الاشعة نحو بطنه ... كانه يخشى الا تتوقف .

قال عزيز :

«لا تخشَ ، انها ستتوقف» .

ابتسم ابتسامة واهنة فيها بقية من روحه القديمة الشقية وتنهد ... الان اصبح عاجزا كالطفل ... عندما يرى يوسف يشرق الوجه العجوز ... يرى حياته الماضية فيه ... اشياء تموت واخرى تولد ... احس لاول مرة منذ سنين طويلة بانه يريد ان يحضنه ، ان يحميه ... ضيع حياته فيما لا ينفع ... مزيج غريب من الطيبة والانانية ... يقسو على اقرب الناس اليه ... كلما اعطوا له زادت قسوته ... هكذا كان مع امه ... كرهه لهذه القسوة ... ولكن عندما ندرك الحقيقة يتضح لنا ان الناس ضحايا ... ضحايا ظروف لا يفلت منها الا الاقوياء ... تمضي حياتهم دون ان يذوقوا طعم السعادة الحقيقية ... وتنتهي بالسؤال : ما الذي جنيته من كل هذا ؟»

امسك عزيز بالمبسم الاسود الطويل ودسه برفق بين الفخذين المرتعشتين..

«لا تخف ... انا معك» .

«لن استطيع ان احبس كل هذا السائل في بطني ... انه يسقط من الشرج غصبا عني» .

«لا ... ارح عضلات بطنك ... ولا تتوتر ... سترى ان كل شيء سهل» .

اصابعهما متشابكة ... يتحدث معه بصوت هادىء ويحكي له اشياء حتى ينسى ... دخل الطبيب ... الآلة تعمل بازيز منتظم ... واحد ، اثنان ... انقلب على الجانب الايمن ... لف عزيز ذراعه حول عنقه ورفعه حتى لا تحتك

العظام العارية من كل لحم بسطح المنضدة ... واحد ، اثنان ... تك ... التكنولوجيا بدون قلب ...

صحبه الى دورة المياه عدة مرات ... وقف امامه وهو يفرغ امعاءه من السائل الابيض الثقيل ... العينان الباهتتان تضيئان بالتدريج مع سقوط السائل في المرحاض ... لون الوجه يتحول من رماد الى شيء فيه نبض ... امسك بقطعة من القطن المبللة واخذ يزيل آثار الباريوم الابيض من على جسده العاري ، ثم ساعده على ارتداء ملابسه .

جلسوا ، الثلاثة ، على مقهى بجوار العيادة ... قال ابوه :

«سادعوكما على زجاجة من البيرة» ... نادى على فتاة ترتدي الميني جيب .. على وجهها الاسمر خطوط من الارهاق تسكب عرقا ...

«زجاجة بيرة صاقعة ... اياك الا تكون صاقعة ... حاكم انا اعرف محلات الايام دي .. وفنجان قهوة مضبوط ... وساخن ... اذا لم يكن ساخنا لن اشربه ... »

ابتسم عزيز ...

«طول عمرك مشاغب ... الن تكف ابدا» .

«يا شيخ ... اصلك انت مش عارف الناس ... واخد المسائل سهلة» .

شربوا البيرة وتحدثوا عن اشياء كثيرة ... وضحكوا ... وضحك معهم ... كان مسرورا .. انتهى من عذاب الحقنة الشرجية والاشعة ، واحس انه محاط بالعناية ...

قال له عزيز :

«قبل ان نفترق أريد ان اقول لك شيئا ... ساسافر بعد يومين ... ولن يبقى احد معك ... لا تقس على امي ... لا يعطف احد عليك سواها ... ومع ذلك تقسو عليها هي بالذات ... رأيتها تبكي بالامس» .

تردد لحظة كانه يفكر في الرد ... ثم قال :

«حاضر يا بني ... حاضر ...»

«والآن لننصرف» .

اخرج رزمة نقود صغيرة من جيبه بحرص ، كانه يخشى ان يرى احد ما معه ... اخذ يقلب فيها طويلا ، والفتاة تقف امامه وتنتظر ... اخيرا حزم أمره ودفع لها بورقتين ، وبضعة قروش ، عدها ثلاث مرات قبل ان يسلمها اياها .

عند مدخل العمارة هبط ببطء من السيارة ... قبّله وقال :

«مع السلامة يا بني ...»

راى كتفيه المنحنيتين تختفيان في البهو المظلم كان شيئا يبتلعه الى الابد ... احس انه يراه لآخر مرة ... عاد الى السيارة وأدار المحرك ... نظرت اليه نادية ... وصمتت .

***

منذ شهر جاءته البرقية بوفاة ابيه ... لم يحزن اذ ذاك ... ولكنه أحس بحزن هادىء عميق يحتويه فجاة ... عندما عاد الى منزله في ذلك اليوم ... نادية والاولاد عادوا الى القاهرة ... الان اصبح وحـــــده من جديد ... ادار الراديو ، واخذ يقرأ الصحف الاجنبية التي تراكمت فوق المكتبة انتظارا لنهاية الاسـبوع ، ولكن عقله هذه المرة لم ينجذب الى العناوين ... «جيوش التحرير تحتل ثلثي فيتنام الجنوبية ... هزائم متكـــررة للسياسة الامريكيــــة ... ايطاليا ... البرتغال ... اليونان ... تركيا» .

نحى الصحف جانبا وجلس على الشرفة .. الليل حار ، وهلال رفيع يرحل عبر السماء ... ندرك الاشياء بعد فوات الاوان ... هذا الرجل بدد حياتـــه وانتهى وحيدا ... حقا كان صعب المراس ، دائم الشكوى ... مستغرقا فـي عالمه المحدود ... ومع ذلك لم يتخل عنه عندما احتاج اليه ... ولم يلمه حتى ولو مرة واحدة ... تبعه من محكمة الى محكمة ومن سجن الى سجن طـوال سبعة عشر عاما ... تحمل اهانات الشرطة ، وقسوة الضباط والوقوف علـى الابواب ... والانتظار في الاحواش والممرات ... كان معه دائما بنقوده ، وعنايته، وعطفه الابوي ... يودعه في رحلاته الطويلة ... وينتظره على المحطات عندمـا يعود ... كان يقسو على ابيه في السنين الاخيرة ... لماذا ؟... هل يعـــرف السبب ... نعم ... انه يعرفه الان ... خرج الى العالم الواسع من خلـــف الجدران ... وترك نفسه تنجذب الى حياة ليست حياته ... والى طريق ليس طريقه ... عانى من صراع مستتر في الاعماق جعله يغضب لاتفه الاسباب ، كمن يخفي شيئا بالصياح .

هناك اشياء نندم عليها طوال العمر ... اشياء صغيرة احيانا ، ولكنها تبقى في الذاكرة طوال العمر لان فرصة تداركها راحت ، وانتهت ، الى غير رجعة ... تفرض نفسها علينا المرة بعد المرة ... في لحظة تامـــل ... او اثناء حديث عابر ... او حتى في الاحلام ... فتصيبنا رعدة خفيفة... شعور عميق بالاثم، والعجز عن اصلاحه ...

وهو لا ينسى تلك المرات التي قسا فيها على الآخرين ، فلم يردوا عليه لانهم لا يستطيعون الرد ... انه لا ينسى ابدا ذلك اليوم الذي اعتدى فيه بالضرب على سناء .. فلمح نظرة خوف واستجداء في عينيها العسليتين الوديعتين ... ولا ينسى ابدا ذلك اليوم الذي تشاجر فيه مع ابيـــه ... وراى عينيه الواهنتين ترتفعان اليه في استعطاف وسمعه ينطق في هدوء : «يا بني ... متى تعود كما كنت اعرفك ؟» .

★★★

جلسا في الحجرة الصغيرة على كنبة من الجلد ... آخر لقاء قبل ان تغلق ابواب الليمان عليه ... اشغال شاقة لمدة عشرة اعوام ... قد لا يعود منها هذه

المرة ... واذا عاد ترى ماذا سيبقى منه ؟ ومن سيبقى على قيد الحياة لينتظره اذا عاد ؟ وصل الرجل الى سن الستين تقريبا ... عندما صدر الحكم على عزيز استقال من عمله ... لم يعد يقوى على الاستمرار ... تربى في احضان الراحة ... الابن المفضل لاسرة من ثمانية ... تعلم في الخارج ... وعاد مع زوجته وطفل رضيع ... تنقل في وظائف الحكومة ، ووصل الى اعلى المراتب.. النقود تجري بين اصابعه كالمياه ... يصرف منها دون حساب ... اضاف الى اسرته بنتا وولدا آخر ... عاش حياته بعيدا عنهم ، يوفر لهم احتياجاتهم ، ويترك شئون الاسرة للأم تسهر على راحتهم وتدبر ... امضت ايامها بين جدران المنزل ... تنعي حظها مثل آلاف الامهات ... انها لم تحضر اليوم ... تعرف انها ستبكي ... ولا تريد ان تبكي امامه ... انها مختلفة عن ابيه ... عطوفة ، مضحية ولكنها قوية ... في الصغر كانت ملامحه تشبه ابيه ... الان ظهرت ملامح الام وتاكدت ... شيء من الصرامة والجد ... كأنها كانت مختبئة في داخله تنتظر اوانها للظهور ... كالفراشة في الشرنقة ، تكتمل في الخفاء ... تحطم غلافها الخارجي بعناء ... تخرج ، وتفتح جناحيها ، وتطير ... كل شيء في اوانه .

في الخارج ضجيج ... رجال في لباسهم الازرق ، يحملون الجرادل ، ويرشون الحوش ، ويكنسون ... ويستريحون من لفح الشمس في ظل الابواب ... ويطلقون ابصارهم في حرص نحو مكاتب الضباط ، خوفا من ان يفاجئهم احدهم .. وصوت حارس يرتفع بالتهديد.. «انت يا مذنب ... انزاح من هنا بسرعة ، والا تعرف شغلك ...» ورنين السلاح ينتقل من الارض الى الكتف ... وصليل القيود تهتز مع الخطوات .

عينا ابيه تتفاديان النظر الى اسفل ... الى حيث تبرز القدمان من تحت السروال ... يصارع حتى لا ينظر اليهما ... ولكنه لا يستطيع ... كالشيء المشوه تعرض عنه ، وتنجذب اليه ... من اجله يريد ان يبدو عاديا ، كانه لم يلاحظ شيئا ... فنظرة منه قد تنبه الابن الى حاله ... يحاول ان يتماسك رغم الالم الذي يعتصره ... لذلك يتحدث حديثا متصلا ... ولكن بين الحين والحين ، تضيع الكلمات ، وتفلت منه ... يبحث عنها فلا يجدها ... يتعثر ، وتطرف عيناه الى اسفل بسرعة ... بتلك النظرة الجانبية الخاطفة التي يعرفها عزيز جيدا ، والتي طالما رآها على وجه ابيه عندما يسعى الى اخفاء شيء عنهم.. ولكن ما اجمل هذا الكذب الذي يرتكبه الآن ... ما اجمل هذه المحاولة التي يبذلها من اجل ان يبدو عاديا ، كانه لم يلاحظ شيئا ... انه يصارع في صمت.. يصارع الدموع التي تصعد خلف مقلتيه ... يصارع الياس الذي يزحف عليه ، ويحتل كيانه جزءا بعد جزء ... وموقعا بعد موقع ... بعد قليل سينهار آخر موقع ... وسيرى عزيز ذلك المنظر الذي لا يريد ان يراه ... سيراه وهو يبكي امامه لاول مرة ...

ينبغي ألا يتركه يصارع وحده ... ولكن ماذا يفعل ؟

تعود منذ صغره ان يدفن الاشياء في صدره ... هذه المرة ساعده الحب... ليس افضل من الاقتحام .

مد قدميه الحافيتين تحيط بهما سلاسل من حديد وقال :

«انت تفكر في هذه القيود ، اليس كذلك» ؟

فوجيء الرجل بالسؤال ... قطب جبينه ، ودارت عيناه في حيرة ... تردد كأنه يبحث عن شيء يقوله ... لجا الى علبة السجائر واخرج منها لفافة اشعلها.. التفت الى الضابط الجالس وراء مكتبه وساله :

«تسمح لي بان اعطي له سيجارة» ؟

تطلع اليهما الوجه الحليق الناعم بنظرة باردة كأنه يستنكف ان يدور حديث بين طبقة الضباط وفئة «المذنبين» ... ادرك عزيز انه يواجه موقفا جديدا لم يألفه من قبل ، وانه سيلوذ بالفرار خلف سترته الرسمية . قال :

«شكرا ... لا اريد ان ادخن ...»

ثم التفت ثانية الى ابيه :

«هه ... لم ترد على سؤالي» .

لمح اصابعه الطويلة مغطاة بنبت من الشعر الاسود ... وصفار النيكوتين ... اصابعهما تتشابه ... مد يده الى فمه ، واخذ يشد على شفته السفلى ... حركته المعتادة عندما يفكر ...

«لم اتعود على رؤيتك هكذا ... في القيود» .

«وانا لم اتعود عليها ...»

«اتؤلمك ؟»

«لا ... احس فقط بثقلها ... يقولون وزنها ثلاثة كيلوجرامات ولكنها تبدو اثقل من هذا ... انظر» ... رفع قميصه الازرق ... «انها مربوطة حول وسطي بهذا الحزام ...»

«لم اكن اتصور انهم يفعلون هذا بالناس» .

«لا نتصور اشياء كثيرة ... الا عندما تقع ... عندئذ ندرك ... لا تقلق ... انها مسألة بسيطة ... الحياة كلها قيود ... ابشع من هذا ... منذ الصغر نخضع لها ... لتبقى الاشياء كما هي ... صراع لا ينتهي منذ ان نولد حتى نموت ... »

«ولكنها تؤلمك قطعا» ؟

«لا ابدا والله ... سأتعود عليها مع الزمن ... ويوم ترفع سأحس كأن شيئا ينقصني ... نتعود على القيود الى درجة اننا لا نلاحظها بعد حين ... هكذا نتأنس ونصبح مطيعين ...» .

صمت الرجل كأنه وجد صعوبة في تتبع الحديث ...

ابتسم عزيز :

«انت مشغول بما لا ينبغي ان تنشغل به ... الاشياء تبدو صعبة على من لم

يجربها ... »

«لا اعرف ... القلق ما زال يطل من العينين ... هل حالتك على ما يرام حقا » ؟

ترددت ضحكات عزيز عالية في الحجرة ... التفت اليهما الضابط بحركة من الراس تنم عن عدم رضاه ... ولكن الابتسامة عادت الى وجه ابيه ... فليقلق الآخرون ...

«على ما يرام ؟.. لا .. في حالة لا باس بها ، نعم ... ساخرج قريبا سترى ... وتذكر ما قلته لك ... الان لنتحدث فيما هو اهم ... سارسل اليك باحد الحراس ... لا تنزعج ... اسمعني ... اعطه خمسة جنيهات كل شهر ... ساستخدمها في شراء خضروات ، ولحوم من المزرعة ... حتى لا تجوع ... عندما نلتقي في المرة القادمة ستجدني في اكمل صحة ... وارسل معه كتبا ... ستجد كشفا بها مع الرسالة ... سلم على امي ... وطمئنها... قل لها انني أريد ان اراها ... فلتحضر في الزيارة القادمة ... حافظ على نفسك .. كل شيء سينصلح .. الوقت انتهى الان .. انه ينظر الى ساعته .. مع السلامة ...»

خرج ابوه من الباب ... كتفاه منحنيتان ... وخطواته ثقيلة ... هناك شبه بينهما من الخلف ... غريبة هذه الوراثة ... نادى عليه «مع السلامة» استدار.. لوّح له بيده ... الآن ابتسامته تعلو شفتيه دون تردد ... تلفت نحو الضابط.. ملامحه لم تعد جامدة كما كانت ...

قال عزيز :

«متشكر» .

ثم دلف من الباب ... وجد الحارس ينتظره في الخارج ...

«هيا بنا الى العنبر ...»

سار بخطوات بطيئة ... يتابع باذنيه صليل القيود ...

★★★

قبل ان يغادر القاهرة ، قابل الدكتور رشدي طبيب ابيه المعالج .. رجل عاش لمهنته وعمله ... ولصفوف الطلبة يتبعونه في العنابر من سرير الى سرير ... يشرح لهم ويرد على اسئلتهم بصبر لا ينفد ... احب في شبابه ، ولكنه لم يتزوج ... بين الحين والحين يفكر في امراة يحتمي الى جانبها ... ولكنه سرعان ما ينسى في زحمة المرض والمواعيد والمجلات الطبية المتراكمة فوق مكتبه ... حياته جافة لا يخفف من وطاتها سوى اسطوانات الموسيقى التي يستمع اليها وحده بعد ان يعود الى منزله في ساعة متأخرة من الليل ... ومع ذلك ما زال قادرا على الضحك بكل كيانه مثل الطفل ...

العينان الهادئتان تحملقان فيه من خلف العدستين المربعتين ...
«لا استطيع ان اجزم ، ولكنني اعتقد انه مصاب بتليف في الكبد» .
يتخيله الآن وهو يموت في شقته الصغيرة حيث انتقل منذ عشر سنوات مع امراة اخرى غير امه ... البشرة الرمادية التي تنبيء بالنهاية ... والعينان المغلقتان ... وفيضان الدم الاحمر ... ينفجر من اوردة الكبد ... ويسيل من ركن الفم على الوسادة البيضاء ... يسيل ، ويتوقف ، ليسيل من جديد ... وزجاجة معلقة فوق راسه ... وابرة طويلة لامعة غرسوها في ذراعه ، وفي كل جزء من اجزاء جسمه الذي لم يبق فيه مكان للابر ، بحثا عن مكان ما زال يصلح للغرس ...
كان يراه في الايام الاخيرة نائما على مقعده بعد تناول طعام الغداء ... العينان المغلقتان ... والبشرة في لون التراب ... والصدغان هابطتان فوق عظام الوجه كالبالون الذي افرغ من هوائه ... فيشعر فجاة بانزعاج خفي ويبحث بعينيه عن حركة الصدر ، تكاد لا ترى ، وهي تعلو وتهبط في عناء بطيء ... كانه قد فارق الحياة ...
والآن يقولون انه مات بالفعل ... عيناه مغلقتان الى الابد ... وجسمه توارى تحت التراب ... حيث توارت ملايين الاجسام من قبل ... وانتهى كل شيء ... الا ذكرى قليلة ستضعف وتتلاشى مع الايام ... حياة بلا معنى ... لم يذق فيها سوى لحظات من السعادة ... وساعات طويلة من العذاب ...

***

كل منا يحتاج الى وقفة في الحياة ... يتأمل فيها ما مضى ... يبحث عن نفسه قبل ان تضيع ... يقرر الى اين سيسير ...
عندما زار اصدقاءه ليودعهم قرأ العتاب في بعض العيون ... عتاب لا يبوح عن نفسه ... ولكنه يظهر في كلمات اطلقوها دون ان يعوا مغزى الكلمات ... فالسنين الماضية لم تكن سهلة ... كانت سني الهزيمة ... المطاردة في كل مكان ... الاحلام التي تبخرت ... لتحل محلها المرارة في الصدور ...
كان هناك رباط بينهم ... قرروا ان يحلوه ... ليذهب كل منهم الى سبيله ... زال الاحساس الذي بنوه ... اصبحت الاهداف بلا سلاح يحققها.. فوقف كل منهم بمفرده يواجه العاصفة ...
شارك معهم في اتخاذ القرار ... كان مقتنعا مثل الكثيرين ... مرت سنوات يجترون فيها ذكريات الكفاح ... ويفكرون ... كل منهم بمفرده ...
لكن العجلة لا تكف عن الدوران ... والحياة تعزز الجديد ... شباب وشابات ... ورجال ونساء تخطوا سن الشباب ... يبحثون ... ويتجمعون بالتدريج ...
لكنهم جاءوا اليه في ليلة ممطرة من ليالي الشتاء ... كان جالسا في

المكتب ... المدفأة تلمع بوهجها الاحمر ... واكواب الشاي يصعد منها البخار.. ويوسف يجلس الى جواره يقلب في صفحات المجلات ... وسناء تثرثر مع صديقتها في الحجرة المجاورة ، وتدير تسجيلا لعبد الوهاب ... الدفء ، والهدوء ، وشيء من السلام في القلب ...

دق جرس الباب ... لم يكن ينتظر احدا ... نادية معها المفتاح ... ما زال يحس بقلق دفين عندما يدق جرس الباب على غير انتظار ... لن يشعر بالاطمئنان ابدا ... الآخرون ينعمون بالاطمئنان احيانا ... اما هو ، وامثاله ، فهناك قلق اصبح كالغريزة ... تساؤل عندما تحملق فيهم عيون غريبة ... او يقف شبح رجل على الرصيف المقابل للمنزل ... او عندما يدق جرس الباب على غير انتظار ...

توجه الى الصالة ... وجدهما يقفان على العتبة ، ويسألان الخادمة ... «الدكتور عمران موجود» ؟ قال :

«انا هنا تفضلا ...»

يعرف احدهما : شفتان غليظتان ، وشارب مقصوص كفرشاة الاسنان ... لم يفقد وقاره القديم ... حركاته مدروسة متانية ... والشيب يسري في الشعر القصير عند الاذنين ... اما الآخر فلا يعرفه ...

قادهما الى حجرة المكتب ، جلس امامهما على الكنبة ... أفرغ لهما كوبين من الشاي .

«كم ملعقة من السكر يا استاذ» ؟

«اثنتان ، لو سمحت» .

«وانت يا حنفي» ؟

«واحدة فقط» نطق «الطاء» بملء فمه ... رصين في اللغة العربية ... يذكره بالمحامين ، والمدرسين .

ساله حنفي مشيرا الى يوسف الذي اخذ يرمقهما في تساؤل صامت ...

«ابنك» .

«نعم» .

«عمره كم سنة» ؟

«ست سنوات» .

«أليس عندك ابن غيره» ؟

«لا ، كان عندي ابن آخر مات ...»

ساد الصمت الذي يسود دائما عند ذكر الموت... نوع من الخشوع المصطنع.

«الم يكن اسمه يوسف» ؟

تدخل يوسف في المناقشة كأنه كان ينتظر فرصته لينطلق ...

«انا اسمي يوسف واخي كان اسمه يوسف ... بابا كان يحب يوسف قوي.. وبيحبني انا كمان ...»

قال عزيز :

«انا باحبك انت اكثر» .

اشرق وجه الصبي بابتسامة راضية فيها شيء من الخجل ... يجلس الاثنان كأنهما ينتظران شيئا .

قال عزيز :

«يوسف ... اتركنا وحدنا ... نريد ان نتحدث في امر خاص» .

«ليه يا بابا ؟.. عايز افضل معاكم ... من فضلك ... حقعد ساكت ...»

«معلهش يا يوسف موضوع خاص ... انت مش ساعات بتكلمني في حاجات، ومتحبش حد يسمع ...؟»

«ابدا ... طيب ... قولي امتى كده ...»

«لا بيحصل ... اذهب الى سناء ...»

خرج متضررا يجر قدميه على الارض ، ويرنو نحوهم بنظرات فيها عتاب ...

تحدثوا طويلا في تلك الليلة ... عن السنين التي مضت منذ ان افرج عنهم.. وعن الاوضاع القائمة في البلاد وأين تسير ... احس عزيز انهما يديران الحديث بالتدريج نحو موضوع معين ... كان حنفي هو الذي يتكلم اغلب الوقت . لم يتدخل الشاب الا بين الحين والحين ... شيء فيه يوحي بالفن ... الشعر الطويل ترك دون تهذيب ... اصابع اليد طويلة عصبية يحركها كلما تكلم ... ملامح الوجه فيها جد ، ورقة في نفس الوقت ... والعينان الصغيرتان تضحكان، تضحكان دون انقطاع ... وفجاة تطلان نحوك بنظرة فيها حزن عميق ...

اخيرا جاءه السؤال الذي كان ينتظره :

«هل تعتقد ان اليسار في حاجة الى أن يتجمع من جديد» .

صمت لحظة ثم اجاب :

«نعم» .

تنهدا كأنهما اجتازا الحاجز الاول :

«فكرت في المسألة منذ مدة ... وحدي ...»

«لماذا وحدك» ؟

«لانني لم افكر في الاقدام على شيء» .

«والآن ؟»

«لا اعلم» ... قام من جلسته ، وأدار الراديو ... الآن تشده اشياء كثيرة.. تمزقه ... الثمن قد يكون غاليا ... لم يعد في العمر كثير ... في الشباب كان الامر مختلفا... الزمن طويل ، والرصيد كبير ، يبدد فيه بسخاء دون ان يشعر.. الآن يعيش لاول مرة مع اسرته ... مع نادية ويوسف وسناء ... الزنزانة اعتصرت من عمره سبعة عشر عاما ... اجمل سنين الحياة ... ولكن ... كيف يتنكر لما آمن به ... انهم يحترمونه والا لما جاءوا اليه .. الخبرة التي اكتسبها ليست ملكا له وحده ... الخوف ... الخوف يقتل احسن ما فينا ...

عاد الى جلسته على الكنبة .. سألهما :

«كوب آخر من الشاي» ؟

هزا راسيهما بالرفض :

«لا شكرا ...»

خيم عليهم صمت طويل ... كأن لا احد يريد ان يستانف الحديث ... تململ الشاب فوق المقعد ومال الى الامام ... عيناه لم يعد فيهما مكان للضحك ... مقلتان من السواد تسالان ...

«يا زميل عزيز ... آن الاوان لننصرف ... نريد ان نعرف ... هل نعود ... ام لا ...؟»

التفت اليه ... عيونهما تلتقي في ثبات ...

قال عزيز :

«عودا بعد اسبوع ... سانتظركما ... وسيكون ردي جاهزا ...»

★★★

يذهب الى مكتبه كل يوم ... ويعود في الثامنة مساء ... يقود سيارته الصغيرة في الصباح ليوصل يوسف الى المدرسة ثم يجتاز الطريق عبر كوبري ابي العلاء وكورنيش النيل ... وينحني عند السفارة البريطانية ليصل الى شارع القصر العيني ... قوافل لا تنتهي من السيارات ... الاوتوبيسات الزرق والحمر تكاد تنفجر من كثرة الاجسام المحشورة في داخلها ... تبحث عن مكان لقدم فوق السلم ، وفي الممرات . اجسام تتعارك ... وتتشابك ، وتردد اصواتها الغاضبة عبر النوافذ ... آلاف الناس يقفون على الارصفة او يخترقون صفوف السيارات في سباق كالجنون ... ضجيج آلات التنبيه والمحركات وصفافير الشرطة ، وباعة الجرائد ... اكوام من التراب ... والاسفلت ... والحجارة.. مواسير تنفجر ، ومجاري تطفح كلما سقط قليل من المطر ... مدينة حبلى بالتوتر ... تعرض أحشاءها في العراء ... تدفن مئات الالوف من الناس في الليل خلف جدرانها القبيحة ... وتفرزهم كالديدان يصعدون الى السطح في الصباح ...

ومع ذلك السماء صافية مفعمة بالهدوء ... والنيل يجري بين الشطان الخضر ... واشجار تهتز في نسيم الصباح ... وزهور الربيع ... حمر بطول الطريق ...

يجلس خلف مكتبه في الوزارة ... يقرا الاوراق ويوقعهما ... ويحضر اللجان ... ويناقش ويستفسر ويقترح ... ويرد على التليفون ... ويقابل الزوار ... ويشرب القهوة ... ويدخن ... ثم يقود سيارته عائدا الى المنزل ... ولكنك اذا سالته عما فعل طوال النهار يعجز عن الرد ...

جاء اليوم الذي كان لا بد ان يجيء ... جاء اليوم الذي كان ينتظره منذ

سنين ... منذ ست سنوات بالدقة ... يا للزمن يمر هكذا دون ان تشعر به!.. يضيع قبل ان تفعل بحياتك شيئا يستحق الذكر .. تجد نفسك دائما مشدودا.. بين الاستمتاع باللحظة الحاضرة والرغبة في ان تصنع شيئا للغد ...

جاء اليوم الذي كان ينتظره ويتلهف اليه ، ويستعجل قدومه ... جاء اليوم الذي كان يخاف منه ، ويود لو تأخر ميعاده ولو الى حين ...

اشياء تتبلور في داخله ، وتنضج ... انه لا يشك في سلامة الطريق الذي اختاره لنفسه ... ولا يندم عليه ... فقد صنعه هذا الطريق ... كما صنع الكثيرين ... ولكنه يشك في قيمة المساهمة التي قدمها ... فربما كان في استطاعته ان يقدم ما هو افضل ... ان يعطي من نفسه حيث يكون لعطائه قيمة اكبر ... فالتضحية وحدها لا تكفي ... لا بد من ان توضع في مكانها ... ان تعتصر حتى آخر رمق ... الا تضيع آثارها بسهولة ...

انه يهرب من القرار ... ولا يهرب ... او بالاحرى لا يعرف ان كان يهرب ام لا ... يريد هذه المرة الا يساق الى قرار ... ان يتخذه بعينين مفتوحتين على الحقائق ... أن يحس بارادة تنبع من نفسه ... ارادة ليست وليدة العادة ... او الطاعة ... او الخجل من الآخرين ... او الاحساس بعقدة الذنب الذي اورثته ظروفه الطبقية اياه ...

جلس الى جوارها على الكنبة ... يصل بعدها في اغلب الايام ... فتستريح، وتنتظره حتى يتناولا طعامهما سويا ... قالت :

«ناكل» ؟

«ان اردت ؟... ليست بي شهية الى الاكل» .

«حاجة خفيفة ...» ؟

«لا مانع ...»

صمتت ، ورمقته بنظرة سريعة ... ستسأله ... انه يضيق بالاسئلة عندما يتفادى مواجهة الاشياء ... ولكنه في هذه المرة يحتاج الى رأيها ... يعرف انها ستزيل القشور ، وتنفذ الى ما تحتها ... ثم انهما شركاء ... لم يعد من حقه ان يتصرف وحده ...

«نادية ... اريد ان احدثك في شيء ...»

التفتت اليه ... عيناها تشجعانه على المضي ... وجهه قوي ، عظامه متينة ... عنيف احيانا ... كالنسيم في لمسة العاطفة ... استطرد :

«منذ يومين زارني صديقان هنا في المنزل ... كنت عند احدى صديقاتك ، وعدت في ساعة متأخرة من الليل» .

تستمع بكل كيانها ... تحس ان الامر مهم ...

«زملاؤك» ؟

«نعم ...» صمت ...

«لماذا تصمت ؟.. اكمل» .

«اليسار يتجمع من جديد ...»
«وما شانك انت ...» ؟
تسأل السؤال لتساعده على الاستمرار ... عندما يكون مشغول البال لا يجيد الحديث ... تعود ان يحسم الامور وحده .
«طلبا مني ان اساهم معهم ...»
سرحت قليلا . عقلها يجري الى الامام ... ويزن العواقب ...
«وما رايك ؟»
«لا سبيل الى التخلي» .
اخذت نفسا عميقا ... وقع ما كانت تخشاه ...
«الم تضح بما فيه الكفاية ؟»
«لا يستطيع الانسان ان يعيش في الماضي ...»
«... يوجد غيرك ... الدور عليهم الان» .
«للقدامى خبرة لا بد ان يقدموها» .
«اكتب اذن ... احسن وسيلة لنقل الخبرة ...»
«لم اكتب من قبل ... ولا اشعر انني قادر على الكتابة» .
«هل جربت ؟»
«لا ...»
قالت بشيء من الحدة :
«اذن من اين تعرف ؟»
صمت ... استطردت ... تريد ان تؤكد في ذهنه الفكرة ...
«انا لم اعترض في يوم من الايام على نشاطك ... عشنا ثلاثة ارباع حياتنا وانت في السجون ... مات ابننا الاول دون ان يعرف اباه تقريبا ... ولكنني اقول ... في الشباب نضحي بسهولة دون ان نبالي كثيرا بالنتيجة ... ولكن الآن ... على الاقل اعط جهدك حيث يثمر ... ولا تقع بثمن بخس ...»
«لا بد ان افعل ما يطلبه التنظيم ...»
انفجرت غاضبة ... عيناها تبرقان شررا :
«انا لا اريد لك ان تكون نفرا ... افعل ما تشاء ... ولكن افعل شيئا له قيمته ... الطاعة ... التنظيم ... واين العقل ؟.. لماذا لا يفكرون في حسن استخدام الناس .. اسهل شيء الاوامر ...»
احتد وهمّ ان يصيح ...
«لا تحتد ... فلنناقش المسائل بهدوء ... لا تنسَ اننا كنا جميعا سويا .. انهم مكافحون يقدمون الكثير ... وانا اقدر شجاعتهم في هذه الظروف بالذات ... ولكنهم ليسوا آلهة ... انهم بشر ... لهم عيوبهم ... واحقادهم .. واطماعهم .. وقدراتهم على التفكير .. لماذا تفترض اذن ان عقلك اقل منهم ؟.. لماذا لا تفرض انت ما تعتقد انه صواب ؟.. لماذا لا تطمع في ان تعمل ما هو اهم؟.. الكتابة التي تبقى ... وتنقل الى الآخرين كل ما يريد ان ينقله الانسان ... ما

فائدة الجري في الشوارع ، وحضور الاجتماعات ... هذا لم يعد دورك ...»

تدفقت كلماتها ... فيض لا يريد ان يتوقف ... وعاطفة تنبع من احساسها بالاشياء ...

«اذا اختار كل منا ان يفعل ما يشاء ... فكيف يوجد تنظيم ...» ؟

«ولكنك ما زلت في البداية وتستطيع ان تختار» .

«واذا اختار كل منا ما هو اسهل ؟»

«أسهل ... من قال انه الاسهل ... ان تضع على الورق كل ما علمتك اياه الايام ... اسهل» .

صعدت نبرة سخرية الى صوتها :

«على اية حال ... انت حر ... عندك خبرة اكثر مني ... وتعرف ما هو الاصح ...»

صمت ...

رمقته بنظرة فيها رقة ... كأنها تخشى ان تكون قد جرحت شعوره ... انها تعرف الصراع الذي يدور في اعماقه ...

ابتسم ناحيتها يطمئنها ... قال :

«هيا بنا ... نأكل لقمة» .

***

تبخر ذلك الجزء البسيط من الطمأنينة الذي عاشا فيه ولو لفترة ... الان اصبحت له عشر عيون ... يطلقها في جميع الاتجاهات كلما استقل سيارته ... او صعد سلما .. او سار فوق الرصيف ... او دق جرس بيت من البيوت التي يذهب اليها ... او حتى عندما يدخل باب الوزارة ... كل الناس مشكوك في امرهم ... البواب .. والبائع المتجول الذي يرص الجوافة الناضجة بعناية في كوم كالهرم الصغير فوق عربته وينادي عليها امام العمارة ... والمكوجي الـذي يضغط بمكواته الحديدية على القمصان والملايات والمناديل الملونة فيتصاعد منها البخار الساخن ... يرفع عنها عينيه ويحييه عندما يعود ... وفراش المكتب.. والطالب ذو الجسم الرياضي والشعر الطويل يتسكع كل صباح على قمة الشارع الذي ينطلق منه بسيارته حاملا يوسف الى المدرسة ... وبائع الجرائد ، وحتى الموظفون في مكتبه ...

لم يكن من السهل ان يعود الى حياته القديمة ... يعاني نفس المخاوف ... ويفكر في مختلف الاحتمالات ... ولكن بالتدريج زال التوتر الاول ... وشعر بشيء من الرضى لانه استطاع ان يكسر الجدار ، يخطو بخطوات ثابتة علــى الجانب الآخر ... كمن قفز فوق هوة ليجدها اسهل مما كان يتصور ...

الوجوه الجديدة التي تحيط به تثير حماسه ... والاحساس بأنه يبني معهم

ويتحدى القوة المتربصة ، وعوامل الهزيمة التي بدا وكأنها لن تتزحزح ابدا ... اعاد اليه تقديره لنفسه وللآخرين ... واعاد لحياته معنى افتقده من مدة طويلة ...

في ذلك اليوم عاد من مكتبه الساعة الثامنة مساء ... التهم طعامه ، واطل من باب المكتب ... رآها تجلس في ركنها المفضل ... اللمبة تلقي دائرة من الضوء فوق شعرها ... والورق الابيض ... والخشب يبدو كالذهب السائل.. وحول الحجرة صفوف الكتب تنتصب صامتة في الظلام . قال :

«انا نازل ...»

سألت في شيء من القلق :

«ستتأخر ؟»

«سأحضر قبل منتصف الليل» .

«احرص على نفسك» .

جملة تعودت ان تقولها في الايام الاخيرة ... انحنى وقبلها ... يعرف انها لا تنام الان قبل ان يعود ...

«لا تخافي ... انا حريص» .

هبط السلم بقفزات سريعة ... ادار المحرك ، وانطلقت السيارة في الشارع العريض تحت الاضواء الصفر تحني رقابها على الجانبين ... المسافة الى مصر الجديدة ستستغرق ساعة الا ربعا ... ولكنه لا يذهب الى المكان مباشرة ... لا بد ان يدور ، ويجتاز بعض الشوارع الجانبية ، ويتوقف احيانا ... حتى يتأكد من المرآة المثبتة فوق راسه ان احدا لا يتبعه ...

كان قد وصل الى ميدان باب الحديد ... عندما لاحظ سيارة سوداء صغيرة ورجلين ... وقفت السيارة خلفه تماما عند الاشارة ... لم يلتفت لها اول الامر ولكن شيئا ما في ملامح الرجلين ... شيئا لا يستطيع ان يحدده ، اثار فيه شعورا دفينا بعدم الارتياح ... كانت الاشارة طويلة فامكنه ان يدقق النظر فيهما ... الوجهان في المرآة كصورة في اطارها ... واضحة ومبهمة في نفس الوقت ... عيون تتلصص ... عصبية خفيفة ، ولا مبالاة ظاهرية ... قرر أن يتأكد .

سار ببطء شديد في شارع رمسيس ... السيارة لا تسبقه رغم انه يسير على سرعة ثلاثين كيلومترا ... لا احد يسير بهذه السرعة في شارع رمسيس .. يكتفي السائق بالانوار الصغيرة ... ولا يضيء الكشافات لتنبيه المارة ... كأنه يريد ان يختبيء بسيارته في الظلام ... دخل في محطة للبنزين ... فحص المياه ، والزيت ، واطارات الكاوتش كأنه احس بخلل ما ... دفع بقرشين الى عامل المحطة ، ثم انطلق من جديد في شارع رمسيس ... سار مسافة تقرب من ثلثمائة متر فوجد السيارة تقف امام محل للفاكهة ... الرجلان يجلسان داخلها كأنهما ينتظران ... لم يبد عليهما انهما ابتاعا شيئا من المحل ... سار ببطء اشد ... بعد قليل لمح السيارة خلفه بمسافة ... حسنا سنرى ...

وصل الى مصر الجديدة ... ادار الراديو ، وقاد السيارة عبر الشوارع كأنه يتنزه ، ويضيع الوقت قبل موعد مرتقب ... لمح محلا لتطريز القمصان ... فتوقف امامه فجأة ضاغطا على الفرامل بكل قوته ... راى السيارة السوداء تقترب ... والعيون تخترق الزجاج ... في غضب اسود ... ادار السائق عجلة القيادة ودلف الى شارع جانبي صغير ...

انتاب عزيز شعور مختلط ... مزيج من الخوف ، والرضى عن النفس ... لولا الخبرة القديمة لوقع ... وقادهما الى مكان الاجتماع ... غشم ... يبدو ان الفرق القديمة نقلت ... هبط من السيارة ودخل المحل ... تناقش لمدة خمس دقائق في الاقمشة والاسعار ... ودع صاحب المحل ، واستقل سيارته من جديد عائدا الى منزلهم في المنيل ...

طوال الطريق راى السيارة السوداء خلفه ووجهين كريهين يطلان من خلف الزجاج ..

★★★

عندما زار اصدقاءه ليودعهم قرأ العتاب في بعض العيون ... عتاب لا يبوح عن نفسه ... ولكنه يظهر في كلمات اطلقوها دون ان يعوا مغزى الكلمات ... فالسنين الماضية لم تكن سهلة ... والسنين القادمة ... من يدري ماذا ستكون ؟.. يفكرون في اعماقهم ... كيف يتركنا الان ... في هذا الوقت بالذات ... حيث نحتاج اليه ، وربما يراودهم احساس آخر لا يريدون ان يعترفوا به ... شعرة من الحسد للفرصة التي واتته ... فالانسان جهاز معقد ... نسيج متشابك من الرغبات والآمال ، والدوافع الواضحة ، والخفية.. قليلون اولئك الذين يواجهون عالمهم الداخلي بصراحة ...

في ليلة من ليالي اغسطس دعاه حنفي في منزله ... جلسوا على الشرفة يتحدثون ويحتسون أكواب البيرة المثلجة ... رائحة الياسمين تهب عليهم من الحديقة المجاورة ... والهدوء يخيم على الشارع والبيوت ... جمع صغير من الاصدقاء ... تفرقوا في انحاء الارض .. وجمعتهم الظروف صدفة على هذه الشرفة بعد سنين من الفراق .

لم يكن راغبا في الكلام فاكتفى بان يستمع ويعلق من حين لآخر ...

قال حنفي :

ستكون لك وحشة يا ابا يوسف ... ضحك للاسم الجديد ... كل ما يتعلق بيوسف يعجبه ... تذكر الفقيه الذي كان يقرأ القرآن في دوارهم ... كان اسمه ابو يوسف ايضا ... صوته جميل ... ولحيته بيضاء طويلة يمسح عليها باصابع يده كلما انتهى من فقرة ...

لمعت عينا نادية في نصف الظلام ... تسرح في رائحة الياسمين ، والليل

الهادىء ... ولكنها الان عادت اليهم ... نعم ستكون لك وحشة يا عزيز ... لن يعاني احد من هذا الفراق سواي .

تدخل حلمي في الحديث :

«والله ... انا شخصيا احسدك ... لو اتيحت لي فرصة السفر لطرت من الفرح ... خمس وخمسون سنة يا ناس ، ولم اخرج من مصر ولا مرة واحدة .. اصل الناس مقامات ... امثالي لا يسافرون .. كفاية علينا طنطا ، وشبين ، ويومان في الاسكندرية نستحم في مياه البحر ...»

هذا الرجل صادق في بساطته ... هكذا كان دائما ... منذ ان دق باب بيته الصغير في شبرا الخيمة منذ ... اخذ يحسب في ذهنه ... خمس وعشرون سنة ... خمس وعشرون سنة اي ... ربع قرن ...

«اتتذكر يا حلمي اول لقاء لنا ...» ؟

لمعت العينان الضيقتان في الوجه الاسمر العريض :

«طبعا اتذكر ... كنت حتة طالب مفعوص ... واقف على البـــاب ... وخايف تدخل ...»

«خايف أدخل ... هو الواحد اياميها كان دريان ... انت اللي كنت خايف تدخلني » .

«أيوه والله ... لك حق ... شبرا الخيمة في تلـــك الايام ... كانت فظيعة ... كل شارع واقف عليه واحد من البوليس السري ...»

يجلس سمير في نصف الظلام ... يهز قدمه اليسرى في عصبية ... دائم التوتر ... شاب شعره تماما فوق الوجه المشدود . العينان جاحظتان قليلا ، ترمقان الناس والاشياء بنظرة فيها قلق ... يشعر انه يكنّ له شيئا مستترا لا تستريح اليه ... ربما لانه اعترف عليه في قضية الجامعة ... ولكنه سحب اعترافاته فيما بعد ووقف موقفا قويا ... التراجع لم يكن سهلا فقد كان فـــي استطاعته ان يفلت ... ربما يتخيل اشياء ليست حقيقية ... احس عزيز انه يخاطبه فالتفت اليه ...

«هل من المفيد ان تبعد عن مصر الان ؟...»

«لمَ لا ...؟»

«ستنعزل ، وتفقد القدرة على المشاركة في الاحداث ...»

ينطق الكلمات في شيء من التردد كأنه لا يبوح بكل ما يريد ان يقوله ... توقفت الاحاديث الجانبية ، واكتملت الحلقة ...

ضحك عزيز وقال :

«عندما نكبر ، ربما نفقد الشعور باهميتنا ... العالـــم كبير ... والصراع طويل ... اتذكر عندما كنا شبابا ، بدا وكان الاشتراكية على الابواب ... والآن مر اكثر من ربع قرن ... وجيوش اسرائيل تقف على القناة» ...

نبرات صوته اضحت جادة ... كانه يحس ان عزيز لا يأخذ كلامه بجدية..

«كلنا نعرف هذا ... ولكن علينا ان نساهم بدورنا ... ولكل منا دور ...»

«انا معك في هذا يا سمير ... لذلك حددت دوري ...»
ابتسم في شيء من السخرية ... وقال :
«وكيف تلعب دورك ؛ وانت لست هنا» ؟..
تململ الآخرون في جلستهم ... الحفل قصد به الوداع ... والمسائل تسير بطريقة لم تكن في الحسبان ...
قال حنفي :
«يا جماعة ... اليس لنا حديث غير السياسة ... نريد ان نفرفش ... أن نضحك ... الرجل سيسافر غدا او بعد غد ... دون ان يسمع آخر نكتة ...»
تدخل عزيز :
«ارى ان نكمل الموضوع ... فما يقول سمير ، ربما يفكر فيه آخرون ؛ دون ان يبوحوا بأفكارهم ... اسئلته لا تحرجني ... فيها نظرة للأمور يجب ان تناقش ...» التفت الى سمير وساله :
«ما هو دوري في نظرك» ؟
صمت لحظة كانه يختار كلماته .
«انت مكافح قديم ... لك خبرتك ...»
«صحيح ...»
«يكفي ما قلته ...»
«لا ... لا يكفي ... الخبرة لا فائدة منها الا اذا نقلت الى الغير... اموافق؟»
«موافق ... ماذا يمنعك من نقلها ...؟»
«لا شيء ... ولكن وسائل النقل ... كثيرة ... هناك وسيلة لنقل الخبرة الى اثنين او ثلاثة ، او عشرة على الاكثر ... وهناك وسيلة تنقلها الى المئات بل الالوف ... وسيلة لا تضيع ابدا ...»
ابتسم سمير في شيء من الحيرة ... ابتسامة لا تخلو من السخرية ... اعوجاج سريع في الشفتين ... اعتدل في جلسته كانه يتاهب للجدال .
«وما هي» ؟
«اسال نادية» .
اشارت بيدها كأنها تريد ان تبقى خارج المناقشة ...
«لا ... اكمل انت يا عزيز ...»
تدخل حلمي ضاحكا :
«يا ست ... لماذا تتخلين عن الرجل ؟ ما دام يستنجد بك ... جعبته اصبحت فارغة» .
قالت :
«الكتابة ...»
«فيمَ ؟» ...
«تاريخ السنين الماضية» .

التفت سمير اليه ثانيا :
«ستصبح مؤرخا اذن ...؟»

★★★

ستصبح مؤرخا اذن ... لمَ لا ؟... السنين الماضية تحتاج الى وقفة ... كل منا يحتاج الى وقفة في حياته احيانا ... يتأمل الانتصارات والهزائم ... ويستكشف نفسه مرة اخرى ...

قال له رجل عجوز من اصدقائه عندما زاره قبل ان يرحل :

«حسنا ... لقد افلتت من الخية» .

نعم افلت من الخية ... افلت من القهر الذي احاط به منذ الصغر ... مؤرخ ...؟ لمَ لا ؟ سيرى العالم الواسع ... ويكتب عن اشياء كثيرة ... ربما ساعده البعد على الكتابة ... نعم سيكتب ... وعندما يجيء الاوان سيعود .

★★★

طفل صغير في سن السادسة ... مقلتان سوداوان تلمعان كالفصوص في بياض العينين ... تتطلعان الى العالم بفضول لا يكف عن الحركة ... نظرة تساؤل يلقيها على الناس ، والاشياء ... عبر زجاج النوافذ يضغط انفه عليه ... ومن فوق جدران الشرفات ... في الحدائق ، والشوارع ، والميادين ، وسط الزحام الذي يجتاز المدينة ، انهار من البشر ، تتدفق صباحا ومساء ... وتلتقي عند الجامع الكبير ترتفع مئذنته كالسيف يشق السماء ... يسمع الاصوات تتردد كالرعد ..

«الله اكبر» ... فيحس ان الله هذا كائن مخيف له انياب وعيون يتطاير منها الشرر ... يرى الاجساد تلمس الارض من امام ... وارادفهم ترتفع في الهواء من الخلف ... فيلوذ بالفرار ... يغلق حجرته على نفسه ... ويسحب المجلات التي صفتها امه فوق الرفوف بنظام ... ويضيع في الصور الملونة عن القارات.. والبلاد ... والحيوانات ... والطيور ... في عالم يشعر فيه بالالفة ... والأمان ... فهذه الصور طيعة بين اصابعه ... يفعل هو ما يريده بها ... ويدخل معها برفق في عالم الخيال ...

هكذا تجده امه كل يوم جمعة ... يجلس على الارض وقد نثر حوله أكوام المجلات ... واستغرق فيها بذلك الخليط من الجدية والبراءة الذي يميز الاطفال ... تدخل من الباب دون ان يشعر بدخولها ... وتراقبه عن بعد في سكون ... وتحس بقلبها يفيض بالحنان ، والالم كشأن الامهات ... فما زال صغيرا لا يستطيع ان يدافع عن نفسه في عالم يتربص بكل ضعيف ...

تتقدم نحوه خطوة ويسمع صوتها يقول :

«يا عزيز : الم اقل لك عشرات المرات من قبل ... لا تسحب المجلات هكذا من فوق الرفوف ... ساضطر الى ترتيبها من جديد» .

يرفع عينيه عن الصور ... تطل منهما نظرة بعيدة كأنه ما زال غائبا في عالمه الخاص ... نظرة فيها عناد كأنه يرفض ان يعود ... وفيها ضيق ... وفيها ذلك الاستعطاف الذي يريد ان يتفادى به شيئا يخاف من وقوعه ...

كل شيء في هذا المنزل يخضع للنظام ... مرتب بدقة ... محكوم بالطاعة ... يستيقظ في الساعة السادسة والنصف صباحا ... ليجد خفيه الصغيرين ينتظران قدميه عندما يهبطان في مكانهما المعتاد فوق الارض ... يعبر الصالة الواسعة التي ما زالت تغط في نصف الظلام ، فتبدو فيها المقاعد العريضة كالفيلان النائمة تخفي اذرعها في مكان ما خلف ظهرها ... ثم بهو طويل تتردد فيه انفاس ابيه ، ينام في حجرته فوق السرير الكبير ... يدعك اسنانه بالفرشاة والمعجون ويعيدهما الى مكانهما في الكوب الموضوع على الرف ... يغسل وجهه واذنيه بسرعة حتى لا يدخل الصابون في عينيه ، ويعود الى حجرته ... ملابس المدرسة تنتظره نظيفة ، مكوية بعناية ، مرتبة في مكانها في الدولاب الابيض ... يخلع البيجامة ، ويرتدي القميص الابيض والسروال القصير ، والجراب ، والحذاء الاسود يلمع كالمرآة . يدس ذراعيه في المريلة ويجري الى المطبخ حيث يعرف ان امه تنتظره ، وقد اعدت له طعام الافطار ... يطل من النافذة ليرى قرص الشمس يشق طريقه الى السماء ، ويضيء اسطح المنازل ، وفروع الاشجار ... تحكم امه ازرار المريلة من الخلف ، وتوقفه امامها لتفحصه ، ولتتأكد من ان كل شيء كما ينبغي ان يكون ... ثم تتركه يجلس على مقعد مرتفع امام المنضدة ... انه يحب هذا الافطار في المطبخ حيث تطلق المواقد دفئها ، وتبدد برد الشتاء ... يشرب اللبن ... ويأكل البيض ، والزبد والجبن ، وخبزا طازجا ما زال ساخنا ، ثم ينطلق من باب الشقة كالطير يفر من قفص مغلق ... قدماه تدبدبان في سرعة جنونية فوق السلالم ... يتوقف لاهثا عند ركن الشارع حتى تحضر سيارة المدرسة ...

في الفصل ينصت جيدا الى الدرس ، ويكتب في كراسته بحروف يسعى جاهدا ان تبقى مستقيمة ... شيء من الدقة ، والعناية المبكرة فيما يفعل ... يكره الارقام والحساب ، ويعشق دروس اللغة ، والتاريخ الطبيعي ... ولكنه يبدو دائما كأنه مستغرق فيما يقال ... عيناه السوداوان تحملقان في الدرس ، والسبورة ، كان لا شيء يشغل باله سوى التقاط الكلمات التي ترن في ارجاء الفصل ، او تخططها يد المدرس بطباشير ابيض ، واحمر ، وأزرق فوق السطح الاسود الممتد بطول الجدار ...

ولكن في بعض الاحيان ... خصوصا امام الارقام ... يغيب ذهنه بعيدا .. يجوب آفاقا واسعة خارج الجدران ... حيث تجري الحيوانات بحرية ... وتسبح الاسماك في جوف المياه الزرق ... ويمشي الناس تحت الشمس ساعين

الى المكاتب ... والمصانع ... والآلات التي تدور ... العالم الواسع يفتننه .. بكل ما يتحرك فيه من اشياء غريبة تثير الدهشة ... والفصل بتخوته ، واطناله. وصفوفه المنتظمة ، وجدرانه المستقيمة ، يبدو كالصندوق المغلق ، يحجز عنه رؤية ما يحب ...

يعود آخر النهار ... في سيارة المدرسة ... يصعد السلالم ويدق جرس الباب .. فيفتح على الفور ... كأن امه كانت تقف خلفه ، وتنتظر وقع اقدامه وهي تصعد الدرجات ... تلقي عليه نظرة فاحصة من عينيها الزرقاوتين ... نظرة فيها دفء ... ثم تقبله ...

يتوجه الى حجرته ... يخلع ملابسه ... ويلف جسده بفوطة بيضاء كبيرة ... يتوجه الى الحمام ... ويسقط كالسمكة في الماء الساخن ... مطيلا مدة البقاء قدر الامكان حتى يسمع صوتها الآمر يقول :

«الم تنته بعد ... اخرج من الحمام ...»

يقف على الشرفة وقد ارتدى ملابس نظيفة ... يرنو بعينيه الى الاطفال في الشارع ... يمرحون ... ويلعبون الكرة ... ويركبون الدراجات الملونة ... تدق اجراسها المرحة وسط ضجيج الصياح ...

يعود الى حجرته ... يستذكر دروسه ... ويخط الحروف المتأنية فوق السطور المستقيمة ... ويحملق في صور المجلات التي يخبئها في ركن منفصل من الدولاب ... يسمع صوت امه تنادي للعشاء ... ياكل ما يوضع امامه ... ثم يدلف الى الفراش الناعم الابيض ... تجلس الى جواره ... فيدفن نفسه لحظات طويلة في احضانها ... يسكب حبه المكبوت فيشعر بالطمانينة تزحف عليه ، وتحيط به ... ثم ينام ...

يوم الخميس ... يوم مختلف ... فهو يعود مبكرا عند منتصف النهار ... يعود حاملا ميدالية صغيرة على صدره ... علامة التفوق ... يصعد السلم بسرعة على غير عادته ... يدفع الباب المفتوح ... يلقي بحقيبته جانبا ... ويقف امام ابويه لاهثا ... ينتظر في صمت ... ذلك البريق في العيون ... والايدي التي تربت على كتفه الصغير ... وكلمات فيها تقدير ... تملأه بسعادة طاغية ... فيحس كان صدره ينتفخ بالتدريج ، وبانفاسه محبوسة في داخله ..

في حياته كانت تلك اللحظات قمة الفرحة بالنسبة اليه ... كانه يعوض بها احساسه بالجفاف ... والبرودة ... وقلة التقدير ... فيبذل جهدا صبورا طوال الاسبوع ... حتى يعود كل يوم خميس ، والميدالية المستديرة تبرق فوق صدره علامة الانتصار ...

★★★

انه يجر قدميه فوق درجات السلم ... يصعد درجتين ... يتوقف طويلا ... ثم يصعد من جديد ... الحقيبة السوداء الصغيرة تبدو كحمل من

الرصاص ... شفتاه متورمتان ... يحس بطوحة الدماء ، والدموع عندما يمر بلسانه فوقهما ... ملابسه ممزقة تكشف عن صدره ... وكتف مجروح يبرز خلال القميص ... التراب يملأ انفه ، وعينيه ، ويغطي شعره الاسود بطبقة من الرماد ...

تردد امام الباب ... كأنه لم يقرر ماذا يفعل ... أيدخل ام يبقى هكذا في الخارج ينتظر ؟... اخيرا دق الجرس ... احس بقلبه يخفق مع الرنين البعيد..

دلف الى الصالة في صمت ... وقف امامهما يحبس دموعه ... انهما لا يحبان البكاء .. راى العيون تلف حول جسده ... من الراس ... الى الكتف.. الى الصدر العاري ... والحذاء الممزق... عيون تلحظ كل التفاصيل .. تفحص الجروح ... والشفتين المتورمتين ... والتراب الذي يغطي شعره وملابسه .. وفوق كل هذا تبحث عن الميدالية ... فلا تجدها ... عيون يقرأ فيها الغضب بدلا من الحنان .

قالت امه :

«ما الذي جرى لك» ؟... احس بيدها على كتفه ...

سكت ...

الآن يسمع صوت ابيه ... فيه نبرة رقة :

«ما الذي جرى ؟... لماذا لا تجيب ... يا عزيز ؟»

توجه اليه بعينيه ... نظرة كالجدار ... مغلقة ...

«لا شيء» ...

«كيف ... لا شيء ؟.. تاتي بهذه الحالة ... وتقول لنا ... لا شيء ..»

الآلام في كل جسمه ... وشيء كالحريق يشتعل في شفتيه ... انه لا يعرف لماذا يقفان هكذا ويسالانه ...

سألت أمه :

«واين الميدالية ؟»

الدموع تسقط الان صامتة ... يحبس البكاء الذي يصعد في صدره وحلقه بصعوبة ... هذا هو السؤال الذي يخشاه ... اين الميدالية ...؟ كان يامل الا يلاحظا غيابها ... تردد صوته هامسا ضعيفا :

«لم انلها» .

لماذا لا ترحم العيون ...؟ لماذا لا يتركانه يذهب الى حجرته ... ويبقى هناك ؟.. انه يريد ان يرتاح ... يشعر بالتعب ... والقنوط ..

ابوه يتكلم من جديد ... ربما احس بما هو فيه ...

«اذهب الى حجرتك ... اخلع ملابسك ... والدتك ستضمد لك جروحك ...»

رافقته الى الحجرة ... ساعدته على خلع ملابسه ... ثم توجهت معه الى الحمام ... غسلت جسده بالماء الدافىء وغطت جروحه بمرهم لونه اصفر ...

احس بيديها تمران فوقه برقة ... فاخذ يبكي ... بكاء متصلا لا يتوقف ... لفت ذراعها حوله وقبلته ... فزاد بكاؤه .. كأنه انتظر طويلا ليبكي ...

تناولوا غداءهم في صمت ... ترك طعامه دون ان يمسه ... لم تلحّ عليه امه ليأكل ... عندما انتهوا انسحب الى حجرته بسرعة كأنه كان ينتظر الفرصة بفارغ الصبر ... سمعهما يتحدثان في الصالة بحدة ... اصوات فيها غضب .. فانكمش في ركن من الحجرة ... حيوان صغير يبحث عن الفرار ..

انفتح الباب ودخلت امه ... امسكت بيده واجلسته على السرير واخذت مكانا الى جواره . قالت بهدوء :

«الآن حدثني عما جرى» .

• رمقها بنظرة متسائلة ... قالت :

«لا تخف ... حدثني» .

بدأ بصوت هامس متردد ... قويت نبراته بالتدريج ... الآن انطلق ... كأنه يحكي قصة اعجبته ... في المدرسة جاءه بعض الاطفال ... اصدقاؤه .. ثلاثة اولاد ... وبنت ... قالوا له ان الاطفال مثل العصافير يمكنهم ان يطيروا.. مسألة سهلة يعرفون السر ... وسبق لهم ان جربوهـــا ... صعدوا فـــي السماء ... وهبطوا فوق الاشجار ... وانطلقوا عبر النوافذ ... هكذا «زوم» اشاروا بأيديهم الصغيرة تلوح في الهواء مثل الطيور ... وعدوه بأن يطلعوه على الطريقة في آخر الاسبوع ... يوم الخميس ... ظل الاسبوع كله يحلم بيوم الخميس ... ذهنه في الفصل غائب عن الدروس ... وفي البيت ايضا عندما يستذكرها ... ولكنه ... سيطير ... كالعصافير ... هذا هو المهم ...

جاء اليوم الموعود ... في الفسحة قبل العودة الى المنزل ... امسك طفلان بذراعيه تحت الابط ... واحد من كل جانب ... وطفلان آخران بساقيه من الخلف... رفعوه عن الارض وصاح احدهم له بأن يدير ذراعيه كالمراوح بسرعة... فعل ... تركوه فسقط على الارض واصطدم وجهه ، وصدره بالارض ... مرة واثنتين وثلاثا ... في كل مرة قالوا له انه لم يدر ذراعيه بالسرعة الكافية ... لذلك اعاد الكرة عشر مرات ... في كل مرة يسقط بعنف على الارض... وتسيل الدماء من جروحه .

«ماما ... أريد ان اطير مثل العصافير» .

حملقت فيه العينان الزرقاوان ... مزيج من الجدية والحنان ...

«الانسان لا يطير ...»

«لماذا العصافير ... اذن» ؟

«خلقهم الله هكذا ...»

«اذن الله يستطيع ان يجعل الاطفال يطيرون» ؟

«طبعا ... اذا اراد» .

★★★

«الله يستطيع ان يجعل الاطفال يطيرون اذا اراد» . اذن فليتوجه الى الله .. ولكن اين يجده ليطلب منه ما يريد ؟... انه لا يعرف اين يسكن ... يقولون انه في السماوات ... لا سبيل للوصول اليه في السماوات ... انه لا يعرف كيف يطير ليصل اليه ... مدرس الدين يقول ان الناس يصلون ليتقربوا الى الله ... وفي الجامع مصلون يذهبون افواجا في يوم الجمعة ... لا بد ان الله يختفي في ركن ما من الجامع ... سيذهب غدا ليبحث عنه ...

وقف خلف صفوف المصلين على الرصيف ... المآذنة ترتفع كيف يشق السماء .. يسمع الاصوات تردد كالرعد «الله أكبر» فيرتجف ... الاجسام المتراصة تعلو وتهبط في حركة واحدة ... الرؤوس تلمس الارض من أمام ... والارداف ترتفع الى اعلى من الخلف ... ساد صمت طويل لا يقطعه سوى همس الالسنة ، وتمتمة الشفاه ... «السلام عليكم ورحمة الله ... السلام عليكم ورحمة الله» انهم يقفون الان ... جموع غفيرة ... لا مكان لقدم ... تسلل بجسده الصغير ... لا يرى سوى جدار الجلاليب والسراويل والسيقان ... كجذوع الشجر في غابة ...

فجأة تردد صوت مخيف يهتف ... «الله اكبر ولله الحمد» ... وآلاف الاصوات ترد عليه ... الغابة تتحرك الان ... تندفع خارج الجامع ... سيقان ... وسراويل وجلاليب تدفعه أمامها ... لا يرى شيئا ... يحس بنفسه محمولا كزورق من الورق ... لا يرى السماء ، ولا الارض ، ولا ايمن يسر ... يحاول ان يشق طريقه بذراعين عاجزتين .. الان يختنق ... يبكي.. الرعب يستولي عليه مع حركة الاجسام التي تضغط ... اصوات كالرعد تصم اذنيه ... جدار يميل ويسحقه ... يبكي ولكن لا احد يسمع ... شيء يجره ثم يلقي به على الارض ... احذية ، وسيقان ، يراها من اسفل ... تدوس عليه .. تسحقه ... يصرخ صراخا متصلا ... تموجات رمادية اللون تتحرك امام عينيه ... ثم سواد مطلق يلف حوله ويحتويه ... الان لم يعد يرى او يحس بأي شيء ... حتى الاحذية ...

***

اشياء في الطفولة ... تشكل شخصية الانسان ، وتحكم مستقبله دون ان يدري ... تململ فوق البرش الخشن وانقلب من جانبه الى جانب ... عظمة الفخذ تؤلمه من ضغطها على الارض ... اخذ ضوء الفجر يتسلل عبر القضبان.. آلاف الانفاس تتردد منتظمة في العنبر الكبير ... وحش ضخم رابض خلف الجدران يستعد للاستيقاظ ...

الاجسام نائمة على الارض ... اكوام سود في نصف الظلام تتحرك احيانا تحت البطاطين لتغير من وضعها ... هنا وهناك احدهم يتنهد كمن يزيح ذكرى

ثقيلة عن صدره ... او يسعل ... او يئن تحت وطأة الحلم او الالم المكتوم...
عشرة رجال ... يصدر عنهم صليل السلاسل كلما تحركوا في نومهم ... جاءوا منذ اسبوع ... من المحكمة ... دخلوا من البوابة الخشبية الضخمة ... اغلقت وراءهم كانها تغلق الى الابد ... فصل من الحياة ينتهي ليبدأ فصل جديد ... تخلع ملابسك وتترك وراءك ... عقلك ، وكرامتك ، واحاسيسك ، وشعلة التمرد التي حملتها معك عبر السنين ... وملابس اخرى ترتديها ... قميصا وسروالا من التيل الخشن ... منديلا ابيض تلفه حول عنقك ... وسلاسل تدق بمسمار غليظ حول الساق ، وتربط عند الوسط بحزام من الجلد ...

اشياء في الطفولة ... تضع الانسان ... اشياء تنمي ما فيه من قدرات ، وتغذي ازدهارها ... واشياء اخرى تعجزها وتكبتها ... هذا شان الحياة في كل المراحل ... لا تستطيع ان تفهم كيف اصبحنا ما نحن ، الا من خلال تلك الرحلة الطويلة الى الوراء .

لم يكن الالحاد مسالة صعبة عليه ... فقد ايمانه بالدين سنين طويلة قبل ان يلقي نفسه في خضم السياسة وينضم الى التنظيم ... كان له صديق يدعى عثمان ... طالب في كلية الآداب مولع بقراءة الكتب ... ينهل منها كالعطشان، ويغير رأيه عن الدنيا والاشياء ... من سنة الى سنة ... بل احيانا من شهر الى شهر ... يشك في كل شيء ... ويتردد عند كل موقف ... يحسم ثم يعود متسائلا ... هل اخطأ ام اصاب ؟.. كان طيب القلب لا يضمر شرا لاحد .. ولكنه قضى حياته دون ان يستقر على حال ... ودون ان يستطعم لحظة من الطمأنينة ...

نقل اليه حبه للفلسفة ... وتساؤلاته عن الكون والحياة ... يجلسان على الشرفة ساعات طويلة يتحدثان ... او يتنزهان عبر الشوارع الصامتة الى ساعة متاخرة من الليل ... يهب عليهم نسيم الصيف محملا بعطر الفل الهندي ... وترتعش اوراق الشجر في ضوء القمر ... ظهورها الملساء كاضواء من الفضة.. تلمع وتنطفىء ... يندهشان لجمال الطبيعة ... والكواكب ... والكون اللانهائي ... ويتساءلان عن معنى الحياة ، وموقع الانسان .. هل هو مسير ام مخير ؟.. عبد ام حر ؟.. وينشدان ابياتا من عمر الخيام ...

هكذا جاء اليوم الذي ادرك فيه انه اصبح ملحدا ... لم ينزعج ، ولم يشعر بأي صراع ... كالولادة بدون الم ... انه يرفض وجود الله لان وجوده لا يفسر اي شيء ... بل يجعل تفسيره بالنسبة اليه اصعب على المنال ... فكيف يسود الظلم والبؤس في كل مكان بينما يتربع الله على عرش السماوات ؟... وكيف يؤمن بالتفسيرات الساذجة لظواهر الاشياء ، قرأ عنها في الكتب السماوية ... بينما عقل الانسان وعلمه يمزق ستارا وراء ستار ، ويفرض سلطانه على الطبيعة، ويكشف حقائقها وقوانينها ...

كان تطوره نحو الالحاد عقلانيا ... ولكنه يدرك الان ... في هذه اللحظة

بالذات ... حيث ينام على ظهره فوق ارض الزنزانة ... ويشاهد ضوء النهار ينتشر خلف قضبان النافذة ... انه تهيأ نفسيا لهذا التبدل منذ الصغر ... منذ اليوم الذي اراد فيه ان يطير مثل العصافير ... ومن منا لا يريد ان يطير ليفلت من عالمه المحدود ، ليجوب آفاقا اوسع ... فذهب الى الجامعة يبحث عن الله ليبث له احلامه ... ثم فوجيء بذلك الطوفان المندفع يسحقه بالأقدام ...

استيقظ في اليوم التالي ... ودار بعينيه حول الحجرة ... كانه انتقل الى عالم جديد ... دولاب ابيض ... ومنضدة بيضاء ... وسرير ابيض ... وفتاة ترتدي مريلة بيضاء تقف الى جواره وتبتسم ... سمع كلمة مظاهرة لاول مرة.. ونام في حجرة مستشفى لاول مرة ... وادرك لاول مرة بعقله الصغير ... ان الله جبار يسحق ... يسحق من يريد ان يبسط جناحيه ويطير ...

سمع صوتا يهمس له في الظلام :

«اصاح انت يا عزيز» ؟

«نعم منذ مدة ...»

جلس حلمي القرفصاء ملقيا بغطائه جانبا ... تمطى في كسل ... سمع عظامه تطرقع عند المفاصل ... مال عليه ... وتطلع الى وجهه ...

«فيمَ تفكر ...؟»

«في اشياء مضت منذ زمن بعيد ...»

«منذ متى ؟»

«ايام الطفولة ...»

«يا شيخ ... اهذا وقت التفكير في الطفولة ... كم الساعة الان ؟» ...

«ليس معي ساعة ...»

«آه نسيت ... اخذوا منا الساعات ... ينبغي ان نقطع كل الصلات ... حتى صلتنا بالزمن ...»

بدا العنبر الكبير بطن كخلية نحل تستيقظ ... همهمة آلاف الاصوات ، اقدام حافية واجسام ، تحتك بالارض في الادوار التي تعلو فوقهم ... وادوات معدنية واكواب تصطدم ببعضها .. دخلت اشعة الشمس الاولى الى حجرتهم .. مربعات من الضوء كالسبائك الذهبية ترشحها القضبان على الجدار ... القى كل منهم بغطائه جانبا ، وجلس القرفصاء ، يفرك عينيه بيديه يزيل منها اثر النوم.. ترددت تحية الصباح بين نبرات ترن بالمرح ... واخرى اوتارها مرخية ، فاقدة الحماس ، كأن صاحبها يستقبل اليوم الجديد ضائقا به ، متبرما منه ... الى جوار عزيز جسد ما زال ممددا ... لا يتحرك ... كانه نائم ... او ربما ، يصطنع النوم ... سيد ... يهرب تحت الاغطية ... ويدس وجهه وعينيه بين ثناياها ... لا يطيق بداية النهار ... ورؤية الجدران ، والقضبان ، والملابس الزرقاء الباهتة ...

سال حلمي :

«من عليه اعداد الافطار اليوم» ؟

سؤال يسأل كل يوم ... واجب ثقيل يأمل من عليه الدور الا يتنبه الآخرون اليه ...

ساد صمت قصير ...

قال نور :

«انا» .

اخذ يسعل ... عيناه الصغيرتان كالخرز بين الجفون المتفخة ... كالليث الاسود .. ساقان طويلان ... وكتفان عريضان ... كان قويا في يوم من الايام ... ولكن الآن ... يسعل دائما ... وينبض قلبه بسرعة ... لا بد من الكشف عليه ... يلازمه احساس دفين بالموت ... يضيفه بابتسامة فيها حياء ... وعصبية تنفجر في لحظة دون سبب ظاهر ...

اخذوا يخلعون ملابس النوم ... قميص وسروال من القطن الابيض الخشن.. انهم يرتجفون ... السلاسل ترن مع كل حركة ... صوت معدني اصم ... الشمس تزحف فوق الجدار ... وسماء صافية تطل عليهم بسلام ... عميقة تأملهم عبر النافذة ... لفوا الاغطية ورتبوها الى جوار الحائط ... مربعات منتظمة ... تلفت عزيز الى الجسد الممدد بجواره ...

«سيد ... صباح الخير ...»

تمطى تحت الاغطية .

«اريد ان انام قليلا ... لماذا الاستعجال ؟ اهدا يا اخي ...»

«جاء ميعاد الجبل» ؟

«جبل ... اي جبل ؟»

رفع الغطاء عن رأسه ؛ وحملق في وجه عزيز يقف منتصبا الى جانبه ...

«مالك تقف كالحارس ...؟»

عيناه العسليتان تضحكان ... دافئتان دائما ... ما عدا لحظات الغضب..

«جاء ميعاد الجبل ...»

نحى الاغطية جانبا ... ووقف ... خلع المنديل الذي لفه حول رأسه ...

«حاضر يا سيدي ... لاجل خاطرك والله» ...

★★★

الجبل .

عندما كان صغيرا شرح له المدرس معنى كلمة الجبل ...

مرتفعات خضر جميلة تغطيها الاشجار ... على قمتها ثلج ابيض ، قبة بيضاء تحت السماء ... تتبدل الوانها مع طلوع النهار ، وعند سقوط الليل ... جبال «الانديز» تمتد على الساحل الغربي في امريكا الجنوبية ، وجبال «الهيملايا» يصعد اليها المغامرون هناك عند شمال الهند ... الى قمة «افرست»

العليا ... راى صورها في الكتب والمجلات وافتتن بها ... قال لأمه ذات يوم اريد ان اصعد الى الجبل فضحكت وقبلته وعندما اصر : ... «ارجوك يا امي اريد ان اصعد الى الجبل» ... قالت حاضر ... «سنذهب الى جبل لبنان ... السنة القادمة ...» ؟

...ذهبوا الى جبل لبنان ... الى «بيت مري» ...

فندق ابيض واسع الارجاء ... يختال عبره رجال يرتدون قمصانا من الحرير ويدخنون ، ويلعبون ، الكونكان ، والبوكر ... ونساء يفوح عطرهن من تحت الابواب في الممرات الطويلة المغطاة ببساط احمر ... وفي الصالونات حيث يغرقن في المقاعد الوثيرة ، ويتبادلن الاحاديث الطويلة في شئون لا يفهمها ، ولا تضيره في شيء ...

كان للأسرة صديق ... استاذ في كلية الزراعة ... رجل أعزب ... مرتفع القوام ... عريض المنكبين ... وجه اسمر ضاحك ... يجمع الاطفال كل صباح ويذهب معهم في رحلة ... يقول «هيا بنا» فيندفعون بأصوات مرحة عبر الوديان ... يصعدون سفوح الجبل ... ويهبطون عليها ... وهو يسير وسطهم ... كالراعي العملاق يحمل عصاته الطويلة ... ويحمل الاطفال الصغار على كتفيه عندما يتعبون ...

علمهم اسماء الطيور ، والحيوانات الصغيرة ... وكيف تأكل ، وكيف تنام.. وكيف يولد صغارها ... هذه من البيضة ... تنمو ، وتمر بمراحل مختلفة ثم تكسر القشرة الخارجية ... لتخرج الى الدنيا وتطير ... وهذا الارنب البري كالطفل الصغير ... مستكين في الرحم ... يتغذى من شرايين امه ... من دمها ... محاط بالدفء ... والهدوء ، تحميه جدران الانسجة من الاضرار... وعندما يكتمل يخرج من هذه الفتحة الصغيرة ... هو واخوته ... يرضع من الثدي ... وتصلب اطرافه ... يتحرك في حرص اول الامر ... يتعلم كيف يتفادى الاخطار ويحصل على غذائه ... ثم ينطلق ، كائن مستقل ...

وهذه الزهور ... يخرج مطواة حادة ... ويشقها حتى يروا الاحشاء ... هنا يتم اللقاح ... فراشة ملونة او نحلة ... تمتص الرحيق ، وتنقل مادة كالمسحوق الاصفر ... تنمو الثمرة لتصبح فاكهة ... او بذرة ... وتبدأ الدورة من جديد ... الطبيعة جميلة ، اليس كذلك ؟.. انظروا هذه الفراشة.. اجنحة من حرير ... زرقاء تتخللها فصوص كالياقوت ...

ولكن هناك جبل آخر ... لم يقرأ عنه في كتب الجغرافية ... ولم يحدثه عنه احد ، فهناك اشياء كثيرة ينبغي أن تبقى في طي الكتمان ... حتى تستقر الامور ... ويسود الرضى ... جبل آخر كان لا بد من ان يراه ... حتى تكتمل معرفته بأنواع الجبال ...

الشمس صعدت الان في السماء ... تسقط اشعتها الحارقة فوق رؤوسهم ... بيضاء تعكسها كثبان الرمال فتؤلم العيون ... وحبات الرمل ، والحصى خشنة ساخنة تحت بطن القدم ... تلسع ، وتكوّن قشرة كالجلد

المدبوغ ... بحر من الرؤوس ... حليقة تحت الطاقية الزرقاء ... تمتد حتى رؤية العين ... رؤوس تنحني نحو الارض ... تثبت عيونها في المساحة الصغيرة التي تفصل بين الأقدام ...

ينبغي لها ان تبقى هكذا ... على الدوام ... فأي حركة الى اعلى ... مجرد التفاتة بسيطة الى الامام ... او صعود في ميل الاعناق ... يعني بداية تمرد.. ويستوجب العقاب ...

صفوف وراء صفوف ... تجلس القرفصاء .. صامتة ، مستسلمة كالبحر بعد العاصفة ... مساحة مستكينة من الزرقة الباهتة ... تمتد فوق الرمال الصفر ... مسلوبة الارادة ..

الاجساد التي تصعد من بين الافخاذ ... اشجار تنحني تحت الرياح ... الجذوع والاعناق ، والرؤوس خط واحد يميل الى اسفل ... نفس الميل ... امواج منتظمة تجمدت فجأة بأمر جبار ...

آلاف الاقدام راسخة في الارض ... وآلاف الاجسام القوية تبرز عضلاتها تحت القمصان ... وآلاف العيون تطل خلسة من تحت الجفون ... ترى... وتتبع.. وتنتظر ..

عندما خرجوا من العنبر في الصباح ... حددوا لهم مكانهم في المقدمة ... صفان من خمسة في ركن معزول ... حيث تسهل مراقبتهم ... ومنعهم من الاتصال بالآخرين ... فاتخذوا يتتبعون ما يدور باهتمام ... راوا طابورا طويلا من الخيالة ينتشر حول جموع الرجال ، ويلفهم في دائرة محكمة ... صهيل الخيل يصرخ كالتحدي ، واقدامهم تندفع فوق الرمال ... مثل ايقاع سريع على عشرات الطبول ... بنادق اوتوماتيكية ، وسيوف ترتفع وتنخفض في غمدها على جانب السرج ... صلب ، وجلود ، ونحاس يلمع في الشمس ، ويختفي ليلمع من جديد .. وصوت البروجي يتردد كنداء الهجوم ... والرمال ترتفع سحبا طويلة من الخلف ... وحركة الخيول ... تجري ... تدور حول نفسها .. تندفع الى الامام ... ثم تتوقف فجأة تحت شدة اللجام ... العرف في الهواء.. والذيل يطير ... وبياض العين يلمع في جنون ...

قال حلمي :

«اسمه الجنزير» .

كلمة جديدة سيضيفها الى القاموس الطويل ...

طابور يمتد ما يقرب من نصف كيلومتر ... مقسم الى مربعات ... وعند كل ركن من المربع حارس يحمل عصاة ضخمة ... وعند مقدمة الطابور على مسافة تبعد ثلاثين مترا مأمور الجبل ... احاط وسطه بحزام عريض من الجلد ... ومسدس يبرز مقبضه الاسود على جانبه الايمن ... جسد ضخم يربض فوق حصانه ... وينتظر ... وثلاثة ضباط خيالة ... يقفون الى جواره ... او يندفعون هنا وهناك ويصدرون الاوامر الاخيرة ... او يطمئنون

على كل شيء ... كل حركة مدروسة ... جزء من الطقوس ... دراية طويلة بالارهاب ... الارهاب الذي لا بد منه للتحكم في هذه الجموع التي تجلس القرفصاء على الرمال ... اعناقها محنية ... وعيونها في الارض ... كأنها تحمل الجبل فوق اكتافها منذ آلاف السنين ... منذ ان بنى العبيد اهرامات الجيزة ، وتركوها لنا رمزا للجبروت ...

قال نور :

«كأن لا شيء تغير منذ الفراعنة» .

قلب الفنان يتحدث .

راوا رجلا اسمر نحيلا ... تقاطيعه حادة قاسية يتقدم مسرعا نحو مأمور الجبل ... ادى التحية ، ووقف كالسلك المشدود ...

«تمام يا افندم ... الف وخمسمائة وواحد وعشرون ...»

«طيب يا شاويش ... اطلع الجبل ...»

رن صوت هائل ، تردد بين كثبان الرمال ، كأن اصواتا اخرى تلتقطه على طول الطابور ... وصرخت الصفافير حادة ، تخترق طبلة الأذن ، فطارت الغربان السود ، ترفرف اجنحتها السود في ذعر .

«قف» .

ارتفع الطابور ... مثل غابة من الاشجار صعدت فجأة من الارض ... رن صليل القيود ... قويا ، كأن آلة عتيقة بدأت تدور ... ثم مات بالتدريج في اهتزازات خفيفة ، ترددت هنا وهناك عند نقط متفرقة من الطابور ...

«الى ... الامام» .

صعد الصوت من جديد كالانذار في يوم القيامة ... بدا في المقدمة والتقطته الاصوات تردده كالصدى على طول الطريق ...

«الى الامام ... الى الامام ...»

آلاف الاقدام تزحف فوق الرمال والحصى ... حفيف صامت مكتوم كالوحش الضخم يخطو بخنوف مبطنة فوق الارض ... آلاف السلاسل الحديدية ترن مع همس الأقدام ... شريط رمادي طويل يزحف ، ويتلوى عبر كثبان الرمال ... وعلى الجانبين جنزير الخيالة ... خطان متوازيان يسيران خطوة خطوة مع الموكب ... وفي المقدمة ظهور الضباط ، وارداف الخيول ... تسقط من تحت ذيولها المرفوعة فضلاتها الصفر ... وتنطلق غازاتها بصوت عال في وجه الزاحفين من الخلف ... علامة الازدراء ...

ساروا ما يقرب من نصف ساعة ... عند نهاية الطريق الذي صنعته الطوابير الزاحفة منذ سنين اخذت الارض تهبط بالتدريج الى ان دخلوا في حفرة تشبه وعاء مستديرا ... احاطت بها جبال من الحجر الابيض كالجدار المتصل ، ينقطع عند الطريق الذي هبطوا منه ... تفرقت المربعات الى فرق ذهب كل منها الى مكان محدد عند اسفل الجبل ... ومع كل فرقة اربعة من الحراس ... وانتشر الجنزير في دائرة واسعة فوق قمة الجبل ... وقفت الخيول تطل من

اعلى بعيون قلقة ... ترفع رؤوسها في الهواء ... وتنقل ثقلها من قدم الى قدم في خفة ... كأنها ترقص فوق الحجر الابيض ... ومن ورائها سماء زرقاء صافية ، اخذ لونها يضعف بالتدريج تحت وهج الشمس الصاعدة ... يحترق لهيبها دون رحمة ...

على يسار الطريق الذي وصلوا منه ، فجوة مفتوحة في دائرة الحجر الابيض المتصل تشق الجبل من قمته الى قاعدته ، كأنها قطعت على الجانبين بسكين .. وقضبان السكة الحديد تخترق الفجوة ، وتدور في قوس اسود كأن ثعبانا ضخما يربض عند اسفل الجبل ، محتميا به من وهج الشمس ...

الرجال يزحفون نقطا رمادية على سفح الجبل الابيض ... وصوت المعاول يرن في الصمت الواسع كلما اصطدم المعدن بالحجر الصلد ... وكتل بيض تسقط من اعلى فوق الارض تصاحبها اصوات تصيح ... «حاسب» .

وصياح اجش من الحراس «اعملك همة يا مذنب انت وهو» والاجسام تعلو، وتهبط مع حركة المعاول ... على سفوح الجبل ؛ وفوق الارض المنبسطة حيث يقطعون الحجر احجاما متساوية ... والوجوه السمر مشدودة ينهمر فوقها العرق ... وعربات السكة الحديد تروح وتجيء ، تصفر عجلاتها فوق القضبان.. وتدفعها الاكتاف العريضة عند اسفل الجبل ... تخترق الفجوة وتختفي خلفها حيث يقف القطار ... اصوات من حجر ... وحديد ... وسلاسل تهتز حول الاجسام ... وصياح اجش ... وعضلات تئن من التوتر ... واقدام ، وأياد يقطعها الحجر ... تاركا بقعا حمرا فوق الحجر الابيض ... وغضب صامت في الوجوه ... ومن اعلى عيون الخيل ، وعيون العسكر تبعهم ... تراقبهم ... وعيون البنادق باردة معدنية تنتظر اقل حركة ... لتصب رصاص الموت عليهم في وضح النهار ...

اقترب منهم احد الضباط ، يختال على حصانه ... وجه خمري اللون ... وشعر اشقر ... وملامح وسيمة تبدو بشعة في هذا الجحيم ... الحصان الاحمر ، يقفز راقصا فوق الرمال ... سار نحوهم كأنه سيدوس فوقهم ثم أوقفه بحركة سريعة من يده ... وقف الجمع الصغير ساكنا لا يتحرك ... عيون مصوبة الى اعلى في صمت ...

همس سيد :

«حليوة قوي الضابط ده» .

انه يرمقهم من فوق حصانه ... ابتسامة خفيفة فيها ازدراء ... الاجسام الهزيلة والعوينات ... في الجبل ... شلة من الطلبة ... اشار الى حلمي بكرباج قصير يحمله ... «انت يا مذنب ... هناك ... تقدم خطوتين» .

خطا خطوتين ووقف ينتظر ...

«بتشتغل ايه» ؟

«عامل نسيج» .

«عامل» ؟!
انطلقت الكلمة كالرصاص ... ناعمة ... ملساء ... كالحقد المصبوب ...
«وايه اللي جابك مع دول» ؟
صمت ... لم يأت وقت العراك ...
«اجب» .
«حكم عليّ بالاشغال الشاقة مثلهم» .
ضحك بسخرية ... ضحكة ضاعت فيها وسامة الملامح ، والتوت ...
«عارف ... امال هنا ليه ... انت عبيط والا ايه» .
وجه حلمي اصبح جامدا ... كالقناع ... لا تتحرك فيه عضلة ... والجسد المربع ثابت فوق الارض .. عيناه فقط تتحدثان ... مقلتان من سواد ، تحتهما شعلة ... الجمع الصغير يقف وراءه ... ثابت يسنده كانه يقول «اصمت ، لم يأت بعد وقت العراك ...»
مال الضابط الى الامام ورفع يده بالكرباج ... وجه حلمي ما زال جامدا لا تتحرك فيه عضلة ... من بعيد تأتيهم اصوات الجبل ... حجر يتدحرج ويسقط ... وصوت الحديد يحتك بالحديد ...
«اجب ... ما جاء بك الى هنا ...؟»
«قضية شيوعية ...»
«شيوعية» نطق الكلمة كالثعبان ينفث سما ... ماعندناش حاجة اسمها شيوعية هنا ... فاهم ... كلكم مذنبون ... مثل الباقي ... لا اريد ان اسمع هذه الكلمة مرة اخرى» ... اشار بكرباجه نحو ركن منعزل من الجبل الابيض... «تشتغلوا هناك ... عايزين ربع عربية على آخر النهار ... فاهمين ... ربع عربية ... والا ... خذهم يا شاويش» .
«حاضر يافندم ... يالله انت وهو يا مذنب ...»
وقفوا في مكانهم لا يتحركون ... تقدم عزيز الى جوار حلمي ...
«اتسمح يا حضرة الضابط ...»
كان قد ادار حصانه نصف دائرة ... فمال ناحيته بوجهه ... الرموش طويلة حول مقلة العين ... من المنصورة ربما ... النظرة تبدلت ... حيرة خفيفة تعكر الصفاء .. صفاء فاقد الاحساس .. كزجاج الكريستال ...
«عايز ايه ، انت كمان ، يا مذنب» ؟
اخذ نفسا عميقا ... جاء وقت القفز ... هوة لا يعرفون آخرها ... ولكن لا بد من القفز منذ البداية ... قبل ان يدوسوهم ... هؤلاء الذين يسمونهم بالشيوعيين ... الجهل يولد التردد ... فيما بعد ربما يكون الموقف اصعب.. لا بد انهم ناقشوا المسائل في الادارة ... وصدرت الاوامر ... «العين الحمراء منذ اول لحظة» ...
«لن نعمل في الجبل» .
نظر اليه في دهشة ، وظل صامتا كمن فقد النطق ... تفتق ذهنه عن

مخرج ...

«وما شأنك انت بالآخرين ؟.. تكلم عن نفسك» ...

الحيلة القديمة ... كل واحد على حدة ... هكذا يسهل سحقهم ... هكذا سحقوا الآلاف من قبل ... وحولوهم الى قطيع ...

«انا مندوب عنهم ...»

مرة اخرى ... هكذا من سجن الى سجن ... حلقة التوتر من جديد ... والمعارك من جديد ... صدام لا يتوقف سوى لحظات قصيرة من الراحة ... كم يحن احيانا الى القاء السلاح ... ولكن ... لا مفر ... لا بد من الاستمرار ... سيقانه تخللها رعشة خفيفة ... ترى ماذا سيحدث ؟.. الليمان والجبل ... وضع آخر ... خطير ...

ادار حصانه ليواجههم .

«من يرفض العمل فليتقدم خطوتين ...»

تقدم الجمع خطوتين الى الامام ... حركة رجل واحد ...

حملق فيهم ... الصوت اصبح هادئا منذرا :

«انكم لا شك تعلمون ... ان هذا تمرد ... والتمرد في الجبل عواقبه معروفة » .

قال عزيز :

«اطلقوا علينا الرصاص ... ولكننا لن نعمل ...»

التفت الى الحراس ... الآن يرفع صوته بالصياح كانه يصب عليهم غضبه وتوتره ... هكذا دائما ... على العاجزين عن الرد ...

«محدش منهم يتحرك من هنا ... يا غنم ... فاهمين» .

ثم انطلق يعدو بحصانه نحو مبنى منخفض عند مدخل الجبل ... سقف من الصاج وحجر ابيض يذكر بمعسكرات الانجليز ...

تنهد سيد :

«الله يخرب بيته ... ضابط حليوه صحيح» .

ضحكوا ... الان كل شيء فيهم مشدود ... زال التردد ... فليكن ما يكون ... عيون الحراس تختلس نظرات خاطفة نحوهم ... نظرات فيها حيرة وخوف ... النظام يتفكك ... سأل نور :

«اين ذهب يا ترى» ؟

«للمأمور طبعا ... يتلقى التعليمات ...»

«سيطلقون علينا الرصاص ...»

«هنا في الجبل ... مستحيل ... امام الف وخمسمائة وواحد وعشرين شاهدا ... غير الجنود والحراس ... والضباط الآخرين ... الا اذا اصابهم جنون ... »

راودتهم الفكرة ... فصمتوا ... من يعلم ... رعونة هؤلاء الضباط ...

لا حدود لها احيانا ... ولكن ... التفت عزيز حوله ... الخيول تروح وتجيء في عصبية فوق الجبل ... وتجمعات صغيرة من الرجال تلقي نحوهم بنظرات سريعة ... حراس الفرق لم يعودوا يجلسون على الحجارة ويستريحون في الظل ... حركة العمل اصبحت ابطأ ... وشيء كالتوتر الخفي في الجو ... لا بد انهم لاحظوا شيئا ...

انتظروا ما يقرب من نصف ساعة ... اخذوا يتنقلون في دائرة صغيرة ... خطوات قصيرة متوترة كأنهم يدورون حول انفسهم ... اخيرا راوا الضابط ينطلق نحوهم على حصانه وحده ... اقترب منهم ... قال عماد ...

«المأمور ليس معه ... قرر ان يبقى في مكتبه ... ترى لماذا ...؟»

ابتسم سيد :

«لا تعجل الامور ... سنرى حالا» .

ابطأ الضابط حصانه ... الآن لا ينظر اليهم... يصدر اوامره بصوت عال الى الحراس :

«يا شاويش ... خذ معك اربعة عساكر بالبنادق ... وعد بهم الى الليمان ... »

ساروا صفين من خمسة ... كل منهم مستغرق في افكاره ... ترى ماذا ينتظرهم هناك ؟ ساروا عبر الطريق الممتد فوق الرمال حتى الليمان ... كتلة صغيرة تتحرك فوق الصحراء الموحشة حيث كان يسير مئات الرجال ... اصوات اقدامهم تبدو غريبة في الفراغ الواسع ... كأنهم ضاعوا الى الابد في دنيا لا يعرفونها ... وغراب اسود وحيد يطل عليهم من فوق سلك كهربائي ، يميل برأسه ويتتبعهم بعينيه الصغيرتين كأنه يندهش امام ما يراه ويريد ان يتأكد .. وجربوع يخترق سطح الرمال فجاة ويجري هاربا امامهم في قفزات مجنونة ... عندما اقتربوا من الليمان سار الطريق تحت كوبري صغير تمر عليه السيارات ... الوجوه يرونها خلف الزجاج تحملق في فضول ... احس عزيز فجاة انه في حلم ... ان هذا العالم الذي يتحرك فيه ليس حقيقيا ... ان كل ما يحدث لهم خرافة ... سيستيقظ منه ويفيق بعد لحظة ...

***

«اخلع حذاءك» .

«لا ... لن اخلعه» .

« قبل ان تدخل الى مدير السجن لا بد ان تخلع حذاءك» .

«لن اخلعه» .

ارتفع الصوت يصيح في غضب :

«اخلع حذاءك يا مذنب ... والا ستوضع في التأديب» .

«احفظ الفاظك ... ولا تقول مذنب ...»

ففر فاهه كأنه اصيب بلطمة مفاجئة على صدغه ... شفتان غليظتان لم ير مثيلا لغلظتهما في حياته ... الشفة السفلى تتدلى في بلاهة ، يسيل منهما اللعاب ... وفك ضخم زحف على الوجه والجبهة ليضغطهما في حيز ضيق ... وكأن الوجه عبارة عن فك ... وعينان صغيرتان مغروستان على جانبي الانف الافطس ... وجه قرد عجوز ، مفترس ، هرب من الغابة ... الشاويش حسين ...

تجمع حولهم عدد من المساجين ... توبتجية المكاتب ... العمم البيض ... والبدل الزرق الطويلة مكواة بعناية ... والأصداغ المتلئة الحليقة ... جواسيس ، وتجار الليمان .. حاملو اخبار العنابر الى الضباط ... يتاجرون في الدخان ، والمخدرات ، وغذاء المساجين والصبية ... قوادون ...

سمع اصواتا تقول :

«اخلع حذاءك يا افندي ... لازم كدا قبل ان تدخل الى مدير السجن ... هذه هي الاصول» .

احس بالكراهية ... هؤلاء في كل مكان ... الشماشرجية المستفيدون ... ولاؤهم للاقوى دائما ... حثالة الارض يدافعون عن الاصول ... والنظام ...

«ليس هذا شأنك ... انت وهو ...» رفع صوته ... «هو انا داخل جامع ...»

اختفوا في لحظة ... لم يعد لهم اثر ...

التفت الشاويش اليه :

«سنخلع حذاءك غصبا عنك ...» ثم وجه كلماته الى الحارسين الواقفين الى جواره :

«اخلعا له حذاءه ... حالا ...»

احس بيدين قويتين تقبضان على ذراعه وترفعانه الى اعلى في الهواء ... كأنه طفل .

استولى عليه غضب مجنون ... ليحدث ما يحدث ... لحظة يحس فيها الانسان انه لم يعد يهمه شيء ... اخذ يصارع بكل قوته ... فك ذراعيه ... واطاح بأحد الحراس جانبا ... وقع على احدى ركبتيه ... وقف ليجد الحارسين وقد تجمدا في مكانهما كأن ما كهربائيا أصابهما ... عند مدخل الباب رجل نحيل يرتدي سترة الضباط ... وعلى صدره شريط ملون ... عيناه الباهتتان تفحصانه بفضول من خلف النظارة ...

«اتركه يا شاويش» اشار الى عزيز «انت ، اتبعني» .

دخل من الباب الذي كان قد خرج منه ... ارتدى عزيز حذاء كان قد وقع من قدمه ... وسار خلفه ...

وجده غارقا في مقعد نصف دائري ... وقف امامه ... اخذ يرمقه في صمت ... يميل الى الوراء ثم الى الامام ... كأنه يبتعد عنه ويقترب منه

ليفحصه جيدا من كل الزوايا ... ومع كل حركة يصدر المقعد ازيزا متقطعا ... يشبه الانين ... المكتب ضخم ... يبدو كالقزم وراءه ... كأنه يحتمي به من عدوان محتمل .. أو يعوض به عن صغر حجمه ... خلع قبعته ووضعها الى جواره ... صلعته تلمع في الضوء المنبعث عبر النافذة ... تغطيها عدة شعيرات سود ... مشطها بعناية في اتجاهات مختلفة حتى تغطي اكبر مساحة ممكنة والتصقت في مكانها كأنها مثبتة بالصمغ ...

«ما اسمك» ؟

صوته هادىء عادي ... ووجهه عادي ... وجه موظف صعد بالاقدمية... لا يلفت النظر في اي شيء ... وجه من الوجوه التي ترى منها الآلاف ... في المكاتب ، والشوارع ... والاوتوبيسات ... تذهب الى عملها في الصباح ... وتعود في المساء ... حاملة كيسا من الفاكهة ... وجه تراه ... فتنساه ... لا يخيف في شيء ... احس بالاطمئنان ...

«اسمي الدكتور عزيز عمران» .

«دكتور» ؟

«نعم» .

مال الى الامام .

«طب» ؟

«نعم» .

تنهد ... ورفع منشة ترقد الى جواره ليطارد بها ذبابة كانت تدور حوله ببطء ...

«وما الذي اتى بك الى هنا» ؟

«قضية شيوعية ...»

«شيوعية ؟ حاجة غريبة ... مالنا ومال الشيوعية ... موضة جديدة ظهرت في هذه الايام ... البلد بخير والحمد لله ... ماذا تريد بالشيوعية ؟.. والغريب فيها انها لا تستهوي الا اولاد الناس .. بذمتك ... ماذا ستاخذ من الشيوعية هذه ؟.. انتهت بك الى الليمان ... مصاريف ... وتعليم ... وتربية ... الم تفكر في والديك يا اخي ؟.. اليس عندك رحمة ؟»

تنهد ثم اخذ يطارد الذبابة مرة اخرى كأنه يتسلى ، ويقتل الوقت ... لا يبدو عليه ما يدل على ان وراءه عملا ينتظره ... التفت الى عزيز من جديد :

«ولماذا جئت الى مكتبي ... واثرت كل هذه الضجة ؟ وكأنه لا ينقصني الا متاعب الشيوعية ايضا ... ثلاثة آلاف مسجون من اخطر ما خلقهم ربنا ... ثم يرسلون اليّ بالشيوعيين ايضا» .

نفخ ضيقا ثم استطرد :

«هه ... لم تقل لي لماذا جئت الى مكتبي ...؟»

«حضرتك ارسلت في طلبي» .

«انا ؟...» هرش في صلعته بطرف اصبع واحد ... حتى لا يغير من ترتيب

شعيراته المصفوفة .

«آه صحيح ... حكاية الجبل ... طلبت منكم ان تحضروا جميعا الى المكتب ... فرفضتم ... قلتم ان لكم مندوبا» ... ضرب بقبضته فجأة على المكتب فاهتزت الاقلام الموضوعة في وعاء صغير من الخشب ووقعت على الارض ... صاح ...

«يا نوبتجي ...»

هرول احد المسجونين المعممين من الخارج ... وتسلل على قدميه الحافيتين في صمت .

«اعد هذه الاقلام الى مكانها» .

اعادها ... ثم وقف يلقي بنظرات فيها فضول نحو عزيز ...

«اخرج ... واغلق الباب خلفك» .

خرج مسرعا واغلق الباب بعناية مفرطة كأنه يخشى ان يصدر عنه اقل صوت ...

اعاد القبعة الى راسه وشدها ، كأنه يستعد لعمل خطير ...

«اسمعني جيدا الان ... نحن هنا في الليمان ... لسنا في فندق ... وساعامل اي تمرد بمنتهى الشدة ... لا بد ان تعملوا في الجبل ... ولا يوجد شيء اسمه مندوب ... كل واحد يتكلم عن نفسه مفهوم ؟ ساعاملكم بمنتهى الشدة اذا لم تطيعوا الاوامر ... عد الى زملائك وبلغهم بما قلته لك» ...

«زملائك» ... هذا الرجل لا يحب العنف ... وضعته الظروف هنا فقط..

«كيف ابلغهم ... وحضرتك لا تعترف بالمندوبين» ...

حملق فيه كأنه لم يفكر في هذه الزاوية من قبل ...

«ليس هذا هو المهم الان ... نفذوا الاوامر ...»

«ولكنهم يرفضون ...»

انتصب واقفا خلف المكتب :

«تريدون ان تبثوا الفوضى هنا ... الشيوعية ... الفوضى ...»

ارتفعت نبرات صوته في عصبية ... واهتزت العوينات من مكانهما فاعادها ... «ساجلدكم ... ساضربكم واحدا واحدا بالرصاص ...»

«لا مانع ... انهم مستعدون لاي شيء ... ما عدا العمل في الجبل ...»

وقف جامدا كأنه لا يعرف ما يقول ... انتهز عزيز الفرصة واستطرد :

«نحن لا نريد ان نبث الفوضى ... الاصطدام هو الذي سيؤدي الى الفوضى ... وبقية المسجونين سيلاحظون ... بل بدأوا بالفعل يلاحظون ... لديّ اقتراح يحل المشكل ...»

«وما هو ...» ؟

قالها كأنه سيرفض الاقتراح لا محالة ...

«توجد ورشة لصنع التماثيل في الجبل ... علينا ان نخرج كل يوم مع الطابور في الصباح ونعود معه آخر النهار ... وتخصص لنا هذه الورشة ...

فنحن خطرون ... شيوعيون ... ينبغي الا نختلط مع باقي المسجونين ...»

ظل صامتا يفكر ... عيناه تتحركان من ناحية الى ناحية ... عينان باهتتان لا تستطيع ان تحدد لونها ... طال الصمت ... وقف عزيز دون حركة ... الانتظار افضل الان ...

حملق فيه ... ثم قال :

«عد الى عنبرك الان ... سنرى» .

دق جرس على مكتبه فانفتح الباب وظهر النوبتجي ...

«ارسل انشاويش حسنين» .

اطل وجه القرد من الباب ، ثم جسده ... دك كعوبه في الارض وادى التحية ..

«خذوه الى العنبر» .

خرج عزيز من الباب الى الحوش الصغير ... سار بخطى بطيئة ... الجدران العالية تعلوها الاسلاك الشائكة يقف فوق اركانها حراس ببنادقهم ... وجمع من المسجونين بأثوابهم الزرق يسوقهم حارس ضخم بعصاته في اتجاه المستشفى.. سحابة بيضاء تنساب هادئة في السماء ... وصوت عصفور يزقزق في عشه عند سقف العنبر ... حلم ... ما زال كل هذا حلما ... ترى متى يستيقظ ؟

***

تبدو الحياة احيانا كالدائرة المغلقة ... تبدا عند نقطة لتنتهي عندها من جديد ... لا فاصل بين الاشياء ... لا حدود بين الحلم والحقيقة ... كلها احداث تتكرر بشكل مختلف تعيشها حلما احيانا ... وحقيقة احيانا اخرى...

رشف حنفي رشفتين من الشاي ... ومصمص شفتيه ثم قال :

«شاي ممتاز ... من اين حصلت عليه ...»

«من الخارج ... اسمه شاي المهراجا» .

«شاي المهراجا... اي والله ... ممتاز فعلا...» اخذ رشفتين جديدتين.. مال الى الوراء على الكنبة وضحك :

«طول عمرك ابن ناس ... تحب الاشياء الجميلة ...»

كان قد مر اسبوع ، جاءه بعده حسب الاتفاق .

ساله عزيز عن الشاب الذي حضر معه اول مرة فقال له انه مشغول . ولم يستطع المجيء .. يجلس امامه على الكنبة ... جسمه ترهل وانتفخ عند البطن، والارداف ... خطوط حول العينين الصغيرتين ... عميقة على جانبي الانف.. تترك احساسا بالزمن والمرارة ... تقدم بهم السن جميعا ... ولكن عندما ينظر الى وجهه في المرآة لا يحس انه كبر ... لا نستطيع ان نرى انفسنا ... يرانا الآخرون ... ولكننا لا نرى انفسنا ... نحمل اجسادنا معنا في كل مكان ... نمشي ... ونتحدث ... ونضحك ... ونطل من العينين على الدنيا

والاشياء ... ولا نرى انفسنا ابدا ... الا في المرآة ... والمرآة تكذب عادة... لاننا عندما ننظر فيها نتخذ لانفسنا وضعا خاصا ... حتى نبدو في أحسن حال..

اخرجه صوت حنفي من تاملاته ... كانه ياتي من بعيد .

«فيم سرحت ؟»

«ليس شيئا ذا بال ... خواطر تاتي للانسان ...»

يستحسن ان ينتهي بسرعة ... دون ضياع للوقت ... قفزة اخرى في المياه العميقة ... عينا حنفي ترمقانه في تساؤل ... عينان غريبتان لا يستطيع ان يحدد غرابتهما ... كانه ينظر عبر غلالة خفيفة ... تحجب مشاعره ...

«ماذا قررت يا عزيز ...؟»

ماذا قررت يا عزيز ؟.. تردد السؤال في اذنيه ... كانه يرتطم بحاجز ثم يرتد ... ماذا قررت يا عزيز ...؟ ماذا تنتظرون ان اقرر ؟.. شيء كالقدر لا مفر منه ... طوال الاسبوع وهو يفكر في هذا القرار ... قرار حاسم وخطير ذلك الذي انتهى اليه .. عندما ترك كل شيء في بداية حياته لينضم الى التنظيم ... في ذلك الوقت احس وكانه مقبل على مغامرة عظيمة ... الدنيا تفتح له ابوابها واسعة ... لينطلق منها ... سيضع يده في يد الآخرين ... ويبني عالما جديدا ... عالما لا مكان فيه للظلم ... او البؤس او الكراهية ... ولكن هذه المرة ... لماذا اختفت البهجة الاولى ؟ ألانه يدرك الثمن الان ؟.. لا شك ... التجربة علمته ... ألانه يخاف ؟.. نعم ... انه يخاف ..

بات الاسبوع كله يفكر ... عاش حياته في ستة ايام كالشريط يدور ليلا ونهارا دون توقف ... في المكتب وهو يخط ملاحظاته على الاوراق ويوقع ... في الشارع وهو يقود سيارته ، او يمشي على الأقدام ... واثناء الاكل ... او عندما يطالع كتابا ، او يتصفح الجرائد ... وحتى اثناء النوم ... كانه لا ينام، وانما ينتقل من حالة اليقظة الى حالة اخرى ليست باليقظة تماما ، ولا بالنوم ... وانما شيء فيما بينهما ...

دخل في جدال مستمر مع نفسه ... حوار لا ينقطع.. قطبان يتصارعان.. حاول ان يرى بصدق تجارب السنين الماضية ... اين اصابوا ؟.. واين اخطاوا ؟.. واين اصاب هو واين اخطا ؟.. احس احيانا انه يبحث عن اسباب للهروب ... ولكن هناك اشياء تتعلق به لا بد ان يكون واضحا بالنسبة اليها ... ولكن هل هذا الوقت مناسب لموازنة الامور بهذه الدقة ... الياس ، والتردد والخوف في كل مكان ... فليحسم اذن ... وبعد ذلك سنرى ... اتخذ القرار وقلبه ثقيل كالحجر ... تبخرت البهجة الاولى الى الابد ... ترى هل تعود ؟ لماذا تبخرت ؟.. المثالية الاولى لم يعد لها وجود ... اشياء تكشفت له.. اولئك الذين سيعمل معهم ... لم تعد ثقته فيهم كما كانت ... تضحيات قدمها عن طيب خاطر في الماضي ... هل كانت كلها ضرورية ومفيدة ؟.. لا ... ليس كلها ... انه يستطيع ان يجزم الان ... ولكنهم جميعا قدموا التضحيات ...

هذا صحيح ... قدموا التضحيات دون ان يدركوا تماما اين يسيرون ...

سينضم الى التنظيم مرة اخرى ... لانه الموقف الوحيد ... الان يفكر في نفسه ..

مآسي كثيرة ... وقليل من السعادة ... نعم كان معهم ... ربما اكثر من اللازم ... انه نتاج ظروف صنعته ... يتفانى احيانا الى درجة تزول فيها شخصيته وذاته ... والتنظيم شيء عظيم وضروري ... ولا بد منه لتحقيق الثورة ... لبناء مجتمع يزول فيه كل استغلال ... ومن ينضم الى هذه المعركة ينبغي ان يخضع ذاته في كثير من الاحيان ... ولكن الى اي درجة ؟.. وبأية طريقة ؟.. هذا هو السؤال ... فاذا كنا نريد ان نأخذ من كل واحد اقصى ما يستطيع ان يعطيه ، لا بد ان يبقى كائنا مستقلا له رأيه في الاشياء ، وموقفه ، كانوا يصفون مثل هذه الآراء بالبورجوازية ... ربما على حق احيانا ... ولكن صراعا مستمرا يدور في التنظيم بين ضرورة الخضوع للنظام وضرورة الحفاظ على شخصية من ينضمون اليه ... فالحزب السياسي ... مثل الاسرة او المدرسة ، او المصنع ، او النظم الدينية او اي قوة منظمة اخرى ... خطير ... يحمل في طياته دائما ادوات لسحق الانسان وقهره .

انه لا يشعر ان وجوده في التنظيم سنين طويلة كان قد سحقه او قهره ... تعلم الكثير ، وصلب عوده ... واكتسب خبرة ... وعاش لفكرة تستحق ان يعيش لها الانسان ... ولكن الانسان يتربى منذ الصغر على ان يعبد شيئا اكبر منه ... يعبد أباه او امه ... او مدرسه ... ويعبد الله ، والقيم السائدة ويخضع لها ، وفي كل مرحلة من المراحل قد يتمرد او يثور ... ولكن في كثير من الاحيان يستبدل عباداته باخرى ... وهناك من عبدوا الماركسية والحزب وجعلوا منهما دينا جديدا ... والماركسية سلاح جبار للفكر والثورة ، ولكن لا هي ، ولا قادتها آلهة جدد ينبغي ان يحلوا محل الآلهة السابقين . والا معناها اننا استبدلنا دين السماوات بدين آخر على الارض ... بينما الاديان كلها صنع البشر ... قابلة للتغيير ، والسؤال ، والشك ...

لقد فعل كل ما فعله ... وضحى بما ضحى به عن ايمان بفكرة ... بضرورة الثورة ... بالماركسية ... لقد صنعت الماركسية منه انسانا آخر ... ولكنه يحس الان انه كان من الممكن ان يسلك طريقا آخر ... اكثر فائدة له وللآخرين.. طريقا لا يخرج عن نفس الاطار ... ولكنه مختلف على اي حال ... الان ... كل شيء قابل للتأول .. ليس هناك ما هو بديهي ... فكلمة بديهي اخطر ما يهدد تفكير الانسان ... المسلمات والبديهيات هي التي ينبغي ان تفحص قبل غيرها ... فالثورة حركة مستمرة ... لا تقف عند حد ...

تفاصيل كثيرة ... تركها لانه كان مؤمنا بقضية ... لا بد ان يعطي لها حياته ... ودخل في مرحلة جديدة ... فصل فيها كل صلاته بما كان ... واوجد صلات جديدة ..

بين يوم وليلة خرج من المياه التي يعرفها ويسبح فيها بسهولة ... الى مياه

لا يعرفها ... ابن المدنية ... وابن الناس كما يقولون ... يجوب القرى والحقول ... يجلس على المصاطب ... بين قوم غرباء بالنسبة اليه ... لا يفهمونه ولا يفهمهم ... لينتل اليهم رسالة جديدة ... يقطع المسافات ... مشيا على الاقدام ... وفي قطارات الليل ... او فوق عربات النقل ... لا يكل لحظة ... ولا يتعب ... في عمل ليس عمله ... ومجال ليس مجاله ... فمن يستطيع ان يقود الفلاحين الا من هو منهم ... ومن يستطيع ان يحرك مصنعا سوى رجل وقف امام الآلة ... وعاش حياة من يصنعون ... قالوا له اذهب.. فذهب ... لانه كان مطيعا ... متفانيا ..

كانوا يقولون له «انت ابن ناس» ... «بورجوازي» ... كره هذه الكلمة ... لانها كانت تقف كالجدار بينه وبينهم ... كم كان يتمنى أن يكون قد ولد فقيرا مثلهم ... يتفانى حتى ينفي عن نفسه هذه التهمة ... نقوده ، وملابسه وحتى غذاؤه ملك للآخرين ... لا يهم ... انه قوي يستطيع ان يستغني عن كل الاشياء ... كم من مرة استغل فيها بعضهم هذا الاحساس ... يجلس امامهم في المطاعم ويأكل العدس ، والفول ، والطعمية ، بينما زميله يلتهم اللحم والطيور ... ويدفع هو الحساب من نقوده القليلة ... فقد اصبح مثلهم لا يملك شيئا ... ويقول لنفسه ... لا يهم فقد حرم طويلا ... اما انا فقد عشت اياما مختلفة ... لم اعرف فيها الحرمان ...

يدور في الشوارع بسروال وقميص ... ويحتفظ بغيار آخر في حجرته الصغيرة على السطح ... فما زال يحب النظافة ... فتقع عينا احدهم على الملابس تتدلى من الشماعة ... يأخذها دون ان يستأذن ... «انت بورجوازي يا زميل ... عندك ملابس كثيرة» .

كان هناك زميل قزم ... له عين واحدة ... وذراع ولدت مبتورة ... قصيرة ... معوجة ... تنتهي بيد صغيرة واصابع كانياب القط ... صوته مبحوح كاصوات الغيلان التي حمل ذكراها معه من ايام الطفولة ... الجميع يعطفون عليه ... فهو سيىء الحظ ... خانته الطبيعة ، وولدته مشوها ... يحلم به احيانا حتى الان ... كان يحس بالنفور نحوه ، لا لمنظره وحده ... ولكن لانه يحس بأن هذا الانسان المشوه ، يحقد عليه ويكرهه ... كان ينفر منه ويخفي نفوره ... فهو زميل ... يناضل معهم ... وما ذنبه ان كان قد ولد هكذا ... يقابله احيانا في الشارع صدفة فيستمر في سيره كانه لم يره ... ولكن عينه الوحيدة ترى جيدا ... ينقض عليه ويوقفه ... يتحدث معه في شئون مختلفة ... ولكنه يعرف ماذا يريد ... سينتهي الحديث كما ينتهي دائما ... بتلك الجملة التي يتوقعها في ضيق ... جملة كالسهم الذي يصل الى مرماه ... «انت بورجوازي يا زميل ... معك نقود كثيرة ... اعطني منها» ... فيدس يده في جيبه ... يمس باطراف اصابعه ما بقي له من قروش ... يخرجها ويعطيها له ... فلن يصدق اذا اعتذر لقلة نقوده ...

كان يحس نفسه محاطا بالشك ... فهو «ابن ناس» ... بورجوازي ... اناني ... لا بد ان عنده اشياء كثيرة يخفيها ... هل يصدق انه يعيش هكذا... مثلنا او حتى في مستوى اقل منا ؟.. انه يأتي من طبقة موسرة ... يحمل معه افكارا ضارة بالثورة ... لا يتخلص منها الا تدريجيا ... اذن لا بد ان يحتاطوا منه ... فليجرِ هنا وهناك ... وليضحِّ ... ولكن له حدوده ، ينبغي ان يلزمها ... وستبقى عيوننا ساهرة ...

لم يكن يدرك ان الثورات تجذب اليها عناصر طيبة ... ولكنها تجذب اليها ايضا الحقودين ، والمشوهين ، والطامعين ... يريدون الانتقام ...

انه الان يدرك ... ان الذين تصرفوا معه بهذا الاسلوب ، كانوا هم انفسهم.. بورجوازيين... حرمتهم الحياة من اشياء اتيحت له... يتهمونه بالبورجوازية.. ويتطلعون هم الى مظاهرها ... عنصر من الحقد يتسلل الى كل ثورة ... امر لا مفر منه وشيء طبيعي ... المهم ان نفهمه ... ونرفع عنه القناع ... فالثورة في اساسها ينبغي ان تبنى على احسن ما في الانسان ...

نعم بورجوازيون ... يستغلون فيه عقدته ... ليبقى حيث هو ... مطيعا ... متفانيا ... يقدم نفسه في كل الاوقات ... وفي كل مكان ... حتى في الاماكن الخطرة .. حيث تتربص العيون لتنقض .. اماكن ارسله اليها عماد مرات عديدة ... وانتظر هو بعيدا في مأمن من العيون ... كانت تمر عليه الاحداث ... دون ان يلتفت اليها ... فكل ما يفعله ... واجب عليه ... ينبغي ان يتقدم للخطر حتى يحمي من هم اهم منه ... وعماد اهم منه ... قائد ... تحتاج اليه الثورة ... ولكم من الناس ضحوا من اجل الحفاظ على القادة ...

في يوم من الايام ... جمعتهما زنزانة واحدة ... ينتظران المحاكمة ... كان لا بد ان يتفقا على موقفهما امام القضاء ، وان يعدا الدفاع ... سهرا الليالي يكتبان على اوراق رفيعة ... تضيئها فتيلة مغروسة في طبق صغير من الزيت.. يدرسان كل التفاصيل ... ويعودان عليها مرة واثنتين ، وثلاثا ... حتى يتأكدا من كل شيء ... ويضحكان ... تجمعهما تلك الالفة ... وذلك الود الذي يجمع بين الذين يواجهون الخطر سويا ...

كانا قد استأجرا منزلا في بورسعيد ... وسكنا فيه ... وفي يوم القبض عليهما التقطه البوليس في بيت آخر ... في اجتماع ... فتشوا البيت ... ووجدوا فيه بعض الاوراق ... لم يستطيعوا التخلص منها ، عندما دق جرس الباب ، وفتحوا الشراعة ليجدوا الوجوه التي يعرفونها جيدا ...

انزلوهم الى السيارات المنتظرة في الشارع ... كانت اول مرة يقبض عليه فيها ... هادىء الى حد كبير ... ربما لانه لم يدرك بعد ما حدث له ، وما سيحدث ... ولكن ركبتيه ترتعشان قليلا تحت السروال ... كان يقف عند ناصية الشارع ينتظر دوره للركوب في السيارة ... علبة قاتمة رمادية اللون .. نوافذها مغطاة بالاسلاك ... اقترب منه احد الضباط ... شاب عريض الجسد ... مهذب ... كلهم يلبسون احيانا مسوح التهذيب ... القفاز الذي

يخفي الأنياب ... يرفعونه عند اللزوم ...

«ما اسمك» ... فقال «فلان» ... قال «غريبة ... غريبة صحيح ... انت قريبي اذن ... انا اسمي كذا» ... وضع يده حول ذراعه وسار به خطوات فوق الرصيف يهمس في اذنه ... «تستطيع ان تخرج من هذه القضية ... الامر بسيط ... قل انك لا صلة لك بهم ... انك كنت موجودا في المنزل لامر آخر ... ففوجئت بهم ، يقبض عليهم» .. «وما هذا الامر ؟» ... «قل انك كنت تعاشر زوجة صاحب البيت» ... لمعت عيناه في الضوء المنعكس من الرصيف ، باهتا في بداية الليل ... عينان كالقط فيهما شوائب صفيرة تسبح في المقلتين ... هز راسه رافضا في صمت ... ليس من هذا النوع ...

لم يكن عماد معهم ... كانوا يراقبونهم منذ مدة ... انتظروه عند المنزل الذي استاجراه سويا ... وانقضوا عليه في الظلام ... استولوا على اوراق كثيرة ... وآلة كتابة ... ولكنهم لم يعثروا على شيء بخط يدهما ...

هكذا جمعتهما الزنزانة ... حجرة صغيرة ينام فيها خمسة اشخاص على الارض ... وجردل للمياه ... وجردل آخر للفضلات ... كانا ينامان متجاورين ... يضحكان ... ويتحدثان الى ساعة متاخرة من الليل ... ويتتبعان اصابع القمر الفضية تتسلل احيانا خلال القضبان ... يحلمان بما مضى ... وبايام افضل ستاتي ...

لم يكن موقفهما في القضية سيئا ... فقد استاجرا المنزل باسمين مستعارين... ولم يتعرف عليهما صاحب المنزل... رغم كل ضغوط البوليس.. صدفة غريبة لم يعرفا سببها ابدا ... فهل كانت ذاكرته ضعيفة ؟ انه لم يراهما الا مرة واحدة ... هل اراد ان يساعدهما من طرف خفي ؟ ام هل اعتقد انه بهذه الوسيلة سيدرا عن نفسه مخاطر مبهمة ؟.. لقد كان رجلا عجوزا ، اميا ، لا يعرف القراءة او الكتابة ... صاحب محل للخضروات ... عاش ايامه في سلام ... ما بين بيته ، ودكة يجلس عليها امام المحل ... الحي كله يعرفه «عم رمضان» .

الان يتذكر حديثهما في تلك الليلة ... انتهيا من اعداد كل شيء ... فغدا تبدا المحاكمة ... العنبر هادىء لا يتردد فيه الا صوت الانفاس ... وسعال من حين لآخر ... الشعلة الصغيرة تنعكس على وجهيهما ... امواج صغيرة من الظلام والنور ... كالمسرحية الغامضة ... يجلسان القرفصاء ... ويتحدثان في همس حتى لا يوقظا النائمين في نومهم يحلمون ...

عماد ... يعرفه اكثر مما كان يعرفه عند اول لقاء . في شقته الصغيرة خلف الجامعة ... حيث كان يسكن مع امه ... يعرفه اكثر ولكن ليس تماما ... شيء فيه غامض على الدوام ... كأنه يحمل داخله شخصا آخر ... وربما لذلك اصيب بالجنون فيما بعد ... بانفصام الشخصية ... الان يفكر في شيء ... عندما يفكر بعمق يبدو وجهه كالقناع ... وتغيب عيناه عن الدنيا ... كأنه ادار

نظرتهما الى الداخل . انه يدبر شيئا في الخفاء ... نطق فجاة :
«يا عزيز» .
كان عزيز منهمكا في صنع لفافة من التبغ ... اشعلها من الفتيل الصغير فرقص في الظلام ... التفت اليه ...
«سنذهب باكرا الى المحاكمة وهناك نقطة لم نتناقش فيها» .
«ما هي ...؟»
«هناك فرصة لان يخرج احدنا براءة ...»
انقبض قلبه ...
«ولماذا لا نخرج نحن الاثنين ...؟»
«مستحيل ... والاوراق التي ضبطت في المنزل ...؟»
«ليس فيها شيء بخط يدنا ...»
«هذا صحيح ... ولكنها اوراق ...»
صمت قليلا ثم استطرد :
«وستحملها نحن الاثنين ...»
«ولكننا قلنا ان هذا البيت ليس بيتنا ... العقد ليس باسمينا ... وصاحب البيت لم يتعرف علينا ...»
«مع ذلك فقد يحكم علينا نحن الاثنين ...»
«ربما ... ولكن ماذا تريد ...؟»
«ان نسعى لكي يخرج احدنا على الاقل» .
«كيف ؟»
«بأن يعترف احدنا بالاوراق ... انها ملكه جميعا ... فيخرج الآخر ...»
تردد قبل ان يسال السؤال ... سؤال حاسم ... تتوقف عليه اشياء كثيرة ...
«ومن يعترف بها ؟... فالذي يعترف سيحكم على نفسه ...؟»
حملق فيه عماد بهدوء :
«ما رأيك انت ؟»
«بديهي اذا كان لا بد من الاختيار ... فينبغي ان تخرج انت ... لانك في القيادة اما انا فدوري أقل ...»
ابتسم عماد ... كادت الشعلة تنطفىء فاختفى وجهه في الظلام ... ثم ظهر ... من جديد ... وهج أحمر ينعكس عليه ... السنة النار تلعب فوق ملامحه ... العينان تبرقان كنقطتين من الضوء ... يتحولان الى محجرين من السواد ... يظهر انفه ... ويختفي ... وطرف الاذن يلقي انعكاسه على الجدار كانه آلة تسمع ضخمة ... ثم يتحول اجزاء مبعثرة .. وجه غريب ... قناع ملون متغير ... ولكنه جامد دائما ... لا حركة فيه .. الا حركة الاجزاء ... خالية من الدفء ... ميتة .. تمثال من الحجر ... شيطان يلعب

بالضوء والظلام ...

«اعتقد ان هذا هو الموقف السليم» ..

الكلام يبدو له منطقيا ... ولكنه أحس بالتمرد فجأة ... بالكراهية ... حملق في وجه عماد ... الدماء تصعد الى رأسه ... مزيج من الغضب والخجل من نفسه ... لكن كيف يطلب منه ان يسلم نفسه هكذا ؟... ان ينتحر ...؟ ومع ذلك اليس هذا هو الموقف السليم !.. ان يحمي القادة قبل الآخرين ؟.. تجذبه احاسيس متناقضة ... وتمزقه ... قال في عصبية :

«فلنجرب خطنا سويا يا اخي ... فمن يعلم ...»

صمت عماد ... كأنه لم يعد يريد ان يتابع الحديث ... شيء من الغضب في وجهه ... واعراض ... عتاب مستتر ... كأنه يتركه يعيد التفكير ... احس عزيز بوخز الضمير ، ولكنه سكت ... جلسا صامتين ... الجو ثقيل.. زالت الالفة القديمة ... وتبخر الود .. في لحظة ... زحف الى ركنه المعتاد ولف جسده في الاغطية ... وظل طوال الليل يحملق في الظلام ...

***

انهما يجلسان في القطار ... وجه ابيه يشرق امامه ... وعمه عمران يشد على شاربه ويبرمه ، ويضحك بملء شفتيه ... وعماد يطل من النافذة على الحقول ...

«عماد مصطفى عبد العزيز ... براءة ...»

«الدكتور عزيز عمران براءة ...»

«وحيث انه لم يمكن الاستدلال على ملكية الاوراق ... لان العقد الذي ضبط مع الدكتور عزيز عمران ليس باسم احدهما ... وحتى اذا اعتبرنا انهما استأجرا المنزل ... فان ملكية الاوراق تعتبر على الشارع ، ولا يمكن تحديد من منهما يمالكها ... حيث ان كلا منهما قد انكر صلته بها» ...

نعم براءة ... خرجا من المحكمة تحت حراسة البوليس فما زال ينتظرهما احتمال الاعتقال ... سمح لهما بأن يتناولا عشاءهما في مطعم تحت عيون الحراس ... كباب وكفتة وسلطة وطحينة ... كل يا عماد ... لا تقلق ... سنخرج ... الحظ معنا اليوم ...

طارت البرقيات ... تدخل ابوه وقال للضابط الغارق كشوال البطاطس في مقعده ... يمسح العرق من فوق جبينه بالمنديل ... ويواصل احاديث لا تنتهي في التليفونات الاربعة الراقدة الى جواره :

«اريد ان آخذهما معي» .

لم يكن ابوه ليقدم وحده على التدخل من اجل عماد ... فما شأنه وشأن عماد ... فليفكر كل في نفسه ... تنهد الرجل ... لم يقل لابنه «اخرج انت هذا ... هو المهم ... مالك وما للآخرين»... انه يخجل من ابنه بعض الشيء..

يحترمه ويحبه ... وقد طلب منه ان يتدخل ..

جلسوا في القطار .. مبروك يا عماد ... مبروك يا عزيز ... خذ سيجارة ... خذ سوداني ... تشرب حاجة صاقعة .. سعادة عارمة استولت عليهما ... يقهقهان بصوت يملأ عربة القطار ... ويطل عليهما الناس بفضول .. العواطف منسابة ، والحب يحلق في الجو ... كلنا اخوة في السعادة ... والسعادة تنطق في الوجوه ... وفي حركة الايادي ... والابتسام ... خذ يا عماد كازوزة ...

لماذا يبدو دائما غير مستريح ... متوترا ... قلقا ... كأنه عاجز على أن يترك نفسه تنساب دون رباط او قيود ... كل شيء انتهى الان ... نسي عزيز احزان الشهور الستة التي قضاها خلف القضبان ... القبح ... والذل ... والبق ... والقمل ... وجردل الفضلات تفوح رائحته في الحجرة الصغيرة.. نسي آخر حديث لهما ... وتبخرت الكراهية ...

نعم نسي كل هذا ... ولكنه تذكره فيما بعد ... عندما نضج وكبر ... وخبر الحياة ... ومعنى النضال ...

سمع صوت حنفي يردد من جديد :

«ماذا قررت يا عزيز ؟»

التفت اليه ... صمت لحظة ، عائدا بذهنه من حيث كان ... تنهد وقال :

«انا معكم» .

***

استقروا في العنبر الكبير ... في حجرة رقم ١٤ ... خصصت لهم حتى يبقوا بمعزل عن الآخرين ... وليمان طره ليس كباقي السجون ... فيه عدد قليل من مرتكبي الجرائم الخطيرة ... مخدرات ... وسرقة بالسلاح ... او سوابق ... انتهوا الى هنا لكثرة الحوادث التي ارتكبوها ... ولكن اغلب المذنبين كما يسمونهم ، فلاحين من قلب الريف ... من وجه بحري ، ومن الصعيد ... جاؤا في حوادث قتل ... تتعلق بالشرف ... او الاخذ بالثار .. تقاليد بالية .. ولكنهم مع ذلك اناس اشداء ... لهم كرامتهم ... في مشيتهم اعتداد بالنفس ... وفي سلوكهم شهامة ... يحاول الليمان ان يقضي عليها .. ولكنه يفشل ... او يفشل في ان يدمرها تماما ... نخوة تبقى مشتعلة في اعماقهم ... خلق من يفلحون الحقول ... اجسامهم مربعة تسير بثبات فوق الارض ... وجوه عظامها قوية ، تنطق بالود والسذاجة احيانا ... وعيون سمر تطل عليك في هدوء ... يجلس الرجل امامك مستسلما كالطفل الكبير ... فتندهش كيف ضغط اصبعه على الزناد ...

ولكن مع مرور الايام تلمس ما يكمن في الاعماق ... تلمس الغضب الجبار..

يرقد كالوحش النائم ... مستانس ... اليف ... في القفص ... مضغوط .. مقهور .. منذ آلاف السنين ... منذ ان ملك الاقوياء ارض النيل السمراء ... وحولوا الآخرين الى عبيد ... فرضوا عليهم سلطانهم ... وآلهتهم .. ملكوا العقول بقيمهم الزائفة ... والاجسام بأغلالهم وشرطتهم ... وسجونهم .. فبات الرجال والنساء يدورون بين الحقول وبيوت الطين ... كالجاموسة مربوطة في الساقية ، معصوبة العينين ...

غضب يكمن في الاعماق ... كالبركان المستكين الى حين ... ينتظر لحظة الانفجار ... يضغط الاصبع على الزناد لينطلق الرصاص ... نحو صدور من هم مثلهم تماما ... يمزقها ... يسيل منها الدماء ...

الرجل منهم يحيا ايامه وهو يبحث عن سبب للهوان ... القدر يطارده دون رحمة ... قوى لا يفهمها تتحكم فيه ، وتعتصره ، عرقه ، وجهده ، وحياته ... هو وزوجته واطفاله ملك للآخرين ... انه كالقشة في مهب الريح ... لا يعرف ماذا سيصيبه في الغد ... يتشبث بالارض فتنزع منه ... ويتشبث بالحياة .. فياتيه الموت من حيث لا يدري ... يسقط على كوخه ليخطف منه طفلا ، او زوجة ، او بهيمة . وان مات هو لا يهم ... انه لن يحس ... الموت خلاص .. يخزن غلاله لياكل خبزا جافا ... فياتيه الدائن او التاجر او صاحب الارض ، يطلب حقه ... والحق شيء مقدس ... نظام للكون ... ولد فيه ولم يعرف غيره ... وساعة بعد ساعة ... ويوما بعد يوم ... وسنة بعد سنة ... يتراكم اليأس ... ويتراكم الغضب ... فيضغط الاصبع على الزناد ... وتسيل الدماء على الارض ...

قليل منهم من يدرك الحقيقة ... ساعة بعد ساعة ... ويوما بعد يوم ... وسنة بعد سنة ... يتراكم الياس ويتراكم الغضب ... ثم تأتيه في يوم من الايام ... في لحظة من لحظات العمر الطويل كقبس من النور ... كالوحي .. كالاكتشاف ... تتضح الامور كلها ... فيحمل الرجل بندقيته ... ويخرج من الكوخ في وضح النهار ... سائرا فوق الأقدام ... يصوب الماسورة بعناية .. ويضغط على الزناد ... فتسيل الدماء القاتمة فوق الارض ...

قليل منهم من يعرف اين يصب كراهيته ... ولكن اذا عرفوا ...

الحجرة رقم ١٤ طويلة ... الباب داكن سميك ... عندما يفتح تصرخ المفاتيح ... الا عندما يفتحونه في صمت ... لينقضوا عليهم في الفجر ... تفتيش ... او حركة غدر ... دبروها وهم يجلسون في مكاتبهم ... يحتسون فناجين القهوة المحوجة ... ويدخنون لفائف التبغ ... وفي الباب ثقب مستدير ... عين تراقب في الخفاء ... لها جفن معدي... يرتفع في سكون.. لتطل عليهم عين اخرى ... من خلال العين ... عين تدرس ... في حرص بارد ، خاطف ... يحسون بالجفن يرتفع ... هكذا في لحظة ... كيف لا يدرون ... غريزة الحيوان المحاصر في قفص ... غريزة المسجون ... يتصرفون كان شيئا لم يحدث ... نظراتهم تلتقي .. وعضلات الجسد تصبح مشدودة..

والقلب يدق خلف الضلوع ... ولكنهم مستعدون لكل الاحتمالات ... مدربون..
صلب القضبان في أحشائهم مصبوب ...

تمتد اعلى الباب قضبان ... مربعات صغيرة متساوية ... تنقل اليهم اصوات العنبر الكبير ... وانفاسه حينما ينام ... ووقع احذية الحراس دبيب فوق البلاط ... او زحف خفيف عندما يتلصصون ... وعلى الجدار بجوار الباب ... عشرة مسامير غليظة دقت على مسافات متساوية تتدلى منها القيود الحديدية ... فقد تعلموا كيف يخلعونها ساعة النوم ... تشبه اللجام ، وتحول الحجرة الى اصطبل للخيول ...

الجدار المقابل فيه نوافذ اربع ... نفس المربعات ... تقطع السماء الصافية ... تشوه زرقتها باصابعها السود ... ولكنها نوافذ على اية حال ... تدخل منها اشعة الشمس ... واضواء القمر المكتمل عند منتصف الشهر ... ورذاذ المطر ... وشبورة الصباح ... ونداءات الطيور ... سلوى احيانا ... وغصة حزن احيانا اخرى ... عيونهم تنجذب نحوها دائما ... في لحظة تامل ... او صدفة ، تذكرهم بالكون الواسع الذي ما زال يدور ..

عزلوا الركن الايمن من الحجر بغطاء داكن يتدلى من حبل ... طرف مربوط في احد المسامير ... والطرف الآخر ينتهي عند اول نافذة على اليمين ... مساحة صغيرة يستخدمونها لطبخ الطعام الذي يحصلون عليه من السجن ... قليل من البصل والزيت يصلح العدس ، والفول ... وقليل من خضروات المزرعة يبتاعونها من فرق المسجونين التي تعمل في الحقول ... اولئك الذين قضوا خمس سنوات في الجبل ... ورفعت عنهم القيود ... ويوم الجمعة حساء ولحوم ... عازل يبعد عنهم رائحة الكيروسين ... والدخان ، وحرارة الموقد في الصيف ... وعند الركن الايمن موقد صامت ادخلوه خلسة ... مدفون في مخبأ خلف الجدار ... قطعة من الكارتون تخفي الثقب الواسع ، وتثبت بقليل من الجبس الابيض يعجن بالماء ... عندما يجف يعود الجدار الى حالته الاولى ...

في الركن الايسر مخبأ آخر تحت الارض ... قرص من الاسفلت يرفع ، ويعاد مكانه ... وفي الهوة الواسعة المحفورة مكتبة ، وورق واقلام ... ودخان ... وشاي ... ومذكرات ... وبعض كتب محو الأمية فيها صور للطيور والحيوانات وفلاحين يفلحون الارض ، .. وتلامذة يلعبون في المدرسة ، وامراة تغسل الملابس ، وكلمات ... بلبل ... قط ... كلب ... صياد .. زرع .. حرث ... كرة ... ماء ... صابون ...

عندما وصلوا الى الليمان .. قرروا الا يبدوا اية حركة تثير الشبهات او تلفت اليهم الانظار ... فليدرسوا الوضع اولا ، وليرسموا خطواتهم بعناية ... ينبغي ان تكسر العزلة بينهم وبين الآخرين ... هؤلاء من القرى ... ليسوا مجرمين بالمعنى المفهوم ... لهم مشاكلهم ... واحتياجاتهم ... ومشاعر الانسان في كل

مكان ... العزلة تجعلهم بلا حماية ... عاجزين عن احداث اي تغيير ... ضعافا في مواجهة القهر ... هم والآخرون ... ثم لهم فكر ... يحملونه معهم اينما ذهبوا ... شيء ملتصق بهم ... جزء منهم ... يتنفسونه كالهواء ... ويعيشونه ... كما يعيش الناس حياتهم ... واحلامهم ...

الجواسيس منبثون في كل مكان ... يثيرون ضدهم الشك والعداء ... «ملحدون» ... «خطرون» ... «من يتصل بهم ستصيبه أبلغ الاضرار» ... «لا شأن لنا بهم» ... «هم في حالهم ... ونحن في حالنا ... كفانا مصائب الليمان» ...

والجواسيس اول من سيأتون ... يشمشمون بأنوفهم ككلاب الصيد ... عيونهم القلقة تدور في الحجرة ... تبحث عما يختفي تحت السطح ... السنتهم تنطلق زلقة معسولة ... يعرضون الخدمات ... ويقصون الحكايات ... عن مواقفهم مع «المذنبين» .. (سقطة لسان عفوية ، كومضة النور الاحمر) ، ودفاعهم عنهم ... والاضطهاد الذي وقع عليهم ... احذر ممن يتحدثون بطلاقة عن انفسهم ومعاركهم ... لم يعد هذا الكلام يخيل عليهم ... دفعوا ثمنه غاليا عدة مرات ...

الجواسيس يأتون في الاول ... ولكن ليس دائما ... كن مشكاكا ولكن في حدود ... فالعين البصيرة ينبغي ان تفرز ... اذا بالغت في الشك فلن تفعل شيئا ... لن ترى التبر من تحت التراب ... واذا فقدت حرصك ستقع ... وعلى اية حال ... لماذا يخافون ؟ انهم في السجن فعلا ... وليس بعد السجن سوى سجن آخر ... خير ان يبقوا هنا أطول مدة ممكنة ... يحيون كأنهم في قرية كبيرة ... على أطراف القاهرة ... ولكن اذا كان لا بد من الرحيل ... فانهم سيرحلون ...

هكذا قضوا شهرهم الاول ... يدرسون الناس ... والليمان ، والنظام .. ومواطن الخطر ... والمخارج والثغرات ... كل نظام للقهر له مخارجه وثغراته .. لانه مبني على الفساد ... وعلى كراهية الانسان ... فاذا بحثت عن الانسان .. اصبحت له آلاف العيون ... والعقول ... والاجساد ... قوة جديدة تواجه بها نظام يحكم بالخوف ، والارهاب وشراء الذمم القليلة ...

يوم جمعة تقام الصلاة في العنبر الكبير ... يهبط الف وخمسمائة مسجون الى الدور الاول ... ملابس زرق نظيفة غسلوها على الارض في دورات المياه بقطعة من صابون السجن الاصفر ... وطووها تحت الاغطية ، وناموا فوقها حتى تصبح كالمكواة ... وعمم ناصعة البياض صنعوها بايديهم ... يفرشون الاغطية على الارض ... ويجلسون فوقها القرفصاء ... يتطلعون الى الإمام يقف فوق منبر خشبي عند آخر العنبر ... بتلك العيون السمر . نظراتهم حادة وحركاتهم بطيئة يسيطر عليها الوقار ... يسملون .. ويمصمصون بشفاههم تحت الشوارب الكثة ... علامة الرضى ... ويرتفع النداء الرهيب «الله اكبر» كالرعد المكتوم ... ويستمعون في نشوة صامتة الى ذلك الصوت الأجش يدعوهم الى

الصلاة والتقوى ... ويحدثهم عن المذاهب في الوضوء ... يعدهم بجنات تجري تحتها الانهار اذا اطاعوا اولي الامر فيهم ... ويهددهم بلهيب الجحيم اذا تمردوا ... كأن الجحيم الذي هم فيه لا يكفيهم ... فيبسملون ويمصمصون علامة على الرضى... ويرتفع النداء الرهيب من آلاف الاصوات كالرعد المكتوم..

ولكن يوم الجمعة ... يوم الراحة ايضا ... لا جبل ... ولا مزورعة .. ولا ورشة ولا مغسل ... يوم يتزاور فيه الناس ... يشربون الشاي ... يخرجون علب التبغ من جيب السروال ... ويصنعون اللفائف باصابع سريعة مدربة ... ويمرون بلسانهم على الورق ... ويشعلونها «بالقداحة» ... ينقلون ساقا من اسفل الى اعلى ... ويستقرون في جلساتهم ... ثم يتحدثون بهدوء اهل القرى ... عن شئونهم ودنياهم ، وآخرتهم ... عن البيوت والحقول التي تركوها ... عن اخبار السجن والقضايا والاحكام ... عن تنقلات الضباط ، ورحيل الى مكان آخر ... عن السنين الباقية لهم ، واحتمالات العفو ... عن كل ما يشغل بالهم ... كانهم في جلسة على المصطبة ... ونسيم الصيف في الامسية يهب عليهم ... ويعبث بلهيب الكلوب المشتعل ... تنبعث انفاسه الهامسة ... ويطن حوله ازيز الناموس والفراش الاعمى ...

والرجال في الليمان يجتمعون حسب مديرياتهم ... حسب صلات الموطن والقرى .. نهؤلاء من المنوفية ... وهؤلاء من اسيوط ... وهؤلاء من الشرقية.. وبين كل مجموعة صلات تضامن ... يساعدون بعضهم ... ويقدمون العون لقليلي الحظ والمال ... ويحلون مشاكلهم سويا ... ويرسلون الخطابات ، وطلبات النقود مع احد الحراس سويا ... فان كانوا من المنوفية ارسلوها مع حارس منوفي ... وان كانوا من اسيوط ارسلوها مع احد الاسايطة ... وان كانوا من الشرقية ارسلوها مع احد الشراقوة ... هكذا تمتد هذه المجموعات الى داخل ادارة السجن نفسها ... ويشارك فيها الضباط ... يستغلونها لمعرفة الاخبار ... ولتأكيد سيطرتهم وبناء مركزهم ... او حتى السرقة ... فمن بين الضباط لصوص ... يتاجرون في أقوات المساجين .. وهم يستغلونها ايضا للتفرقة بين المذنبين ... فكيف يمكن التحكم في هذا المارد الجبار ... الا بتقسيم صفوفهم ؟... وكم من المعارك قامت في السجن بين المحافظات المختلفة ... لتنتهي بالمذابح وسيل من الدماء ...

ولكل من هذه المجموعات قياداتها ... فهم يعرفون بعضهم جيدا ... تاريخ كل رجل ، وتفاصيل حياته كالكتاب المفتوح ... وهم لا يحتاجون الى الانتخابات ... بل يتصدرهم رجل ، او عدد قليل من الرجال ، بنوع من الاتفاق الضمني ... والقادة يستشارون في الامور ... ويحلون مشاكلهم.. ويصدرون اليهم التوجيهات بذلك الاسلوب الريفي الملتوي الذي يعتمد على الامثال والرموز.. ويحمل حكمة السنين وتجاربها ... فيطيعون ... وهذه القيادات من رجال لهم نفوذ ... مالهم كثير ... او مدتهم في الليمان طويلة... او شجاعتهم، وبطشهم.

وشدة مراسهم صفات معروفة ...

هذا هو التنظيم الذي يحكم حياة الليمان ... فاذا اردت ان تعرف الناس ، وتفرزهم بدقة لا بد ان تمر خلاله ... واذا اردت ان تنفذ امرا ما ... لا سبيل امامك سوى هذا الجهاز ... جهاز يحمل في طياته بذورا خطيرة ، لانه مبني على العصبية ... ولكنه فعال ... واذا اردت ان تطمئن ابحث عن زعماء المحافظات.. فنادرا ما يكونون من الجواسيس ... هناك قانون غير مكتوب يحكم هذه المسائل ... قانون الشهامة ...

احتاطوا ممن جاؤوهم اول الامر ... فهم لا يعرفونهم... فاستمعوا اليهم.. وتحدثوا معهم ... ودعوهم على أكواب الشاي ، ولفائف التبغ ... وودعوهم حتى الباب ... بذلك الذوق الريفي المعتاد ... فانت لا تظهر للجاسوس انك تعرفه ... ينبغي ان تتعلم كيف تخفي الشك ... وتكتم مشاعرك ... ثم من يدري ، ربما تكون مخطئا ...

وكانوا عددا قليلا ... لا يتغيرون ... يحضرون كل يوم جمعة... ويجلسون بعض الوقت ... تحس انهم يعرفون بعضهم ... انهم من نفس النوع ... فيهم لزوجة ، ثرثارون ... يدّعون المعرفة ... يتحدثون عن باقي «المذنبين» بنوع من الازدراء ... ويفخرون بمعارفهم من الضباط ... ويسألون عن الشيوعية وماذا تعني ... ويوافقونك على ما تقول ... ويهزون رؤوسهم ... ومع ذلك تحس انهم منافقون ... يضمرون لك شيئا .

احسوا ان باقي الرجال في العنبر يتبعونهم من بعيد ، وينتظرون ... الان يذهبون كل يوم الى ورشة التماثيل .. عشرة رجال في مقدمة الموكب ... المعركة الاولى انتصروا فيها ... كانت بمثابة جس النبض ... أدركوا من خلالها ان هذا الصرح الضخم المخيف ... الذي يسمونه الليمان ... هذا السجن الذي يرن اسمه بين السجون ... يمكنهم فيه ان يتحدّوا النظام الذي أقيم عليه ، وينجحوا ... وادركوا ايضا ان هناك عاملين مهمين في صفهم... نوع المسجونين الذين قادهم القدر لينتهوا خلف جدرانه ... (فبالنسبة الى هؤلاء ليس الامر سوى قدر مكتوب ساقتهم اليه الظروف) وثانيهما طول مدة الاحكام ... فطول المدة يغرس اليأس في النفوس ... واليأس من الحياة يولد الشجاعة في بعض الاحيان ... كالذين ينتحرون ... فما عساه ان يخسر الانسان اذا كان مفروضا ان يقضي حياته هنا ؟

لذلك سلمت الادارة سريعا بطلباتهم ... ووجدت في ورشة التماثيل مخرجا يحفظ ماء وجهها ... فهم يخرجون يوميا الى الجبل ولكنهم خطرون ينبغي ان يبقوا وحدهم في مكان خاص ... وان تطفأ شعلة التمرد سريعا قبل ان تنتشر الى الآخرين ... وهم لا يخشون العشرة رجال ... قدر ما يخشون تأثيرهم على الآخرين ...

ولكن قصة ما حدث انتشرت بالتدريج ... فلا شيء يمكن اخفاؤه في الليمان ... انها كالقرية الصغيرة بالضبط ... دارت الاخبار بين مصدق

ومعارض ... فاشتد الجدل واتسعت الدائرة ... بالغ فيها البعض ... فاهل القرى يبالغون ... ويحبون الاساطير ... اكد البعض انهم كانوا شهود عيان .. لحوهم يقفون بثبات في مواجهة البنادق المرفوعة ... وعارض بعضهم بشدة... فأصبحوا موضع حديث واسع النطاق ... يدور بعيدا عنهم ... ولكنهم يسمعون اصداءه ... ويقراونه في العيون ...

ولكن رغم ذلك ... لم يزد عدد المترددين على حجرتهم ... ولم تاخذ القدم عليها بعد ... فهؤلاء الرجال حريصون ... يجسون «خيمهم» كما يقولون ، مرة واثنتين وثلاثا ... قبل ان يتخذوا الخطوة الاولى ...

وقف عزيز في الضوء الشاحب والتفت الى عماد ...

«اجاء الميعاد حقا ؟... ما زلت ارغب في النوم ... فقد سهرنا بالامس الى ساعة متاخرة» .

نظر عماد الى معصمه ... فقد حصلوا الان على ساعة ... وعماد يحب الساعات ... يحب اقتناء الاشياء ... يخفيها بالنهار في مكان خاص ، ويخرجها بالليل ...

«نعم الساعة الخامسة والنصف» .

توجه الى جردل المياه ... بلل وجهه ومسحه بمنديله حتى يفيق ...

في الساعة السابعة كان «الجبل» متجمعا على الطريق ... صفوف من الرجال ... يجلسون القرفصاء ... بحر من الرؤوس ... توجه الشاويش النحيل الاسمر ... جسد منحوت في الجرانيت ... قطعة متحركة من القوة التي لا تلين ... وعينان باردتان تطلان تحت قماش القبعة ... ادى التحية للمامور ... رابض بكل ثقله كعادته فوق الحصان ... حصان هادىء وديع ... حتى لا يلقي به على الارض امام المسجونين ... فلم يعد شابا ... وقبضة اصابعه على اللجام قد تفلت من كثرة الخمر الذي يحتسيه ليلا ... العينان منتفختان في الوجه الغليظ ...

«تمام يا فندم ... الف وخمسمائة واربعة واربعون» .

«طلع الجبل يا شاويش ...»

الغابة تصعد من الارض فجاة ، وتسير ... صوت البروجي ، والصفافير والقيود ، وآلاف الأقدام تزحف فوق الرمال ... وعشرة رجال يسيرون في المقدمة ... منظرهم غريب ... اجسام نحيلة ... ووجوه ليست كباقي الوجوه ... وعوينات ...

لمعت عينا حلمي ببريق مفاجىء وقال في همس :

«امشوا بالخطوة المنتظمة يا جدعان ...»

التفتوا اليه بشيء من الاندهاش ...

اعترض نور ... شاعر يكره العسكرية ... ويحب الجدل ...

«لم يعد ينقصنا الا الخطوة العسكرية ... نساق كالقطيع يوما وراء يوم..

والزميل حلمي يريد منا ان نسير بالخطوة العسكرية» ...
وحي الخاطر ... ادركوا فجاة ما يرمي اليه ... قال :
«واحد اثنان ... واحد اثنان ...»
ساروا مسافة دون ان يلتفت اليهم احد ... ولكن بالتدريج اخذت الصفوف السائرة وراءهم مباشرة ، تنظم خطواتها على وقع اقدامهم ... «واحد اثنان» . علا صوت حلمي في الفضاء ... كالنداء ... واحد اثنان .. الوقع المنتظم ينتقل من صف الى صف ... عبر الطابور الطويل ... الأقدام تدك الارض في وقت واحد ... والقيود تصدر رنينا انتظم كابواق الانذار ... واحد اثنان ... صوت كالطبل يرن فوق الارض ... الايادي والأذرع تروح وتجيء في خط واحد ... الاكتاف تفقد انحناءها بالتدريج ... الرؤوس ترتفع الى اعلى ... والعيون لم تعد مثبتة على الطريق ... تنظر امامها ... بعيدا عند الافق ... وفي نظرتها تصميم جديد ... الآن يتحرك الجبل كرجل واحد ... بارادة واحدة ، جبارة ، تخيف ... وقع آلاف الأقدام لم يعد مبعثرا متفرقا ... صوت واحد كالطبل .. كالانذار .. نظر الشاويش وراءه باندهاش ... نفش صدره كالديك ؛ وسار يلوح بعصاته ...
«واحد اثنان» دار دورة كاملة واخذ يسير بظهره ... لمح الفريق الصغير يمشي في المقدمة فبرقت عيناه ... يتذكر الان ايام العسكرية ... ايام الشباب ... كانت اياما جميلة ... «شارب يقف عليه الصقر» وشريط احمر وهاج فوق الذراع ... علا صوته في الفضاء نداء قويا ...
«حاذي على الشيوعية ... الجبل ... واحد اثنان ... واحد اثنان» ...
همس حلمي ... صوته يرتعش من الانفعال :
«انا نعلمكم من حيث لا تدرون ... العيون مثبتة في الافق البعيد ... والاجسام منتصبة كجذوع الشجر المتين ... وقع الأقدام كالطبل فوق الرمال.. وصليل القيود نداء كالتحدي ... قوة جبارة احست بقوتها ... ارادة واحدة لم تعد كالقطيع ...
لم يعد «الجبل» كما كان ... ولد فيه بداية الادراك لمعنى التنظيم ...

★★★

منذ ذلك اليوم بداوا يدخلون عليهم بالتدريج ... بعد صلاة الجمعة ... ثم قبله ... فانت لا تزور الناس مبكرا ... الا اذا توطدت الصلة ... ونشا بينكم الود والعشم ... يدلفون في حرص اول الامر ... كانهم يريدون الا تلاحظهم العيون ... او ربما لانهم يدخلون على مكان لم يالفوه ... ويسكنه اناس سمعوا عنهم الكثير ... كائنات تنتمي الى عالم آخر ... يدخلون وهم يقدمون خطوة ويؤخرونها ... ليس بسبب الخوف اساسا ... ولكن بسبب الاحساس بالمجهول ... وذلك الحياء الذي يبدو غريبا ... في رجال اشداء دخلوا عرين

الاسد من قبل ... حملوا البنادق ... وتحدوا السلطة ... ووضعوا حياتهم على كف القدر ...

وجوه جديدة لم يروها من قبل اخذت تملأ حجرتهم ... عشرات من الناس، يتزايدون باضطراد ... فالذين يسكنون الحجرة رقم ١٤ مثقفون ... اتيح لهم ما لم يتح للآخرين ... علوم درسوها في الجامعة ... واشياء اخرى اتقنوها في الحياة ... حتى العمال فيهم مختلفون ... يقرأون ... ويدرسون اللغات .. خاضوا معارك مع نقاباتهم ... وادركوا ان المعرفة سلاح ..

وهؤلاء الرجال اشداء صلبون ... ولكنهم احيانا كالاطفال العزل ... أقل الاشياء تعجزهم ... كتابة خطاب للاهل والاصدقاء ، او عريضة يطلبون فيها حقهم او يحتجون فيها على ظلم ... حمى تشلهم عن الحركة ، فيرقدون تحت الاغطية ويرتعشون ... اتفاق مع محام ليدافع عنهم ... انهم دائما ضحايا يسلبون ... ورغبة عارمة في المعرفة كالعطش ، فقد تقلبوا طويلا بين صحاري الجهل ... وتبادل انساني بسيط يحتاج اليه اولئك الذين كانت حياتهم دائما ماساة ... ثم انتهت في الليمان ...

هكذا اصبحت الحجرة ١٤ مركزا يجذب كل المساجين ... بداوا ياتون يوم الجمعة عندما يرتاحون من عناء الاسبوع ... ثم اخذوا يحضرون في جميع الايام ... يخطفون اقدامهم بسرعة الى الدور الاول ويدخلون ... اصوات عميقة تلقي السلام في وقار ... «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» «تفضلوا» فيجلسون ... في الايام الاولى لم يات قادتهم ... انهم رجال لا ينتقلون بسهولة ... الناس تاتي اليهم ، ولكنهم لا يذهبون ... ارسلوا وكلاءهم ... واعوانهم ... ثم بالتدريج اخذوا ياتون ... بيومي من الشرقية ... جسد فارع الطول ، وعنق قوي يحمل راسه باعتزاز ... فعقله ثمين ... عمة بيضاء كاللبن الحليب ... وعينان في خضار الحقول ...

الحاج مصطفى من المنوفية ... رجل يبدو كشيخ النصر ... اشيب الشعر ... ثقيل الخطو والحركة ... كان كل شيء عنده مدبر ... محكوم .. عيناه الصغيرتان تبرقان بذكاء ماكر ... يبتسم ولكنه لا يضحك ابدا ... وآخرون ... عشرات من الآخرين ... فتحي ، وابراهيم ذلك الثاني الذي لا يفترق ... احدهما طويل ، والآخر قصير ... احدهما قوة وإقدام لا يلين ... والآخر العقل المفكر ... هادىء ، قليل الكلام ... يسمع ، ويتابع بعينين لا تطرفان ... قضيا ايامهما في التاديب تحت الحراسة المشددة ... فقد حاولا الهروب عدة مرات ... صنعا منشارا في ورشة الليمان ... ومفتاحا للباب من فرشاة للاسنان ... ولوحتين من الخشب ... سطحهما أملس كالحرير ... ستة شهور من الصبر والتدبير الصامت ... في الليل يصعد فتحي الى النافذة المفتوحة عند السقف ... معلق في الهواء بواسطة غطاء مربوط في القضبان ... كالسقالة التي يستخدمها البناؤون ... ينشر في حرص ساعات طويلة ...

قضيبا وراء قضيب ... يتوقف عندما يسمع خطوات الحارس ... او حركة غير عادية ... او عندما يحدثه احساس دفين بان هناك شيئا ما يقتضي الاحتياط.. هكذا بهدوء دون عجلة ... يكتم أنفاسه ، ويكتم اصوات المنشار بقليل من الزيت ... ساعة وراء ساعة ... وليل طويل يتلوه ليل اطول ... احيانا حتى الفجر ... حتى تدمي اصابعه ... وتتوقف عضلاته من فرط المجهود ... كلما انتهى من قضيب اعاده الى مكانه وثبته بعجين من خبز السجن ، وقليل من المازوت الاسود يستخدمونه في طلاء أرضية الزنزانة ... هكذا قضيب وراء قضيب يقترب يوم الخلاص ...

خمسة عشر يوما قبل الميعاد الذي حدداه للهروب ... خفضا من كميات الغذاء والماء التي يتناولانها حتى ينقص وزنهما ... وكان لهذا التصرف حكمة.. لم يتنبه اليها الحراس والضباط ... كانوا يقولون لهما عندما يمرون عليهما في التاديب ... «مالكما تنحلان هكذا» فيتسمان ويجيبان ... «من التأديب يا حضرة الضابط ... متى تخرجوننا من هنا» ... «قريبا ان شاء الله ... أرسلنا شكواكما الى المصلحة» .

ثم جاءت الليلة التي طالما تطلعا اليها ... ليلة من ليالي الشتاء ... مظلمة لا قمر فيها ... باردة ... تصفر فيها الرياح حول جدران الليمان وعبر احواشه ... فينكمش الحراس داخل معاطفهم الثقيلة ... ويتكور المسجونون تحت الاغطية ... رفع فتحي نفسه حتى النافذة ... وخلع القضبان المنشورة الواحد تلو الآخر ... ووضعها بحرص في كيس مملوء بالقطن حتى لا تصدر صوتا عندما تصطدم ببعضها ... أنزلها حتى ارض الزنزانة بحبل قدر به المسافة بين النافذة والارض حتى لا يسقط عليه الكيس فجاة فيحدث ضجيجا ... أخرج الجزء الاسفل من جسمه عبر النافذة بعد ان تأكد من خلو الطريق ... هبط على الاغطية التي جعلها تتدلى من طرف احد القضبان الى الخارج ... لف حول زنازين التاديب على قدمين حافيتين ... ينصت جيدا بين كل خطوة واخرى ، وتخترق عيناه الظلام كالقط ... وصل الى باب زنزانة ابراهيم وفتحها من الخارج بالمفتاح المصنوع من فرشاة الاسنان ... صعدا على الجدار الذي اجتازاه من قبل ... ثم على عمود التليفون يرتفع عاليا داخل الحوش ، وتهبط اسلاكه تدريجيا خارج سور الليمان ... وضع كل منهما لوح الخشب على الاسلاك ... واخذا يهبطان عليها كزورق للجليد ... يستخدمان اقدامهما لدفع لوح الخشب الذي يرقد كل منهما عليه ، خطوة بخطوة ، الى اسفل ... مر ما يقرب من ساعة قبل ان يجتازا مسافة ثلاثين مترا ... اصبحا معلقين في الهواء فوق الجدار الخارجي لليمان ... مثل طائرين في الليل ... مرا من فوق الجدار ... وفجاة تدخل القدر ... ففي اللحظة التي كانا قد تخطيا فيها هذا الجدار ... تمطى احد الحراس ... «متى ينتهي هذا الليل الطويل ... كم يتوق الى كوب من الشاي الساخن يحتسيه وهو جالس فوق الكنبة البيضاء في بيتهم » ...

رفع عينيه الى السماء كانه يستنجد بها ... فلمح شيئا غريبا ... شيئا يبدو كالطائرين ... لونهما رمادي ... واجسادهما ضخمة ... ولكنهما يكادان لا يتحركان ... عفريت ... حملق فيهما فاغرا فاهه ثم افاق ...

زعق في الليل الصامت بجنون ...

«الحقوا ... هروب ... هروب» ... التقط الحراس الآخرون الواقفون في الابراج المخصصة لهم ... النداء «هروب ... هروب» صراخ رهيب يتردد في الليل ... انطلق البروجي طويلا منذرا ... نفخات نحاسية سريعة ... فقامت القيامة ... كلاب الصيد تستيقظ ... الكشافات تضاء ... الضباط ينطلقون من أبواب بيوتهم ... وعشرات الحراس يختطفون البنادق من السلاحليك ويجرون ... ثم بدات المطاردة ... حراس وبنادق ، وخيول ، وكلاب ... ورجلان اعزلان يعدوان في العراء ...

التقطوهما على مسافة ثلاثة كيلومترات من الليمان ... كيف اجتازا المسافة بهذه السرعة ... لا احد يعلم ... ربما نمت لهما اجنحة ... اجنحة الخوف .. او اجنحة للخلاص .. كانا قد تفرقا في اتجاهين مختلفين ... التقطوا فتحي اول الامر ... جسده كبير يصعب عليه الاختفاء ... ثم وقع ابراهيم ... مختبئا في عربة للسكة الحديد عند المحطة ...

أعادوهما الى الليمان ... الى التأديب ... حيث كانا ... جلدوهما حتى كادا ان يفارقا الحياة ... وربطوهما في الجدار بوتد من حديد ، وقيود حول القدم ... وهكذا مكثا مدة سنة باكملها ... ولكن حتى القسوة لها نهاية ... فاعادوا اليهما بعض الحرية بالتدريج ...

وفي الحجرة رقم ١٤ نشا تقسيم طبيعي للعمل ... سيد يكتب العرائض والرسائل للسلطات ، والمحاكم ، والمحامين ... خد يا زميل شفلنا بيجولوا ايه كده في الجواب ده ... المحامي عايز مائة جنيه مقدم ، والا ما يتحركش ... مائة جنيه ... واحنا نبيع الي حيلتنا ... النقض فاضل عليه شهر ... ايه رايك يا زميل ... ما تعرفلناش محامي ابن حلال ياخد القضية ... استقرا لنا كده اخوي بيقول ايه في المصيبه ديه» ... وعزيز يتولى شئون المرض والصحة.. «عندي ألم في الجنب اليمين يا زميل ... بيشد عليه في البرد بالليل ... وينفح ... بيخليني اقول جاي ... بلهاريسيا ؟.. جاتلي منين دي .. طول عمري محافظ في الاكل ... لا باشرب دخان ، ولا قربت على الحشيش يوم ... من الية ؟.. سبحان الله ... من الترعة ... آه طبعا باستحم في الترعة أمال استحم فين ...؟» وحنفي يكتب رسائل للاصدقاء والاقارب ... انه رجل مثلهم ... من الريف ... وجهه عريض ... وحركاته فيهما نفس الوقار ... يطمئنون اليه .. ويبوحون له بشئونهم الخاصة التي لا يبوحون بها لاحد ... ونور ينشد الشعر ويحكي لهم الاساطير ... حفظها من القرى الرابضة على ضفاف النيل في الصعيد عندما كان شابا ... يخترق الحقول ... ويجلس مع

الكبار في دوار العمدة ... اسود كالليث ... عصبي ، ومرح ... يحبونه...

وبالتدريج اقاموا مدرسة لمحو الامية ... ارسلوا في طلب بعض كتب القراءة المصورة لانهم يعلمون انهم سيحتاجون اليها ... فصدق ما كانوا يتوقعون ... اغلب هؤلاء القوم اميون ... في حياتهم العادية لم يتنبهوا الى اشياء كثيرة ... ما عدا ذلك العدد القليل الذي يولد مختلفا ... او يصبح مختلفا لظرف من الظروف ... يقلقه الطموح من اول يوم ... ويشتعل في اعماقه لهيب التحدي، ورغبة في صنع ما لم يصنعه غيره ... ولكنهم دائما اقلية ... الى جانب هؤلاء فالناس عادة يسيرون في حياتهم معصوبي العيون ... الى ان يحدث لهم شيء لم يكن في الحسبان ... عندئذ يفيقون ، ويتأملون ما مضى ... ويفكرون فيما لم يفكروا فيه من قبل ...

والمسجون في الليمان هكذا ... انه ليس عابر سبيل في السجن ... ولا راحل الى مكان آخر يحس بقلق الرحيل لانه سيبقى اياما ثم يمضي ... انه جاء ليبقى سنين طويلة ... ربما مدى الحياة ... عنده احساس عميق بالمأساة ... ضاعت ايامه دون ان يعي ... وفرصة طويلة للتامل ... يعيد فيها كل ما فات ... يؤمن بالله واليوم الآخر والقدر ... سند له في هذه المأساة... وتكفير عن احساس بالذنب ... فقد قتل ، ولكن القتل كان مكتوبا عليه ... والله هو الذي امر يده بالضغط على الزناد ... ولكنه يكفر باشياء اخرى ... بهذه الحياة ... بما فرضته عليه من جهل وهوان ... يشعر برغبة طاغية في ان يفهم ... وبحاجة ملحة الى امل في الوجود ... وفي مكان ما من النفس اللاواعية.. ينبت الامل في تعويض ما فات ... في مستقبل آخر ربما تفتحت ابوابه ... فمن يحيى في الليمان لا بد ان يحيى على الامن ... والا مات ... ومن عاش في الليمان سريع الالتقاط للأمل ... اذا وجد من يبثه اليه ... ويذكي في قلبه المدفون تفاؤلا بالحياة .

وهكذا بداوا دروس محو الامية ... بدات بواحد منهم ... بيومي ... ثم اثنين ... وثلاثة واربعة الى ان اصبحوا يعدون بالعشرات ... المدرسة تعمل كل ايام الاسبوع ... عماد ناظرها ... وهم المدرسون ... لم يعد هناك مكان لجديد ... فاغلقوا الابواب على العدد الموجود ... ووعدوا الآخرين بفرصة اخرى ... بعد ثلاثة اشهر ... ولكن بعضهم لم يطق الانتظار ... وكان ياخذ الدروس من غيره ... ويستذكرها معه في هدوء الليل ... على شعلة مغروسة في طبق من الزيت ... ترقص نيرانها فوق الحائط الاصم ... وتحول الناس الى اشباح غامضة ... اياد ، ورؤوس ، وانوف ، تروح وتجيء كخيال الظل ، في الليل المكتوم ... كانوا مثل الذي كاد ان يغرق ... فخرج من تحت المياه يتنفس بملء صدره ... يلتقط الحروف ، والصور ، والكلمات بنهم الجوع ... ويتابع معنى الكلمات ... فالكلمات تحمل اليه معان كثيرة ... خيالهم مفتوح ... وتجاربهم في الحياة كاحجار الرحى ... تفرز الردة من الدقيق ... فمن عرف العذاب يصبح هكذا ... يلتقط الاشياء في نفسه ... يطحنها ... بين احجار

للرحى تدور في الاعماق ... ويخرج دقيقا ناصع البياض ... لا يحفظ الاشياء كآلة تسجيل ... وانما يلفظ الردة والحصى وما لا يفيد ...

ولئن نسي عزيز اياما مضت ... ولا بد ان تنسى حتى تعيش ... فلن ينسى هؤلاء الرجال ... يجلسون كالاطفال الكبار ... مطيعين ... كأنهم اسلموا ارواحهم «للمعلم» ... عيونهم تتابع الصور في اهتمام ... وآذانهم تنصت لصوت الكلمات ... واصابعهم القوية تلتف حول القلم ... ترتعش قليلا ... وتخط الحروف بصعوبة ... حروف ضخمة غريبة تشبه حيوانا اسطوريا ... تصعد وتهبط بين السطور ... منحرفة ، متعرجة ، اصابها تشويه ... فقد تعودت اصابعهم ان تلتف حول الفأس ... ومقبض البندقية .. ومعاول الجبل ... ولكن هذه الاقلام الصغيرة تضيع في الكف العريض ... تفلت ... تأبى ان تسير كما يريدون ... ولكن ساعة بعد ساعة ... تتقمر الحروف .... تتضح ... تستقيم ... ويوما بعد يوم تلتف الاصابع حول القلم بثبات ... واسبوعا وراء اسبوع ... تولد الثقة ... وتبرق العيون بفخر جديد ... اعتزاز بالنفس جاء من المعرفة ...

نعم ، ان تنسَ اشياء مضت وانتهت ، فلن ينسى هؤلاء الرجال ... يجلسون كالاطفال الكبار ... ينحنون فوق الورق بأجسادهم القوية ... يخطون الحروف بعناية عاجزة ... ينظرون باندهاش للقلم يسير حيث لا يريدون ... هذه الاداة الصغيرة لا تطيع ارادتهم ... بينما هم اقوياء ... يشعرون بالآلام في اكتافهم .. فالجهد الذي يبذلونه اصعب مئات المرات من ضربات الفأس في الارض السمراء.. او اصطدام المعاول بالاحجار البيضاء ... يسيل العرق من تحت العمة ... ينحدر فوق الجبهات والانوف ... يسقط نقطا فوق الورق ويختلط بالكوبية .. ليكون انهارا صغيرة من اللون ... منظر يضحك ... وربما ... ولكنه ضحك قد يقترب من البكاء ...

اخيرا جاء اليوم الموعود ... ارتدوا ملابسهم النظيفة ... وكنسوا الحجرة، وغسلوا ارضها ... وعلقوا اربع رايات حمر عند النوافذ ... واعدوا الشاي واطباقا صغيرة من الحلوى ... وبعد صلاة الجمعة اكتظت الحجرة بعشرات من الرجال ... ملأوا كل ركن فيه ... انكمشوا في اقل حيز ممكن ... اسندوا ظهورهم للجدار ... وقفوا في الاركان ... طووا سيقانهم تحت اردافهم ليتركوا مكانا للآخرين ... الصقوا اكتافهم صفوفا متراصة متصلة ... وفاضوا من الباب فوق الممر ...

وقف عماد وسط الحجرة ... الناظر الفخور بتلامذته ... ووقف الى جواره نور يحمل اوراقا مكتوبة بخط اليد ... عند اعلاها راية حمراء مرسومة بعناية تحمل المنجل والمطرقة ... ساد الصمت فجأة ... وحملقت العيون الجادة نحو الرجلين المنتصبين بجوار الباب... كأن مصيرهم معلقا على كلمات ستقال.. قرأ نوح الاسماء من كشف مكتوب ... هاشم علي شعبان ناجح ... جيد جدا ..

عبد الفتاح مصطفى ناجح بامتياز ... علي عوضين ناجح ... بيومي عوض الله ناجح بامتياز ... فتحي المنقبادي ناجح جيد جدا ... علوي العساف ناجح... يصفقون بعد كل اسم ... فقد تعلموا ايضا كيف يصفقون ... ويقوم كل منهم بدوره ... يتسلم الشهادة ويعانق الناظر ، ووكيله ، ثم يجلس ...

شربوا الشاي واكلوا الحلوى ... ثم هبطوا الى الدور الارضي للعنبر الكبير ... فرشوا الاغطية من جديد ... وتكونت حلقة ضخمة بطول العنبر ... صفوفا وراء صفوف ... تركت مساحة فارغة في الوسط ... استعاروا العصيان من الحراس ... لم يعد هناك حارس ومسجون ... واحضروا طبولا من حيث لا يدري احد ... ورقصوا ... رقصوا بفرحة الرجل البسيط ... العصي تلوح في الهواء ... وتهوي ... ولكنها لا تستهدف العدوان ... تهبط فوق الكتف في ود رفيق ... وتنصرف كلمة سلام ... العيون تبرق في الوجوه السمر ... والسيقان تدك الارض قوية ... والعمم البيض ملفوفة حول الوسط ... والاجساد تنثني لدنة كالنخيل ... والطبل يرن في العنبر الكبير .. دقات قلب ترددها الجدران .. والاصوات تغني بالمواويل ... أفراح فيها حزن، وأحزان فيها فرح ... اصوات بريئة تعبر عن مكنونات النفس ... وغدر السنين ... وفراق الاهل والأحبة ... والعودة ...

اصوات تغني للعودة ... العودة ... فمتى يعودون ...

★★★

الحجرة رقم ١٤ كأركان الحرب ... نشاط لا يتوقف من لحظة فتح الابواب في الصباح حتى تغلق قبل التمام في المساء ... منارة تسعى اليها السفن الضائعة ... وأسلاك تمتد الى العنبر الكبير بادواره الاربعة ... الان يدركون معنى التنظيم ... لجنة مكونة من زعماء المحافظات ... قيادة موحدة للعنبر كله ... ومندوبون لكل المحافظات في الادوار ... وبالتدريج جهاز مماثل في العنابر الاخرى ... الان يعدون لمعركة ولا بد من تكتل كل الحلفاء ... انها معركة عنبر ٤ ... عنبر الجبل ... ولكن الباقين لهم دورهم ... ينبغي الا يثاروا ضدهم ... حتى لا تنقلب الامور الى معركة بين المساجين ... بل اكثر من هذا ... اذا كسبوا عطفهم سيقدمون المساعدات ، ربما في اللحظة الحاسمة... موقف تأييد ... او وسائل الاتصال اذا عزلت الادارة عنبر الجبل ...

منذ ستة شهور يعدون لها ... مطالبهم بسيطة تتلخص في نقطتين ... الغاء العمل في المحاجر (الجبل) والغاء القيود الحديدية ... أليست هذه حكومة الثورة ؟... أليسوا هم ايضا مواطنين ؟... لنرى ماذا سيكون موقفهم ؟... الجبل يلتهم الضحايا كل يوم ... يهبط الطابور الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ... أجساد مرهقة تترنح تحت لهيب الشمس في الصيف ... عطشى ، كالفروع التي جفت من قلة الماء ... في الصفوف الخلفية نقالة او اثنتان ، او

ثلاث ... تحمل الجرحى واحيانا الموتى ... حجرة تدحرجت لتسحق من تحتها ... شظايا تخترق الاعين عند انفجار الديناميت ... كل شيء هنا بدائي يعود الى عصور قديمة ... محصور في حيز ضيق لا يسمح بالفلات ... والموت له انواع ... نوع سريع يريح الى الابد ... ونوع آخر بطيء يعتصر قواهم يوما بعد يوم ... يمتص شبابهم ، واحسن ما فيهم ... فاذا انتهت مدتهم لفظوا عند ابواب الليمان ... بقايا رجال ...

ارسلوا آلاف العرائض للمصلحة ، والوزارات ، والصحف ... وآلاف الرسائل لاهليهم يشرحون فيها الموقف ... مطلبهم معقول ... الجبل لا يدر دخلا ، بل على العكس يكلف ميزانية السجون آلاف الجنيهات ، فالمحاجر عتيقة نفذت احجارها الجيدة ، ولم يبق سوى نوع رديء ... الانتاج منخفض لانه يتم بوسائل عتيقة ... لم يعد للجبل معنى الا التعذيب ... والقانون ... اذا كان قانونا للانسان ، لا يبيح التعذيب ... لماذا لا يعملون جميعا في المزارع ؟... يستصلحون الاراضي ... وينشرون النبات الاخضر فوق الرمال ... وينتجون الخضروات لانفسهم وللناس ...

ولكن التمرد في الليمان خطير... والتمرد الجماعي يبيح اطلاق الرصاص.. واذا اطلق الرصاص سيقتل كثيرون ... وان قتل كثيرون ... انهارت اشياء.. ضاعت حقوق اكتسبوها ... ضاع العفو الذي يصدر في عيد الثورة ... وضاعت فوق هذا الرغبة في المقاومة ربما لسنين ...

لذلك لا بد من الاهتداء الى فكرة يصعب معها دمغ حركتهم بالتمرد ... والتمرد في الجبل ... انواع ... ولكن أهم انواعه الامتناع عن العمل ... اذن لن يمتنعوا عن العمل ... سيلجأون الى الاضراب البطيء ... بدلا من ملء عربة سكة حديد بالاحجار ستملأ كل فرقة ثلث عربة ... او ربعها ... او حتى ثمنها ... سيعتذرون في ادب ... «بنحاول قدر امكاننا ... ولكن الجبل امتص قوانا ... وقضى على ما فينا من صحة ... افعلوا بنا ما شئتم ... لم نمتنع عن العمل ... ولم نعص الاوامر ... بل نعمل بكل طاقتنا ... ولا ذنب لنا ان كانت طاقاتنا ضعيفة ...»

احست الادارة ان شيئا يدبر ... العيون منبثة في كل مكان ... من يعلم، ربما في اللجان ... او بين المذنبين ... والاخبار تصل ... توتر في الجو .. وعصبية تحت الهدوء ... وفي الحجرة رقم ١٤ .. النوم لم يعد يأتي بسهولة.. يرون النجوم عبر القضبان ... واحيانا ضوء الفجر ينتشر شاحبا ، ويزحف فوق السماء ...

ولكن كل شيء معد الان ... خرجوا في ذلك الصباح كالمعتاد ... صفوفا تجلس القرفصاء ... وبحرا من الرؤوس ...

صمت غير عادي ... ونظرات من تحت الجفون ... تحمل رسالة خفية .. اتفاق مفهوم لا يحتاج الى كلمات ... تحد مستتر في سواد المقلتين ...

تصميم ... سرعة في اطاعة الاوامر ... تحمل غريب لكل اهانة ... لا نريد معارك فرعية ... لا ينبغي ان نعطيهم اقل فرصة ... فهم متربصون ... الصبر ... الصبر ... ومن اقدر على الصبر من اولئك الذين ابتلعهم الليمان ...

ذهبوا كعادتهم الى ورشة التماثيل ... لا يجيد احد منهم النحت ... ولا يطلبون منهم شيئا ... يخرجون كتبهم ... ويقراون ... وساعة الغداء يصنعون الشاي ، ويدفئون العدس ، والخبز على الحكور ... حولهم رؤوس ، وحيوانات من حجر تحتها آخرون ... لمسة الفن في اصابع «المذنبين» فليس للفن موطن محدد ... تجده في اي مكان ... بذرة مزروعة في اعماق انسان ... تنتظر اوانها للظهور ... جو مريح ينسون فيه احيانا اين هم ..

ولكن من يستطيع ان يقرا في هذا اليوم ... مرت الساعات طويلة ... ثم جاءت ساعة العودة ... سار الطابور بطيئا على الطريق ... يتلوى تحت لفح الشمس الحارقة ... تصعد سخونتها في بطون الاقدام ... حريق في الراس.. وحريق آخر في القدمين ... تفرق المسجونون الى حجراتهم يصعدون درجات من حديد ... حديد في كل مكان ... وحجر ، وجدران ... اليوم الاول مر دون ان يحدث شيء ...

بات عزيز ساهرا في تلك الليلة ... وانتظر حتى جاء نور الصباح ...

***

لماذا يفارقه النوم هذه الايام ... ذهب من جفونه وكأنه لن يعود ... كتب رسالة طويلة لنادية وسطورا قليلة خطها ليوسف وسناء ... بحث عن اشياء يقولها لهما فم يجدها ... ادخل الرسائل في مظروف طويل ... ووضعه في الحقيبة ... حتى لا ينساه ... غدا سيلقي به في البريد ... امسك بكتاب واخذ يقرا ... ولكن ذهنه مشغول ... قام وجلس على الشرفة .. الليل هادىء. ولكن النسر تحيطه غلالة خفيفة ... نذير عواصف تهب في هذا الموسم من السنة ... عاد يجوب في الحجرات لا يستقر في مكان ... الوحدة تثقل عليه ... يريد ان يعود ... الم تكفه سنين البعد والوحدة ... ولكن الى ماذا يعود ...؟ اليس الباقون هناك ؟... يعيشون حياتهم بين الحلو والمر ... ويعانون ؟... لماذا لا يشاركهم التبعات والمصير ؟... كان معهم في يوم من الايام ... والآن ايخاف الرجوع ؟ ولكنه يكتب ... عمل يريد ان ينتهي منه ... عمل لا بد ان ينتهي منه اولا ... ثم ... ما زال يحس ان امامه الكثير ... خطواته ثابتة فوق الارض ... وعقله يفكر بوضوح ... سيعود يوما ما ... لم يأت بعد الاوان ...

نزل الى الشارع ... يحب المشي على الاقدام وحده في سكون الليل ... يصفو ذهنه مع حركة الساقين والذراعين ... يترك العنان لخياله ...

ويسرح ... في الماضي ... لماذا في الماضي وليس في المستقبل ؟... لم يعد يعيش في المستقبل كثيرا ... يعيش في الحاضر بكل كيانه ... وعندما يسرح.. يتذكر الماضي ... فليس لكل الناس ماض كماضيه ... ربما لذلك يسرح فيه .. يستمد منه القوة والثقة التي يحتاج اليها في هذه الايام حتى يكمل ما بداه ...

البيوت جميلة في هذا الحي ... محاطة بحدائق صغيرة تهب منها رائحة الزهور .. اضواء ساخنة تضيء عبر النوافذ ... ومراوح تدور عند السقف... اسرة تجلس حول التليفزيون ... يرى ضفائر الشعر السود تلمع ، والوجوه ... والعيون تتابع في اهتمام ... اسرة ... اصوات ملاعق واطباق وموسيقى ... ياكلون ... ورائحة الطعام تصل الى انفه ... لا يعاني من الجوع ... جوعه من نوع آخر ... ربما العواطف ... للوطن ... لاشياء لم تنته ... بترت قبل الاوان ... يمشي في الشارع الخالي من المارة ... صوت موتوسيكلات ينفجر فجاة في الصمت ... موكب من ثلاثة يسيرون في خط مستقيم ... ينطلقون تحت الاشجار والقمر في ليل دافىء مثير ... سرعة ... وصحة ... شباب ... «ترى اين يذهبون» ؟... اصبحوا امامه الان ... فتاة تحتضنه من الخلف ... تحيطه بذراعيها ... وتضع راسها على كتفه ... شعرها طائر في الهواء ... ونهداها مضغوطان في الظهر العريض .. يحس بهما عبر القميص.. شعلتان ... يفكر في الفتيات ... لا بد انه شاخ ... عندما يكبر الرجل ينجذب الى الشباب ... ماذا ستقول نادية ؟... لها آراء في هذه الاشياء ... قاطعة.. يخجل منها في بعض الاحيان ... احاسيسها فيها استقامة .. ليست فيه على الدوام ... يشعر بالحرمان احيانا ... قضى شبابه في السجون ... لم ينطلق مثل هؤلاء ... يسابقون الريح تحت القمر والاشجار ... الزمن امامهم طويل.. والتصاق الاجسام ، كالضحكات ، كاللمسات ، كالعطور ، والزهور محسوس وغير محسوس ... مفهوم وغير مفهوم ...

يمشي ويمشي عبر الشوارع الخالية... حركة القدمين والذراعين تريحه.. ونبض الشريان عميق في الساق ... يشعره بانه ما زال حيا ... قويا ... كان يعتز دائما بقدرته على التحمل ... يستطيع ما لا يستطيعه الآخرون ... ينبغي ان يعمل ما لا يعملون ... ويذهب حيث لا يذهبون ... ربما تكفيرا عن وضعه القديم ... بورجوازي ... يتفانى ... ربما كان يبالغ ... رائحة سماد في انفه ... تهب من احواض الزهور ... دفء البلاد الاستوائية وخصوبتها ... عندما نقلوا الى الواحات كان عليهم ان يزرعوا الصحاري ... حتى يجدوا ما يغذيهم ... فالمؤونة لا تصل اليهم في بطن الرمال ... او تصل متاخرة او فاسدة ... دقيق ، وفول ، وعدس ، وارز ، وقليل من العسل الاسود ...

ولكن اذا اردت ان تزرع الصحاري لا بد من المياه ... والسماد ... المياه موجودة فقد دقت هيئة الاستصلاح بئرا عميقا في الارض ... ولكن اين لهم بالسماد ...؟ اهتدوا الى فكرة ... مجاري السجون تصب خارج الاسوار ...

مياه الغسيل ، والبول والفضلات التي يلفظها الفان من المسجونين ... ثمانمائة من الشيوعيين والف وثلثمائة من الاخوان ... تصب في بركة آسنة تمتد مئات الامتار ... تولد الروائح الكريهة والذباب والامراض ... وبين هذه البركة والمزرعة ثلاثة كيلومترات ... لا بد من حمل السماد على الحمير ، او في عربة تجرها الثيران ، عبر هذه المسافة ، لتوضع في الارض ... على مساحة خمسة وثلاثين فدانا ... وينبغي أن تنزع مياه البركة اولا للحصول على السماد الجاف ... وفي السجن طامبور ... والطامبور يمكن ان يوضع في المياه ويدور ليلقي بها بعيدا في قناة محفورة تنتهي في الرمال ...

كان الفصل شتاء ... وفي الصحاري تنخفض درجة الحرارة الى الصفر او ما يقرب من الصفر اثناء الليل ... وتنخفض معها درجة الحرارة في البركة الممتدة خارج الاسوار ...

كانا اثنين ... هو وسيد ... لم يتطوع احد من العمال ... ولا من الفلاحين ... ولا من القادة ما عدا سيد ... كانا يذهبان في الصباح الباكر بعد بزوغ الفجر مباشرة ... ويخلعان ملابسهما تماما ، ويهبطان في المياه الآسنة العفنة تحيط بوسطهما كقطعة من الجليد فيفقدان الاحساس بالجزء الاسفل من اجسامهما كأن الجسد اصبح نصفين ... نصف ما زال على قيد الحياة ، ونصف آخر مات ، الساقان والارداف واسفل البطن ... كان سيد يضحك احيانا ويقول: «اخشى على اعضائي الجنسية ان تزول» ...

ويديران الطامبور ... كانا يشعران بالقرف والغثيان اول الامر ... ثم تعودا واصبحا الى حد ما يحبان هذا العمل الذي لم يقدم عليه احد سواهما ، والذي جمع بينهما في هدوء الصباح يتحدثان والشمس تشرق قرصا احمر عند الافق فوق مساحات الرمال ...

كان يحب الاحساس بقوته ... بالتحدي ... ويحب المساحات المفتوحة والهدوء ... لذلك اختار المعجنة عملا له بعد ذلك ... يذهب في الساعة الرابعة صباحا قبل ان يبزغ الفجر بساعة ... الان يزامله نور ... ونور كان من اولئك الذين يضحون ... بكل شيء ... بسجائره ... وثيابه ، وطعامه ... وهي كل ما يملكون ... قلب ابيض في الجسد الاسود ، مرح على الدوام ... ولكنه يحمل في نفسه احساسا دفينا بالموت ... يشكو من سرعة في ضربات القلب.. وفقدان للوعي يخطفه مدة ثواني ، يغيب فيها ثم يعود ... وكانوا يضحكون عليه ... ولا يأخذون شكواه مأخذ الجد ... «طول عمرك متاكف ... ستدفننا جميعا» ... فيتحمل ويسكت ... قاس له الضغط يوما من الايام فوجده مرتفعا ... قال له «لا تخف يا نور ... ولكن كن حذرا ... لا تبذل كل هذه الجهود» ولكنه يهز راسه ... ويبرق القلق لحظة في عينيه ثم يمضي ... وبعد ذلك تجده دائما حيث يطلب من الناس مجهود ...

كانا يذهبان في صمت الليل ... وزملاؤهم نيام ... يقفان امام صندوق من الخشب كالتابوت الضخم ... وجرادل الماء مرصوصة الى جوارهما يملأونها من

ظلمة اليد ... وأكياس الدقيق مسنودة على جدار الكشك ... يفرغان الدقيق الابيض ... ويصبان جرادل المياه ويعجنان بقبضات ايديهما ... يسيل منهما العرق انهارا اتختلط مع العجين ... كتلة ضخمة يرفعانها حتى صدرهما ؛ ثم يتركانها تسقط في الصندوق ... ساعة ونصف او ساعتان من المجهود المضني.. حتى ترتعش عضلات الجسم ... فلم يتعودا هذا المجهود ... الساقان تميد تحتهما ، والعرق يعمي العيون حتى يعجزا عن الرؤية ... ولكن الأذرع والقبضات ترتفع ، وتهبط ، في الصندوق الكبير ... فلا بد من ان يأكل الناس خبزهم... مهما كان ..

يعودان بخطى بطيئة ... فوق الرمال ... الناس ينامون في الخيم ... والصمت في كل مكان ... الفجر ينتشر بطيئا رماديا فوق السماء ... وصوت يؤذن ... «الصلاة خير من النوم» . صوت جميل يعبر المسافات الواسعة في هدوء كالسلام ... ووقع الأقدام فوق الرمال ... والانسان في الكون العريض وحده ...

في يوم من الايام ... كان عزيز في راحته الاسبوعية ... يستمتع بنوم عميق ... سمع اصواتا وضجيجا امام الخيمة ... ازاح الاغطية جانبا وخرج.. لوحة من الخشب تشبه النقالة ، يرصون عليها أقراص الخبز عادة ، حملها اثنان ... فوقها جسد ممدد تحت مفرش ابيض ... تطل رأس سمراء عند طرفها ... وقدمان سوداوان عند الطرف الآخر ... اقترب ... الوجه فيه زرقة غريبة ... والعينان المتفختان مغلقتان ... امسك بيده ... باردة كالثلج اصابعه تبحث عن النبض ... صرخ ... «نور ... نور» ...

ترك وراءه ديوانا من الشعر ، وقصة عن قريته التي غرقت تحت مياه النيل ... وذكرى ... ذكرى لمن يتذكرون ...

★★★

مضت اربعة ايام دون ان يحدث شيء ... وفي اليوم الخامس بينما كانوا يتناولون طعامهم في ورشة التماثيل ... خيل اليهم فجأة انهم يسمعون ضجيجا غير عادي يصدر من الجبل ... صياح واوامر تلقي بصوت عال ... حوافر الخيل تنطلق فوق الارض ... تتردد اصداؤها عبر المرتفعات ... ورنين بنادق تتخذ وضع الاستعداد... ثم جاء صوت البروجي... نداء طويل كالعويل... تلاه نباح سريع متقطع غاضب ... كنذير المعركة ...

ادركوا ان الوقت قد جاء ..

تركوا مكانهم ... وانطلقوا نحو الباب ... تطلعوا الى الخارج في حرص .. صحن الجبل تزحف عبره اجسام المساجين ... بقع رمادية في وهج الشمس الابيض ، فوق الرمال الصفراء ... وفوق السفح الابيض ... المعاول تعلو

وتهبط بحركة بطيئة مرهقة ... وعربة السكة الحديد تنزلق خطوة خطوة فوق القضبان اللامعة ... ضوء الشمس القوي المفاجيء يحول دون ان يروا جيدا .. ما هذا ؟ المأمور والضباط على ظهور الخيل ... تجمعوا عند نقطة في منتصف المحجر ... يرونهم من الخلف ... بين الحين والحين ينفصل حصان عن باقي المجموعة ... يدور دورة سريعة في عصبية ثم يعود ليواجه المساجين الذين ما زالوا يعملون ... الجنزير لم يعد منتشرا فوق قمة الجبـــــل ... الخيالة ، والحراس كونوا حلقة واسعة حول الصحن ... والبنادق مرفوعة ... مصوبة.. نحو الاجساد التي تتحرك في بطء ... ترتفع معاولها في الايدي وتهبط بهـــــا الاذرع ... او تدفع بأكتافها العريضة عربة فوق القضبان ... خطوة بعـــــد خطوة ... الجبل يبدو عاديا ... العمل مستمر ... ولكن حلقة الخيالـــــة والحراس يصوبون البنادق ... ويتقدمون ... تضيق الحلقة بالتدريج ... كالصيادين يضيقون الخناق على وحش مفترس ... ليقتلوه ...

همس حلمي :

«ربنا يستر ...»

الزمن لا يتحرك ... كل شيء في الكون توقف ... توقف عند صحن الجبل ... حيث يدور الان صراع صامت جبار ... صراع بين قوتين ... يواجهـــان بعضهما .. انتهى كل ضجيج ... ما عدا صوت المعاول تقطع في الصخر ... وارتطام الاحجار بالارض عندما تسقط من اعلى ... ولكن حتى هذه الاصوات اصبحت غير مسموعة ... العيون ترى ؛ والآذان فقدت قدرتها على السمع ... كالفيلم الصامت ... كل شيء مركز في العيون ... اذا وقعت الصدمة ستراه العيون ... واذا انطلقت رصاصة ستراها العيون ... واذا سقط جسد فوق الارض ستراه العيون حين يسقط ... هذا الصمت ... وهذه الحركة العادية للمساجين يرفعون المعاول ويروحون ... ويجيئون ... كأن شيئا لم يحدث .. يبدو كالحلم المخيف ... قوتان جبارتان تتصارعان ... كارثة تنتظـــر اقـــل اشارة ... مذبحة تتوقف على شعرة رفيعة ... وقفوا بأنفاس معلقة عند الباب يشاهدون ... معركة بين خصمين يتردد كل منهما في اتخاذ الخطوة الاولى... فكل منهما يعرف معناها ... يدرك الى ما تقود ... يدوران حول بعضهما ... في حرص ... كحيوانين في الغابة ... التقيا صدفة دون تدبير ... يعرف كل منهما ان الآخر قوي ... ويتفادى المعركة ...

قال عماد :

«لم يتوقف احد عن العمل» .

راى المأمور يلوح ... جرى الشاويش ناحيته ... لم يسمعوا شيئا ... عادت البنادق الى مكانها المعتاد الى جوار السرج ؛ والجنزير ينسحب ويكـــون خطين متوازيين ... الحراس يعودون الى فرقهم ... الجبل يتجمع فـــي الصحن ... صفوفا وراء صفوف ... والحراس يحسبون عددهم ... مـــرور بطيء وحركة بالاصابع تنتقل من راس الى راس ... الشاويش يتقدم ... يؤدي

التحية ...

«تمام يا فندم ... الف وخمسمائة وواحد ...»

جاء الصوت عاليا ... اكن رنينه أجوف ... مقهور ...

«نزل الجبل يا شاويش» .

وقف الجبل ... ثم سار ... لا شيء يستطيع ان يوقف مساره الان ... الارض تهتز تحت وقع الأقدام ... والاجسام منتصبة كجذوع الشجر المتين .. العيون تتطلع بثبات الى الافق البعيد ... واحد اثنان ... واحد اثنان ... واحد اثنان ...

***

عندما اخترع الانسان ملكية الارض ... والدولة ... والسجون ... اخترع معها قيود الحديد ... توضع حول المعصم ... وحول الأقدام ... وقد تعلم الصيادون من قديم الزمان انه ... اذا اردت ان تقيد حركة الحيوان لا بد ان توقف اطرافه ... وعندما تطور التاريخ ... وانقسم سكان الارض الى من يملكون ... ومن لا يملكون ... الى اصحاب ارض ... وعبيد ... نقلوا هذه الخبرة الى مجال آخر .. وتعلموا انه اذا اردت ان تقيد الانسان .. في حركته.. فالسبيل الامثل هو ان تضع الاغلال حول اطرافه كالحيوان بالضبط فتمنع هروبه من الضياع والحقول ... وتذل كبرياءه ... وقد قرر الفزاة الانجليز ... عندما جاؤا الى مصر ... انه لا بد من الحفاظ على هذا التراث الانساني المجيد ... اذا ارادوا ان ينشروا أصول الحضارة الغربية على أوسع نطاق ... واستوردوا من مصانع الحديد والصلب ... في شفيلد ... قيودا ... مكتوب عليها من الداخل ... صنع في انجلترا ... فكانوا يعتزون بصناعتهم اعتزازا شديدا.. وحيث انهم كانوا يؤمنون بالقانون والنظام أصدروا لائحة السجون ... تبيح فرض القيود الحديدية على المسجونين الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما زال في بلادنا أناس ينتمون الى هذه المدرسة ... مدرسة القيود الحديدية ولكنهم يستخدمونها في الخفاء ... فقد تقدمنا في نواح كثيرة ... وانتهت اشياء الى غير رجعة ... انتهى في الليمان مثلا ... العمل في الجبل.. وصدر قرار بالغاء القيود الحديدية ... في سنة ١٩٥٤ .

وبهذه المناسبة أقيم احتفال بليمان طره ... لم تنظمه السلطات ... ولم تشرف عليه ادارة السجن ... بل اكثر من هذا لم يعمل له اي ترتيب ... حتى من قبل المذنبين انفسهم ... الذين اصبحوا يدعون بالنزلاء الان ... فاحيانا يعتقد الحكام انهم يغيرون الاشياء عندما يغيرون اسماءها ... كان احتفال تلقائي ... لا يعرف احد كيف بدا ... وكيف حدث على هذا المنوال .. وقبل ان يبلغ «المذنبين» بصدور القرار رسميا ...

لم يعد يذكر اليوم بالضبط ... ولا حتى الشهر ... فقد مرت عليه ما

يزيد عن عشرين سنة ... والسنين تطمس اشياء كثيرة ... يذكر فقط انه كان يوما من ايام الشتاء ... عادوا من الجبل ... واغتسلوا تحت الصنابير النحاسية في دورات المياه ... ثم جلسوا في حجرتهم يستريحون ... وفي هذه الساعة من ساعات النهار يصل الضجيج عادة الى أعلاه فهي تسبق التمام وغلق الابواب.. انها ساعة تبادل الاحاديث ، وآخر الاخبار ... وغسل الملابس ... والحصول على احتياجات العشاء ... قليل من الثوم ، والبصل او الزيت ... وهي ساعة ينشط فيها التجار في بيع الشاي ، والدخان ، والحشيش والافيون لمن يريدون ...

لذلك كان من الغريب ان يصمت العنبر فجأة ... خرجوا من حجرتهم ووقفوا في الممر ... يتطلعون ... الابواب كلها مفتوحة ... من داخلها تدفق المسجونون ... وساروا في بطء عبر الممرات ... طوابير طويلة متصلة... تهبط من كل الادوار فوق السلالم الحديدية ... لا احد يتكلم ، ولا احد من الحراس يعترض طريقهم ... كأنهم يمشون في جنازة ... لا صوت يرتفع منهم سوى صليل القيود تهتز مع الخطوات ... الادوار تنتظر بعضها ... الدور الرابع ثم الثالث ، ثم الثاني هكذا ... فتلتئم الطوابير المتفرقة عند اطرافها لتكوّن طابورا واحدا متصلا ... ترى بدايته ولكنه بلا نهاية ... وفي المقدمة يسير «بيومي» جسد فارغ ، وراس مرفوعة على عنقه القوي في اعتزاز ... الوجوه كلها جامدة ... تكتم انفعالا في الاعماق ... والعيون تحملق امامها ... لا تبحث عن طريقها ... والاجساد تسير كأنها منجذبة بقوة خفية نحو هدف مقصود ... يبدون كالسائرين في حلم .. كطابور من الاشباح ...

وصل الطابور الى اسفل السلم واخذ يصب في الدور الارضي ... سار مسافة قصيرة ثم توقف ... انفصل «بيومي» عن مقدمة الطابور ووقف بمفرده.. خلع الحزام الجلدي من حول وسطه ... وترك القيود الحديدية التي تلتف حول ساقيه تقع على الارض ... رفع قدمه اليسرى وخلع الحلقة المربوطة حولها ... ثم رفع اليمنى وخلع الحلقة الاخرى ... انحنى ليلتقط القيود التي استقرت تحت قدميه ... رفع ذراعيه عالية فوق راسه ... ثم القى بالاغلال على الارض بكل قوته ... رن صوتها على البلاط عاليا في سكون العنبر كطلقة المدفع ... سمعوا صوته القوي ... يصيح :

«لعنة الله على الظالمين ...»

رفع راسه للصفوف المتراصة فوق الممرات حتى الدور الرابع فرددت الدعاء في صوت واحد رهيب :

«لعنة الله على الظالمين ...»

استانف الموكب سيره ... كل مسجون يخلع القيود ويلقيها على الكوم الذي بدأ يعلو ... يدور حوله في صمت ... يبصق عليه ... ثم يعود ادراجه صاعدا السلم حتى حجرته .

استمرت المواكب ... تهبط وتصعد حتى ساعة متاخرة من الليل ...

اجسام المساجين تلقي بظلها على الجدران في الضوء الضعيف المنبعث من سقف الممرات ... وكان العنبر امتلأ بالاشباح ... ورنين القيود تسقط فوق كسوم الحديد ... وصفوف صامتة ترتفع في الادوار ، تطسل من فوق الحاجز ... وتشيع اغلالها ، بحقد اسود في العيون ..

***

انفتح الباب في صمت واضيء النور ... استيقظوا فجاة ، والقوا بالاغطية جانبا ... المامور يقف وسط الحجرة ، وضابسط ... وعدد من الحسراس خلفهما ... يرون ظلالهم في الممر خارج الحجرة ...

قال :

«ارتدوا ملابسكم ... واعدوا نفسكم للرحيل» .

«الى اين» ؟

تطلع المامور الى حلمي في صمت واجاب :

«لا اعلم» ...

«اذن لن نرحل ...»

«اذا لم ترحلوا في سلام ... سترحلون بالقوة ... هذه اوامري» .

التقت عيونهم في صمت ... لا فائدة من المقاومة ... لن يصاب احد بالاذى سواهم ... هذه هي حياتهم ... ليست هذه اول مرة ... ولا آخر مرة ... يؤخذون فيها غدرا ويفرض عليهم الاستسلام ...

عبروا حوش السجن في الظلام ... عند الباب الخلفي ... قاطرة وعربة وحيدة فوق القضبان ... عربة للماشية ... نوافذ عليها قضبان ... صعدوا السلم العالي واحدا وراء الآخر ... يحملون اكياس ملابسهم ... وصعد معهم ثلاثة من الحراس ببنادقهم وضابط ...

سار القطار بطيئا في الليل مدة تزيد عن الساعة ... ثم توقف... اطل حلمي عبر قضبان النافذة ... وقال :

«نحن خارج محطة مصر» .

البيوت على الجانبين ... نوافذ ، وشرفات ، وجدران صامتة ، تغط في النوم ... موحشة ... تغلق نفسها ضدهم ... لا صديق ... ولا قريب ... ولا يد تلوح ... لا احد يحس بوجودهم ... محمولون في عربة للماشية ... في السر ... في الظلام ... الى اين لا يدرون ...

صعد صوت دافيء من داخل العربة يغني :

«بلادي ... بلادي ... لك حبي وفؤادي» .

سكتوا يستمعون ... نور ... ثم بالتدريج انضمت اليه اصوات اخرى ... مترددة ضعيفة ... ثم اخذت تقوى ... وتعلو ... كالنداء ...

راسه ، والكافيين يصيبه بدوار لذيذ ... صوت الحارسين ... يرتشفان الشاي عبريا في ضوء الشمس ... يثرثران عن شئون الاسرة ... عيون تحملق فيهم بفضول ... تعودوا منظر الهابطين من «المحاريق» ... لباس ازرق ، وقيود ، وحراس ... «العدس السنة دي ما جابش ثمنه .... جلنله نصلح التابوت الجديم بدل ما نشتري غيره» ... يتامل ويسمع بهدوء ...

جاء قطار الصعيد ... أسيوط ... وصوت البخار ... ورنين الجرس .. ووداع «مع السلامة ... سلم عليهم جوي .. وجلهم منتظرينهم بفروغ الصبر.. هيا يعني مصر احسن من البلد دي» ...

الشمس تسقط خلف الحقول ... قرص احمر وهاج ... ينحصر ... دائرة ... ثم نصف دائرة ... ثم نقطة ... ثم لا شيء ... تترك الليل يزحف وراءها ... ونجمة الشمال تبرق في السماء ... سوهاج ... المنيا ... واللهجة الممطوطة في الكلام ... بني سويف ... الان يقتربون من القاهرة ... الحارس نام بجواره ... تسقط يده من فوق ركبته ، فتضغط القيود حول معصمه ... احس بالضيق ... هذا الالتصاق المستمر بشخص آخر ... كانك جزء منه يحركه حيث يريد ... تململ في جلسته بحيث يوقظه ... واحس بالرضى عندما انقطع الشخير ... عيناه تبحثان حوله ببلاهة كانه لا يعرف اين هو ... هذا الخليط من الطيبة والغلظة ... تعامل معها منذ سنين ... درس كل تفاصيل هذه العقول ... يعرف مقدما ماذا سيقولون ...

«اظن لن نستطيع ان نصلي العشاء حاضرا في سيدنا الحسين» .

يرتكبون الآثام ... ويغسلون آثارها بالصلاة ... الزبيبة تلمع قاتمة فوق الجبهة ..

تثاءب زميله بصوت عال ... رفع البندقية الى اعلى واسقطها من جديد ... اصطدمت بالارض فايقظت النائمين ... راى عيني الطفلة تطلان في قلق ثم تنغلقان ...

«لا يا شاويش محمد ... سنصل بعد العاشرة مساء ...»

اخرج ساعة ضخمة ، عتيقة من جيب سرواله ... وضعها على اذنه ... ثم استطرد : «الساعة التاسعة الان» .

ظل صامتا طوال الطريق ... في مثل هذه الرحلات كان يتحدث معهم ... علاقة لا بد منها لتسهيل الاشياء ... ومعلومات يلتقطها من افواههم عما يجري في البلاد ... ولكنه هذه المرة عزوف عن الكلام ... ليس في حاجة الى معلوماتهم ... الليلة سيكون في القاهرة ... وغدا ... ذهنه يقفز الى الامام.. يسبق القطار ... يسرع قبل الزمان ..

اطل من النافذة ... لا يرى شيئا ... الحقول بحر من الظلام ... اسند جبهته على الزجاج ... لماذا تاخروا هكذا ... كان من المفروض ان يصلوا قبل التاسعة ... احس بالقطار يبطيء ... لا بد انهم يقتربون ... حملق في الظلام ... لا شيء ... لماذا ابطأ اذن ؟.. التفت الى داخل العربة ... هذه

المراة ... شعرها ابيض .. ووجهها حزين ... ترى ما حياتها ؟.. تطلعت اليه عيناها في صمت ... فابتسم لها ...

قالت :

«انفراج ان شاء الله يا بني ...؟»

«ان شاء الله يا ست» ...

«ربنا يفرجها عنا جميعا ... من اين جئت ..؟»

«من الواحات ...»

«والدتك عايشة ... يا بني» ؟

«نعم ...»

«ربنا يعطي لها الصحة ... قلب الام وحده هو الذي يشعر ...»

حقيقة لم يكن يدركها عندما كان شابا ... ادركها فيما بعد ... عندما مات ابنه البكر يوسف ... وعندما راى نادية بعد ان مات ... جاءت لزيارته في السجن ... جاءت تقول له ما حدث ... لا تتهرب ابدا ... تواجه دائما ما ينبغي ان تواجهه .

تنهد ... لا يريد ان يفكر في هذا الان ... اغلق ذهنه كمن يضغط على مفتاح النور فيطفئه ... اصبحت لديه هذه القدرة ... ان ينحي جانبا ما يريد ان ينحيه ... فالسجن عالم مسكون بالاشباح والكوابيس ... ينبغي ان نتعلم كيف نطردها ... لنطرد معها احتمالات الجنون .

عاد يطل من النافذة ... فجاة راى انوارا قليلة مبعثرة تضيء في الظلام ... تتجمع ... وتتفرع ... ضواحي ... وشوارع ... وميادين ... كالبحر ترقص فوقها زوارق الصيد ... كسماء تهتز فوقها النجوم ... مئات الانوار.. آلاف الانوار كالجواهر تومض في الليل .. دق قلبه ... وانتفخ تحت الضلوع.. القاهرة ... قاهرة الاحلام والشباب ، والفصول ... كاد ان يبكي ... القاهرة ... كالوحش المستكين الاليف ... مدينة بلا نهاية يخترقها القطار ... وقع الجلات على القضبان دقات قلبه ... كوبري ابي العلاء ... النيل ... كشريان الحياة ... بريق الالوان فوق سطحه الهادىء ... وعند الضفاف ... يتخيل الناس حول الموائد ... والحديث ... واكواب البيرة والليمون ... يحملق بعينيه في الانوار تمتد بلا نهاية ... ترى اين منزلهم وسط هذا المهرجان ... السعادة ... السعادة كما لم يعرفها من قبل ... تنفجر في كل كيانه ... عنيفة ... متاججة ... العائد الى مدينته بعد فراق طويل ... يلف ذراعين من الاحساس حولها ويحتضنها ... في اعماق النفس ... نقطة في هذا الكون الواسع يتجه اليها ... نقطة واحدة بين هذه الملايين تنتظره هو بالذات ... ملكه هو بالذات دون سواه ...

محطة مصر ... آلاف الناس يسيرون هنا وهناك ... اضواء النيون تلقي عليهم شحوبا غريبا كالاموات ... كشك الجرائد والمجلات ... سيل متدفق

يهرب من الابواب ... تاكسيات وسيارات ... البوكس الرمادي ينتظر ... يفتح فاهه ليبتلعهم ثم يسير ... ميدان باب الحديد ... وشارع ابراهيم باشا ... الاوبرا ... شارع محمد علي ... مآذن عالية ترفع اضواءها للسماء ... القلعة رابضة فوق المرتفعات ... ،

صبي اعرج يحمل صندوقا من الحلوة ... اربعة اصابع نعناع وقليل من اللب ... يقف امام البوابة الصامتة ... لا مكان يأوي اليه ... فالوقوف هنا كالوقوف في اي مكان ... سيان ... صرير المفاتيح ... احنى راسه ليمر من الفتحة الصغيرة ... ورفع قدما بعد قدم ليمر فوق الحاجز المنخفض ... يعرف الطريق جيدا ... كم من المرات سار عبره ... الاضواء القاتمة ... والحوش الصغير ... ومبنى الادارة ... ضابط نوبتجي يتثاءب ويقول لشاويش الليل :

«ادخله الى العنبر ... حضر للافراج ...»

***

نعم حضر للافراج ... ولكن لكل شيء نظمه وطقوسه ... والافلات من بين انياب السجن لا يتم بسهولة ... هناك دروس اخيرة ينبغي ان تتلقاها حتى تكمل كل الفصول ... فربما يكون الدرس الاخير هو اهم الدروس ...

مرت ثلاثة اسابيع ... كيف ؟ لا يتذكر ... يعيش كالآلة ... لا يفكر في شيء ... ولا يتخيل الايام القادمة ... ولا حتى يحلم ... حالة غريبة لم يعهدها من قبل ... كأنه فقد الاهتمام بما سيجري ... ربما لانه لا يعرف ماذا سيكون المصير ... فقد يخرج الى العالم الواسع ، وقد يعود من حيث جاء ... لا داعي اذن للآمال ... كانت النفس تتهيأ وحدها لكل الاحتمالات ... فتنتحر ... تقتل كل احساس ... تموت موتا طبيعيا هادئا ... من تلقاء نفسها ... تترك القدر يتصرف ... تحيا بلا مبالاة ...

ثم جاء اليوم ... كان يطل من فوق الحاجز الحديدي يتتبع حركة العنبر عندما سمع صوتا يصيح ...

«انزل الافراج ...» مسجون يقف في الدور الارضي عند باب العنبر ... ويقرأ بصوت عال من كشف يحمله في يده ...

مصطفى عبد العزيز حمدان

علي علي حسنين

موسى محمد الحمار

عزيز محمد عمران ...

تسلم اماناته في المكاتب ... وسلم على الضابط ... البوكس الرمادي ينتظره ... والحارسان ... وقيود تلتف حول يديه ... اسرعت السيارة عبر الطريق ... شارع محمد علي ... ميدان العتبة ... شارع عبد العزيز ... شارع نوبار ... على الناصية مبنى يعرفه جيدا ... المباحث العامة ...

صعدوا السلالم ... الشاويش معه خطاب ... سأل :

«حضرة المقدم بهاء الدين محمود ...؟»

«لم يحضر بعد ...»

جلسوا في حجرة خالية ... مكاتب مهجورة ... ومقاعد وتراب ... جدران لونها رمادي قاتم ... كالبوكس الذي يحمله في تنقلاته ... اخذ يدخن في صمت ...

المقدم بهاء الدين محمود ... جسد بدين ترهل قبل الاوان ... ووجهه مستدير ... يجلس على مقعده خلف المكتب ويضع يديه امامه متشابكتين ... عرقه غزير يمسحه بمنديل ابيض ... وعيناه عسليتان تضيقان وتتسعان ... بدا :

«اسمك» ؟

«دكتور عزيز عمران» .

«سنك» ؟

«ست وخمسون سنة» .

«مهنتك» ؟

«طبيب» .

«حكمك» ؟

«خمسة عشر عاما اشغال شاقة» .

يكتب في مفكرة سوداء بعناية بعد كل سؤال دون ان يلتفت اليه ... نحاها جانبا ومال الى الامام ...

«ماذا ستفعل اذا خرجت» ؟

اذا خرجت ... بدأ الصراع ... عاد كما كان ... عقله يفكر الان ... ويحسب .. وتحت الضلوع انفعال مكتوم ..

«لا اعرف» .

«كيف ... لا تعرف ؟.. هل هذا معقول ...؟»

«بعد خمسة عشر عاما ...؟ اعتقد انه معقول» ...

ابتسم .. ابتسامة فيها ود ... وتشجيع :

«نريد منك ان تنسى ما فات ...»

«لم يفت بعد ...»

اخرج منديله ومسح العرق ...

«لن تنفعك المرارة في شيء ... ما فات انتهى» .

صمت ... ماذا يريد منه الرجل ... فلينتظر ...

«هل انت شيوعي ؟»

العينان تضيقان الان ... مع الكلام ... كل جملة لها مقاسها ... مسألة محسوسة ..

«ماذا تقصد بالشيوعية ؟»
مال الى الوراء ... ونقر بأصابعه على المكتب ... انذار ...
«لسنا في تحقيق ... انا انصحك كاخ ...»
دائما ينصحون كاخوة ... ولا يفكرون الا في مصلحتك ... أحس بالغثيان ... استطرد :
«اقصد هل انت منضم الى تنظيم شيوعي ...»
«لا» .
ابتسم في شيء من السخرية :
«ولماذا حكموا عليك اذن ...»
«اسأل المحكمة العسكرية ...»
انفجر في غضب :
«أجب على اسئلتي بالذوق» .
«لم اخرج عن حدود الذوق ... الا اذا كان الذوق يقتضي ان اجيب بما تريده انت» .
هذا ... عصبيته يجس بها النبض ... ويحاول ارهابه ... انهم يعرفون.. خمسة عشر عاما في السجن وباب مفتوح ... للخروج .. للحياة ... آمال تبعث من جديد ... لا يتركون اية فرصة ... يعتصرون ضحاياهم حتى النهاية ان استطاعوا ... بل يعتصرونهم اكثر بعد النهاية ... فاذا سقطت مرة لا يرحمون ... يمتصونك الى آخر قطرة ... كالعظمة بين انياب الكلاب .
«ما علينا ... لم تكن منضما الى تنظيم في الماضي ..»
«ان خرجت هل ستنضم الى تنظيم ..؟»
سؤال يبدو غبيا ... فليجب ... لن يخسر شيئا ...
«لا ... لن انضم الى تنظيم ..»
«وافكارك» ؟
«افكاري من حقي» ... هكذا صرح الرئيس ...
بدا عليه الضيق ...
«انت ماركسي اذن ...»
«نعم ...»
تململ في جلسته ... واخذ يبحث فوق مكتبه ... اصابه السهم ويريد ان يخفي اصابته ... لم يتغيروا حتى في ظل التغيير ... أخرج الخطاب وكتب عليه كلمات بالحبر الاحمر .
دق الجرس ... دخل احد الشرطة ...
«سلمه للحرس ...»
تردد لحظة ... خطر له ان يسأله الى اين سيذهبون ... ثم سكت ... لا داعي .. سيفرح بالسؤال ... ويحاوره ..
أسرع بهم البوكس من جديد يمر الشوارع ...

ميدان السيدة زينب ... ضابط شاب يجلس على المكتب رفع عينيه اليه وحملق فيه لحظة ... ثم صاح :

«يا شاويش عبد الغني» نزله في التخشيبة ...

***

هبط السلم في نصف الظلام يسند يده على الجدار ... احس بالرطوبة في كفه ... ورائحة من العفونة في الانف ...

وقف امام الباب ... خشب قديم حفر كل شبر فيه بالشتائم والدعوات.. علاقة ما تربط بينهما ... الفسق والتدين ... في السجون ... والمراحيض.. وبيوت الدعارة وكوة حديدية تفتح بدفعة من اليد ... ضجيج اصوات ، تعلو بعضها في عراك ... صمتت عندما دار المفتاح في الباب ... دفعه الشاويش بيده الى الداخل واغلق وراءه ... وقف مكانه يحاول ان يخترق الظلام بعينيه .. ثقب عند السطح مغطى بالسلك يتسلل عبره بصيص من النور ... رائحة العفونة تشتد ... تعود انفه على شتى الروائح في المستشفيات والسجون ... ولكن هذه الرائحة لا سبيل الى تفاديها ... لا سبيل الى تفاديها حتى اذا أغلقت انفك وضغطت عليه بالاصابع ... كالغاز الثقيل السام تسرب الى هذا الكهف منذ سنين ، ورقد فيه دون تغيير ... رائحة مركبة من كل افرازات الانسان ، تتراكم يوما بعد يوم في جوف الارض ...

عيناه تعودتا الان على هذا الظلام ... اجسام كالوطاويط الضخمة تنام على الارض ... مكومة في الاركان ... جالسة بجوار الجدار ... او وسط الحجرة ... بعضهم يقفون ... اولئك الذين وصلوا مثله في الآخر ... فلم يجدوا مكانا للجلوس .

رجل يجلس عاريا ... شعر منكوش ، ووجه يختفي تحت لحية غزيرة ... هيكل نحيل سقط في الكهف ... ولم يعد قادرا على الخروج ... يفتش في اسماله ... حركاته بطيئة كأن الزمن طويل ... منهمك ... يبحث باهتمام وتركيز ... كأنه لا يوجد في الوجود ما يستحوذ على نفسه سوى هذا التفتيش الدقيق المتأني عن القمل يختفي في ثنايا القميص ... ينزع القملة من مكانها.. يضعها في كفه ، ويتأملها لحظة وهي تزحف هاربة ... ينقلها بين الاظافر ويسحقها ببرود ... ثم يعود باحثا عن غيرها ... يحيا في عالمه وحده ... منقطع عن كل ما يدور ...

الى جوار الباب ، حيث يقف ، شيء مكوم في الركن ... رأس ... وكتفان ... وجذع ... وساقان ... احدهما مبتورة عند الركبة ... ملفوفة برباط في لون التراب ... وعكازان مسنودتان على الجدار الى جواره ... اخذ يفك الرباط بهدوء ... يلفه بأصابعه ... لفة وراء لفة ... حتى كشف عن

الساق ... جرح مفتوح عند الطرف ... مساحة متقيحة غاضبة يسيل منها دم وصديد ... مسحها بخرقة قذرة اخرجها من جيبه ... اعادها الى مكانها ... ثم اخذ يلف الرباط حول الساق المبتورة من جديد ... رائحة الصديد تصعد من الركن كالغثيان ... وتنتشر في الهواء بالتدريج ...

حجرة لا تزيد مساحتها عن عشرين مترا مربعا ... ازدحم فيها عشرات من الناس ... جدران ، وبلاط ، وجردل للمياه ... وجردل للبول ... حثالة السيدة زينب : قوادون ، وشحاذون ، وبلطجية ، وتجار مخدرات بالقطاعي ... فكبار التجار ، واللصوص يعرفون طريقهم ... بضعة جنيهات تنقلهم الى حيث يريدون ... بين الحين والحين يفتح الباب ليلقي في داخل الحجرة بحطام جديد ... كالفضلات تلقى في صندوق للقمامة ... لا احد يفكر في حيز المكان ... الجالس او النائم يبقى مكانه ... بوضع اليد ، بحكم الاسبقية ... والباقون يقفون ... اجساد ملتصقة ...تختلط الانفاس بالانفاس ، والعرق بالعرق ... يبصقون على الارض ... وفوق الجدران ... فكيف يستطيع احد ان يشق طريقه عبر الزحام ليصل الى جردل الفضلات ... يزحف البق ثقيلا فوق الجدران ... وينتقل القمل بالعشرات من بين الاجسام ...

احس انه سيختنق ... لم يعد يستطيع ان يلتقط أنفاسه ... كادت صرخة ان تنطلق من صدره ... كأن الصرخة ستزيل ثقلا فظيعا جثم فوقه ... دوار في الراس ، وصوت كأمواج البحر يطن في اذنيه ... اخذ نفَسا عميقا فدخل الهواء الثقيل في الرئتين كالمياه تغمر الغريق عندما يفتح فاهه ... لا يستطيع ان يتحمل ... ضرب بقبضة يده على الباب ... كالمستغيث ... لمح رجلا الى جواره ... ملامح منحوتة كالمربعات ... الانف والاصداغ ... والحواجب فوق العيون ... فيها ثقل واستقرار ... كأن لا شيء يستطيع ان يهزها ... العينان تطلان عليه ... لا تظهر شيئا ... قاسيتان في هدوئهما ، في خلوهما من الانفعال ...

قال :

«ما عليك ... يا استاذ ... ستتعود ... كما تعود الكثيرون ...»

نبراته فيها شيء من الازدراء ... تمالك نفسه ... فأحس ان الرائحة العفنة تضعف بالتدريج ... وان الهواء يدخل ويخرج من صدره بسهولة اكبر.. نقل ثقله من قدم الى قدم ... اخذ يتتبع الناس في الحجرة فانشغل عن احساسه بالحصار ...

قال الرجل :

«لماذا وضعوك هنا» ؟

«سياسي» .

«آه ... سياسي ... والى اين ؟»

«ربما افراج» .

سكت الرجل ... مال بظهره على الجدار واغلق عينيه ... كأنه ينام ...

اظلمت الكوة تماما ... فاضيء النور الكهربائي من الخارج ... ودار المفتاح في الباب ... دخل احد الشرطة حاملا معه رزمة من الارغفة ... تناولها منه احدهم ، واخذ يوزعها على من في الحجرة ... فدار العراك ... انفضت عشرات الايدي تنتزع الخبز ... فالعدد كبير ... «والجراية» او «التعيين» كما يسمونها لن تكفي ... ارتطم به جسد ثقيل فكاد ان يقع على الارض لولا الزحام ...

دار الشاويش بعينيه حول الموجودين ...

«من معه نقود نشتري له ما يريد» ؟

امتدت بعض الايدي بالنقود ... كل منهم يحدد طلبه ..

«احضر لنا طعمية ... ومخلل ... وقطعة من الجبن وعلبة سجاير «هوليود» صغيرة ...»

اغلق الباب واختفى ... جزية تفرض عليهم ... سيعود بجزء من الاشياء ويحتفظ بباقي النقود لنفسه ... فنزيل التخشيبة ضائع ... فريسة في يد الشاويش ... ورؤساء الشاويش ...

النور الكهربائي يضيء الحجرة ... في الليل يرون اكثر من النهار ... ويستيقظون ... حديث وضجيج ... بعضهم يلعبون الكوتشينة في احد الاركان ... يلقون الورق على الارض بعنف فيصفر في الهواء كالكرباج ... وتنتقل القروش بسرعة من يد الى يد ... رجل نحيل اسمر كعود الاذرة المحروق يخرج شيئا من جيبه ... كتلة سوداء لزجة ملفوفة في ورق سلوفان ... ياخذ منها قطعة صغيرة في حجم راس الكبريت يضعها بين الصدغ والاسنان ... افيون ... وآخر يفرك الحشيش في كفه ويخلطه مع الدخان ... حياة الليل تبدا حتى هنا ... وبحث عن دنيا في الخيال ...

مرت الساعات بطيئة ... لا يشعر بالجوع ... ولكن العطش يجفف لسانه وحلقه . يمكنه ان يشرب من جردل المياه ... احس بالغثيان لمجرد الفكرة ... فنحاها جانبا بسرعة ... ساد الصمت بالتدريج ... اصابهم الاعياء ... فاستسلموا للنوم واحدا واحدا .. علا الشخير في الحجرة ... وشيء كالأنين .. من حين لآخر سعال متصل مختنق ... يرى الشفاه الزرق تحت الانف ، واعوجاج الملامح ، ورذاذ اللعاب ... او يسمع غازاته تنطلق من تحت الثياب .. لا احد يتحرك ... فلا مكان للحركة .. يتكورون فوق الارض ... او عند الاركان ... وجوه منحوتة في العذاب ... حتى عندما تنام ..

تنبه لحركة على يمينه ... الرجل الذي تحدث معه ... بجواره شاب ينام .. يده تزحف فوق السروال في حرص ... تشد عليه ... تعري الارداف ... تململ الشاب في نومه والتفت بوجهه ناحيته ... فمال عليه بثقل جسمه .. وهمس :

«اسكت يا ابن القحبة ...»

لف ذراعيه حوله والصق بطنه بالارداف ... راى حركة جسده تعلو

وتهبط ... وصوت انفاسه تلهث ... ادار وجهه بعيدا عندما وقف الرجل ... كانه لم ير شيئا ... شد الرجل سرواله حول بطنه ووقف ... بعد قليل التفت ناحيته ... فوجده يحملق فيه ... بنفس الهدوء البارد ... عينا حيوان تنتظر الفريسة ... انتابته قشعريرة كالحمى ودق قلبه بالخوف ...

مكث يومين هكذا ... اصابه اعياء شديد ... يحيا على اكواب من الشاي.. وسجائر ابتاعها بنقوده ... يقتطع منه الشاويش جزية عالية ... فهو افندي سياسي .. والضريبة هنا تصاعدية ... حسب المقام ... في اليوم الثالث عاد في البوكس الى مبنى المباحث ... ضابط آخر برتبة اعلى ... عقيد .. دار الحوار من جديد ... نفس الحوار تقريبا ... اختلاف في التفاصيل .. ونوتة سوداء يدون فيها بين كل سؤال .. ولكنه فهم الان ... كل هذا الصراع المستتر ... محاولة اخيرة للتأثير ... سيفرجون عنه بالتأكيد ... والا لما بذلوا كل هذا الجهد المستميت .. آخر درس يلقنونه اياه ... ذق طعم السجن حتى الثمالة ... واشرب الكاس الى نهايته المرة ... حتى لا تعود ... سنتركك تذهب .. ولكن ليس بسهولة ... لا بد من ان تخرج حطاما ان امكن ..

كل هذا لم يعد يهمه في شيء ... يحس في اعماقه انه منتصر ، ولكنه يخفي في اعماقه هذا اليقين ... فليفعلوا ما يريدون به ... وليشترك معهم في الفصل الاخير ... مسرحية يلعب فيها كل منهم دوره ... لعبة لذيذة لانه يملك الزمام ... ولكنه حريص ... ثابت على موقفه .. يوزن الكلام .. لا داعي لان يعطي لهم اقل فرصة ... حتى لا يعيدوه الى الواحات في ثوب جديد ...

في نهاية اليوم ... ارسلوه الى قسم المنيل ... خطوة اخرى ... زحف بطيء نحو النهاية ... دخل عليه الشاويش في الصباح الباكر يحمل لفة طعام وورقة صغيرة مطوية ... فتحها :

حبيبي وصديقي وزوجي ...

نحن في انتظارك ـ

نادية ...

★★★

«نحن في انتظارك» .

دلف من باب العمارة ... يحمل كيسا في يده ... عينا البواب تتبعانه في استطلاع كالغريب ... المصعد يزحف عبر الادوار بطيئا ... مرآة تعكس وجهه.. نحيل محروق ... شمس الصحراء ، والجفاف ... والعمل المضني في الحقول ... يفحص الملامح بفضول ... كانها ليست ملامحه ... يراها لاول مرة منذ سنين ... احساسه بالاشياء فيه فتور ... كانها لا تصل الى ذاته .. وانما تتحرك مستقلة عنه ، خارج الحدود ...

دق جرس الباب ... ليس بابه هذا الذي يدقه .. قرا الاسم على اللوحة..

نادية علي شكري ... من تكون نادية علي شكري هذه ... يحس انه لا يعرفها ..
ظل الباب مغلقا في وجهه ... ربما لا يوجد احد في البيت ... نظر الى معصمه .. الساعة العاشرة والنصف ... ربما لا تزال نائمة ... وقف مترددا كأنه لا يعرف هل يبقى ام ينصرف ... هذا اللقاء الذي تحرق اليه شوقا عبر الليالي ، وعيناه مفتوحتان في الظلام ... ينتظره الان بنوع من الانفصال ...
دق الجرس ثانيا ... سمع خطوات في الداخل ... ثم صوت يسأل من خلف الشراعة :

«من ... من يدق الجرس ..؟»

قال :

«انا ... انا عزيز ...»

وجدته يقف على العتبة ... يحمل كيسا ابيض ... رجل اسمر نحيل .. شعره شاب .. وخطان محفوران على جانبي الانف المستقيم ... يقف كأنه لا يعرف هل يدخل ام لا ...

«عزيز ... عزيز ...»

اختنق صوتها قليلا ... تقدمت نحوه واحتضنته بذراعيها ... احس بجسمها يلتصق به ... احساس يأتيه عبر سياج ... قبلته ... ما زال يقف حاملا كيسه ... ابتعدت عنه وسألت في صوت ارتعشت نبراته :

«عزيز ... لماذا تقف هكذا ...؟»

اخذت منه الكيس ... امسكت بيده وقادته عبر الصالة الى حجرة النوم.. عيناها تتطلعان اليه ... عينان سوداوان واسعتان ... تلفان حوله كأنما تريد ان تطمئن على جسمه ... هل ما زال سليما ... جلس على طرف السرير امامها .. كأنه ضيف حضر لزيارة مريض ... قالت :

«اخلع السترة وارح جسمك على السرير ... لا بد انك متعب ...»

لفت ذراعيها حول كتفه ... ووضعت وسادة خلف ظهره ... اسند ظهره عليها وساقاه تتدليان من فوق السرير على الارض ...

«الا تريد ان تخلع حذاءك ؟.. اتركه سأخلعه لك ...»

اشار اليها بيده ... وقال :

«لا ... سأخلعه انا ...»

انحنى وخلع الحذاء والجورب ... قام ليبحث لهما عن مكان يضعهما فيه.. يخجل من رائحة الجورب والحذاء ... سار عبر الصالة ودخل من باب المطبخ.. وقف يتأمل الجدران ... والاطباق ... والموقد ... وفناجين من الشاي ما زالت تنتظر الغسيل ... وضعهما بجوار صندوق القمامة ... وعاد . راى المقاعد ، والمنضدة ، والتليفزيون في ركنه المعتاد... وبيان من الخشب الاسود.. وضعت عليه صورا واوان من الزهور ... جلس على طرف السرير ...

اقتربت منه ... وامسكت بيده ... اصابعها طويلة متوترة لا تستكين ...

تستكشف ... وتبحث عن شيء في كفه ... تضغط وتلين ... هذه هي اصابعها ... ملمسها الخارجي ...

قبلته على وجهه فقبلها ... سألت :

«كل شيء على ما يرام ... صحتك ...؟»

«كل شيء على ما يرام ...»

نعم كل شيء على ما يرام ... عيناه تريان ... واطرافه سليمة ... وجسمه قوي .. ربما اقوى مما كان ..

سأل :

«اين سناء ...» ؟

«في المدرسة» .

وقف ... يبحث بعينيه في الحجرة ... يبحث عن لا شيء ...

«ماذا تريد ... احضر لك شيئا تأكله ...»

«لا» وجد المخرج ... «اريد ان استحم» .

«الآن» ؟

«نعم ... بت ثلاثة ايام بلياليها في قسم البوليس ... ملابسي كلها قمل ... »

بدا عليها شيء من الانزعاج ...

«سأعد لك الحمام ... ثم تحكي لي ...»

اخرجت بعض الملابس من الدولاب ... غيار داخلي ... وبيجامة ، والشبشب الذي كان يرتديه ... كل شيء في مكانه ينتظره ... سمعها تضيء موقد البوتاجاز ...

دخل الى الحمام ... صابونة جديدة معطرة ، ومنشفة بيضاء ... خلع ملابسه والقى بها على الارض ... فتح الصنبور ... المياه تنهمر عليه دافئة .. يدعك بالليفة والصابون ... الان يشعر بنوع من الهدوء ... اراد ان يكون وحده ... ستسأله عندما يخرج عن هذه الايام ... ليست به رغبة في ان يحكي ... ربما يكون متعبا ... كل شيء سيان ، لا يثير حماسه ... يريد ان ينظف نفسه ، وأن يرتدي ملابس بيضاء ، فيها رائحة الصابون ... ان يشرب فنجانا من الشاي ... ويدخن سيجارة ... ان يجلس في حجرة المكتب يتتبع ما يدور في المنزل ، دون كلام ... لا يريد ان يسأله احد ... ولا أن يقول شيئا ... يريد فقط ان يجلس .. ويستريح ...

***

انه لا يرى نفسه تماما ... ولكن نادية هي التي تراه ... ترى اشياء لم تعهدها فيه ... اشياء تطعنها في الصميم ... ليس هذا هو عزيز الذي عرفته ... واحبته ... قلبها يقول «في اعماقه ما زال نفس الانسان ...

مدفون تحت الانقاض» ... انها تحس بالحيرة احيانا ... لم تمر بمثل ما مر به ... فيصعب عليها ان تدرك ما يدور في اعماقه ... في الليل عندما ينام الى جوارها صامتا تحاول ان تجره الى الكلام ... يضيق بأسئلتها ويغضب احيانا .. ويحتمي وراء الصمت من جديد ... كأنه اقام قوقعة حول نفسه ... وانسحب داخلها . ما الذي جرى له اثناء السجن ؟.. انه لا يحكي الا القليل ... كثيرا ما تسأله عن نفسه ... عن الدوافع الخفية ، والمشاعر ، والصدمات ... عن علاقاته بالآخرين ... فهي تحبه وتريد ان تفهمه ... وهي تكتب ... تستهويها مثل هذه الاشياء ... تحس بالحسرة لانه لا يجيب ... كنز بين يديها ... في صندوق مغلق ...

ليس هو عزيز الذي احبته ... هو ، وليس هو ... تحس انه يعاني ... تقف على الشاطىء وتراه ... تمد له يد العون فيمسك بها احيانا ... ويرفضها اغلب الاحيان بعناد من يدافع عن كيانه ... عن صورة لنفسه تتلاشى بالتدريج.. هكذا مضت الايام ... تشاهد ما يجري ... هكذا دخلت في دوامة الصراع ... تدافع بكل ما أوتيت من قوى ... عن اشياء تؤمن بها كاليقين ...

مكث الشهرين الاولين في البيت لا يخرج الا قليلا ... اقاربه واصدقاؤه يزورونه في المنزل ... هدايا ... واحضان ... وابتسامات ... وكلمات حارة فيها ود ، وترحيب ... «مبروك ... الحمد لله على السلامة ... افتقدناك طويلا» ... لم يكن عددهم كبيرا ... فقد تفلصوا مع الزمن ... الموت اختطف البعض .. والخوف اختطف البعض الآخر ... والباقون ما زالوا خلف الاسوار ينتظرون دورهم ... فيجلس بينهم هادئا ... لا يشارك في الحديث الا نادرا.. يتتبع حكاياتهم ... وضحكاتهم ، وحركة الايدي ، والاجسام بعينين مفتوحتين فيهما تأمل ... كأنه ليس محور ما يدور ... بل مجرد متفرج أوجدته الظروف في هذا المكان بالصدفة ... فبعد قليل يعتذرون بموعد سابق ... او طول الطريق ... او وجود الاطفال وحدهم في المنزل وينصرفون ... وعندما يصبح وحده من جديد تبدو عليه علامات الارتياح ...

ولكنه لا يفعل شيئا في وحدته ... يجلس على مقعد في حجرة المكتب ... يشرب اكوابا من الشاي ويدخن ... يتصفح عناوين الصحف والمجلات . ويلقيها جانبا ... يدور في حجرات المنزل ؛ ويتأمل الصور المعلقة على الحائط ... وقطع الاثاث ... والبيان ... يلمس الاشياء بأصابعه ... كالاعمى يتعرف على ملامح الاشياء ... يقرأ عناوين الكتب المرصوصة فوق الرفوف ... يصعد على السلم ليصل الى الرف الاخير ... يسحب كتابا ويقلب صفحاته ... ثم يعيده الى مكانه ... يهبط الى الشارع ويمشي الى جوار النيل ساعة او ساعتين ثم يعود.. صامتا كما خرج ... يتحدث مع سناء حديثا هادئا متصلا . ويبتسم ؛ ويضحك معها احيانا ... ثم يقوم فجأة ويختفي في حجرة المكتب ... يوصلهم في الصباح بالسيارة ... سناء الى المدرسة ، ونادية الى هيئة المسرح ... ثم يعود ...

وينزل ثانيا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ليلتقطهما ... يبتاعون بعض احتياجاتهم في الطريق ... ويصعدون الى شقتهم الصغيرة في الدور السابع .. ولكن احيانا في بعض الايام ... يقول لها «سأبقى انا ... اذهبي انت مع سناء» ...

في الايام الاولى كان عزوفا عن الاكل ... يضع الطبق امامه ... يتناول منه كمية قليلة ... يتوقف بين لقمة واخرى ويسرح في شيء بعيد ... ترى اصداغه وقد توقفت عن الحركة ، وكانه يحتجز الاكل في فمه ... تضحك معه وتلح عليه فيمتنع بشيء من الضيق ويطلب منها ان تتركه لحاله ... انها تعامله برقة فلماذا يقابل رقتها بهذا الجفاف ؟.. اشياء صغيرة ولكنها بالنسبة اليها اهم الاشياء.. اعاد اليها كل ذكرياتها الاليمة ...

المراة في هذه الحياة دائما مظلومة ... منذ ان تولد حتى تموت ... صارعت طوال حياتها وحفرت لنفسها مكانا في الصخر ... لم تعتمد على انوثتها ، ولا على العلاقات ، انتظرته حتى عاد ... عاشت حياتها وحدها في مواجهة الذئاب ... يتربصون بها في كل مكان ... عرفت الوحدة ... والعذاب ... ولكنها لم تلن ... تروح وتجيء وتحمي الاولاد ... وتسهر الليالي امام مكتبها حتى يولد الكتاب ... قالت لنفسها ... ينبغي ان يعرفوا من انا ... ومن هو عزيز ... الذين يريدون ان يطعنوها في الغياب ...

والآن عاد عزيز ... لم يفكر في كل هذا ... صعدت الدموع خلف مقلتيها.. انه ككل الرجال .. ذلك الرجل الذي احبته لانه مختلف ... انه ككل الرجال... يدوس على مشاعر من يحبونه .. على الأم ... والزوجة ... والمراة بالذات .. على الاضعف ... او على من يظنون انهم اضعف ... انها لن تجاريه بعد الان .. السن بالسن ، والعين بالعين ... هذه هي لغة الحياة ... السنون التي قضاها في السجن ليست عذرا له ... ما هذا الجدار من الصمت الذي اقامه حول نفسه ؟ ولماذا تفتقد فيه تلك الاشياء التي عرفتها من قبل فيه ... احيانا يعود كما هو ... احيانا ... تقرأ في عينيه لمسات الحنان ... ينطلق ، ويبوح عن اشياء في صدره ... تكتشفه من جديد ... ثم يختفي وراء الغيام ... هل يمكن ان تكون قد اخطأت ... مجرد الفكرة تملأ نفسها بالعذاب ... لا ... لا يمكن ان تكون قد اخطأت ... ان صحت مخاوفها مستبشرة من حياتها ... هكذا ... في لحظة ... ولكن ليس الان .. ليس الان .. الحب يعطي للانسان صبرا طويلا ... وكلما كان الحب عظيما ... كلما كان الصبر اطول .

حملقت في عينيه ... مقلتان تطلان عليها ... غلالة خفيفة من الحزن ... احست بقلبها ينقبض خلف الضلوع ... انها تحب هذا الحزن احيانا ... ولكن لمَ الحزن ؟.. خرج من السجن سليما قويا ... افلت بينما لم يفلت الكثيرون .. عقله صاف ، وارادته قوية ... تنتظره اشياء كثيرة ... ان اراد ... فلماذا لا يقبل على الحياة ..؟ الصبر ... كل شيء له اوانه .. كل شيء ينضج بالتدريج ... مستحيل ان تكون قد اخطأت ... مستحيل ... ترى فيمَ

يفكر ... فيمَ ...؟
رن صوت سناء صافيا :
«يا بابا ... انت مش بتاكل ليه ؟»
التفت ناحيتها وابتسم ... الوحيدة التي تبعث فيه الابتسام في كل الاوقات :
«سآكل ... يا حبيبتي ... سآكل ... ماذا فعلت في المدرسة اليوم ...»
«حضرت الدروس ... ولعبت تنس في الفسحة مع اصحابي ... ورسمت صورة حلوة جدا ... اوريها لك ...»
انطلقت نحو حجرتها دون ان تنتظر الرد ... وعادت تحمل ورقة بيضاء كبيرة صورت عليها منظرا لنهر فاض على شاطئيه واغرق القرى والحقول ... خطوط الرسم والالوان ... مزيج يبدو غريبا ... ولكنها تفاجئك ... بجديتها ... لا قيود على التعبير ...
«جميلة ... جميلة جدا ... انت بترسمي بفن ...»
اشرق وجهها بسعادة ... عيناها مثل امها والحواجب منه ...
استطرد :
«ماذا ستفعلين الان ...»
«سأزور احدى صديقاتي ... ثم اعود لاستذكر دروسي» .
«وانت يا نادية ...؟»
«سأنام ...»
«وبعد ذلك ؟»
«لا اعرف» .
«ما رايك ...؟ نذهب سويا الى جبل المقطم في المساء ...»
خفق قلبها ... ايام الشباب ، كان مكانها المفضل ... يتنزهان في الجو الصافي ساعة الاصيل ... ويطلان على القاهرة من اعلى ... يلفهما الظلام بالتدريج ... وتومض آلاف الانوار ... كالجواهر المنثورة على القطيفة السوداء ...

★★★

منذ تلك الليلة التي قضوها في المقطم حدث فيه تغيير . انه يقبل الان على بعض الاشياء ... ابتاع لنفسه ملابس جديدة ... صاحبته في جولته من مكان الى مكان . احست انه يفرط في الشراء ... كالجوعان وجد نفسه امام وليمة .. فسار يغرف لنفسه من كل الاطباق ...
تناولا غذاءهما في مطعم ... اكلا بشهية وشربا ثلاث زجاجات من البيرة .. وجهه النحيل امتلأ قليلا ... وزحفت الدماء الى وجنتيه ... يضحك ويعاملها

بحنان ... ويثرثر كان سدودا انهارت داخله فانطلق الكلام ... عـادا محملين بأكياس الورق وصعدا الى شقتهما في الظلام ... وجد سناء تجلس على ضـوء الشموع ... تستمع الى برنامج السهرة في الراديو الصغير ... الليلة الخميس وغدا اجازة ... تجمعوا في الصالة عندما عادت الانوار ... فك الاكياس ... واخرج الملابس ... فحصوها باهتمام ... كان قد ابتاع قميصا من الحريـر لسناء ... جلسوا امام التليفزيون ... يشاهدون فيلما لعـوض الامام ... حب ... وفراق ... وحادثة في سيارة ... ومستشفى ... ولقاء من جديد.. وحفلة الزواج .. والزغاريد ... وجسد امراة يرتعش على وقع الطبول ...

اطفأوا الانوار ... وآووا الى الفراش... تنتظره في أغلب الليالي... فيبقى في فراشه سرحان ... تنتقل اليه مترددة ... هذا الرجل كان قد عرف الطريق الى جسدها... ايقظ كل جزء فيه بشفتيه، واصابعه تبعث الدفء والاطمئنان.. يتعامل مع عقلها وقلبها ويعبر من خلالهما الى شهوات تلتهب ... استكشفا سويا عالم الجنس ... عالم متغير ... ظلال والوان ... ظمأ يرتوي ... ويزداد مع الايام .. عالم ليست له حدود ..

ولكنه في تلك الليلة ... اتى اليها ... يداه تبحثان عنها في الظلام ... احاطها بذراعيه ... كم تحب هذا الجسد الذي حرمت منه منذ ان عاد ... تبحث فيه عن الاشياء التي لا تقاس بالخطوط ، والعضلات وقوة الاحتمال ... عن الدفء ... عن الاحساس الذي يولد شحنات فلم تجدها ... وجدت هيكلا خارجيا ... ما زال يجذب عينيها ... ذراعان ، وساقان ، وصدر ... وبطن ووجه احتفظ بملامحه المستقيمة ... ونظرات فيها ذكاء ... ولكن هناك شيء غائب في الاعماق ... كانه تركه هناك خلف الجدران .

ولكن في تلك الليلة احست به كما كان ... فأخذت منه نشوتها واعطتها له حتى الصباح ...

قال لها ... «احبك» .

فبكت ... بكت من السعادة ، والحزن ، والآلام ... بكت كل الايام والليالي التي عاشتها وحدها ...

وبكت ... بكاء مرا طويلا ... على ذلك الطفل الذي ذهب الى غير عودة ... فترك جرحا عميقا لم يلتئم ...

اهتز كيانه ، ولكنه لم يبك ... فلم يكن اذ ذاك قادرا على البكاء ... لم يكن قادرا ... اشياء كثيرة ينبغي ان يبكي لها الانسان ...

***

مضت ليال اخرى نامت فيها بين احضانه... ولكن تلك الليلة كانت فريدة.. ولم تعد ... انها تترك جسدها له ، واحيانا تسعى اليه هي ... ولكن في كل مرة عندما يصلان يستلقي بعدها هادئا الى جوارها ... تحس بشيء لم يكتمل..

بذروة لم تصل اليها ... بطعم كالمرارة في فمها ... تنظر في عينيه احيانا وتسأله ... «اما زلت تحبني» ؟... فيهيأ اليها ان عينيه تتفاديان لقاء العيون.. ام هي رعشة خفيفة اصابتها ؟... كمن يسلط عليه ضوء قوي للحظة ، فتطرف الجفون ؟... يضحك ... او يقول «طبعا» ... او يتفادى السؤال بحجج مختلفة ... كانه يغلق امامها الابواب ...

«كثرة السؤال عن العواطف يبددها ...»

تصمت لحظة ثم تقول :

«لماذا ...؟»

«لانها مسائل حساسة ... تحتاج الى عدم لمسها كثيرا ... كأجنحة الفراش او الزهور ...»

«الحب القوي يحيا في النور ...»

انت تغوين التحليل ... وانا لست مثلك ... حياتي جعلتني اتقبل اشياء كثيرة ... كما هي » .

انها لا تلين ... تتبعه ... تحاصره ...

«انت تهرب ... عقلك يعمل جيدا في كل المجالات ... تستخدمه على الدوام ... انساق انا مع العواطف احيانا واعتمد عليها في الحكم على الاشياء .. ولكن انت ابدا ... قبل كل شيء ... العقل ... يفكر ببرود .. فلماذا ، في هذا الموضوع بالذات ، لا تحب التحليل ...»

ينظر الى معصمه ...

«الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... هيا بنا ننام ... اطفئي النور» ؟..

«اطفئه ...»

باتت وعيناها مفتوحتان في الظلام ... مرت ثلاثة شهور منذ ان عاد ... قضاها في المنزل ... تبحث عن الرجل الذي عرفته ... فكأنه موجود وغير موجود ... الان يبدو اكثر مرحا ... يخرج في بعض الاحيان معها او وحده.. يزور الاصدقاء .. او أفرادا من الاسرة ... ذهب الى قريته مرتين ... ودار على الصحف وبعض المعاهد والمؤسسات ... يشرف على شئون البيت ، ويتولى شراء ما يحتاجون اليه ... يقرا بنهم متجدد كل ما يقع تحت يديه ... تحس انه يعود الى الحياة بالتدريج ... كمن اصيب في حادثة فقد بعدها قدرته على الحركة ... ثم وقف على قدميه لاول مرة ... يسند يده على الجدار ... يتكشف الطريق امامه بحرص ... ينقل ساقا وراء ساق ، يجرب اطرافه بعد رقاد طويل ... عادت شهيته للاكل كما كانت ... مفتوحة في حدود ... فهو منظم في كل شيء ... يضع لنفسه فواصل لا يتعداها ... يلعب التنس مع سناء في النادي ... يجري هنا وهناك ، يضحك ويغضب ويستميت ... لم يفقد هذه الميزة ... يلقي بكل كيانه فيما يفعله ... كأنه اهم شيء في الوجود.. ولكنه ظل كمن يحيا في عالم داخلي ... يستحوذ عليه ... ويؤرقه ..

نعم ... عاد اليها عزيز في تلك الليلة ... ثم ذهب عنها من جديـد ... ترى ... الى اين يسير ؟ خطت كلمتين فوق الورق ثم توقفت ... انها عاجزة عن التركيز ... القلم يظل معلقا في يدها ... دون حركة ...

***

كانا يجلسان في حجرة المكتب كعادتهما بعد العشاء ... يقرأ في كتاب بجوار النافذة ... يتركه بين الحين والحين... ليطل على السماء، والاشجار.. ومياه النيل تلمع في اضواء المصابيح من بعيد ... دق جرس التليفون .. سمعها تقول ... آلو ... مساء الخير ... من ؟.. عزيز نعم موجـود ... التفت اليها .. قالت «حنفي على التليفون» انتقل الى جوارها وامسك بالسماعة ..

«آلو ... اهلا حنفي ... كيف حالك ؟... بخير الحمد لله ... الامور ؟.. انها تسير .. ماذا افعل ..؟ لا شيء ... استجم ... باكر ... نعم ... لست مرتبطا بشيء ... ونادية ...؟ انتظر لحظة ... سأسألها ...»

التفت اليها ...

«حفلة يقيمونها غدا في المساء عند احد الاصدقاء ... حنفي يقترح علينا ان نذهب سويا ... ما رأيك ...؟»

«هل دعانا الصديق الذي سنذهب الى بيته ...؟»

«نعم ... حنفي سيصطحبنا معه ... عفاف زوجته ستكون معنا ... وعلينا ان نحضر بعض المأكولات ...»

ترددت قليلا ثم قالت :

«ليست بي رغبة لحضور الحفلات ... اذهب انت ... انه تغيير ...»

حملق في عينيها لحظة يحاول ان يستشف شيئا في وجهها ... ثم عاد الى التليفون ..

«آلو ... حنفي ... سأحضر انا ... نادية مرتبطـة غدا في المساء ... الساعة الثامنة والنصف في منزلك ... ثم نذهب سويا ؟.. وهو كذلك ...»

اعاد السماعة الى مكانها وقال :

«خسارة ، لماذا لا تأتين معي ...؟»

ظلت صامتة ...

«لماذا لا تردين عليّ ...؟»

«قلت ان ليست بي رغبة للخروج ... وانت تعلم انني لا اعشق الحفلات.. ستكون مع اصدقائك» .

عاد الى جلسته بجوار النافذة ... احس بشيء من الضيق والحيرة ... ما علينا ... نحى احساسه جانبا ... واستغرق ثانية في الكتاب .

في الساعة الثامنة والنصف تماما كان يدق باب الشقة في المنيرة ... فتح له حنفي ، وقاده الى حجرة الضيوف ... استأذن منه قائلا :

«لحظة ... وسنزل ... عفاف تعطي العشاء للاولاد وانا عندي مسالة صغيرة تتعلق بأحد اقربائي حضر من البلد ... اشعل سيجارة ... ساعود حالا ... »

دار بعينيه حول الحجرة ... بضعة مقاعد مغطاة بقماش احمر ... ومنضدة بيضاوية ... وتليفزيون ... على الجدران صور الزفاف .. واطفال صغار .. حنفي منذ خمسة وعشرين عاما ... ربع قرن ... نفس الوجه ... والشارب.. وجه يوحي بالغضب الدائم ... كأنه غير راض عن العالم والاحوال .. حتى في صورة الزفاف ... خرج الى الشرفة واشعل سيجارته ... الشارع هادىء مهجور ... وفي السماء هلال معلق كأنه يتدلى من خيوط ...

كانت الساعة قد قاربت على التاسعة والربع عندما استقلوا سيارة للاجرة.. اوصلتهم الى القبة ... صعدوا السلم الى الطابق الثاني ... انفتح الباب ... شقة واسعة حجراتها مفتوحة ، وانوار ... وزحام ... ناس يقفون في مجموعات صغيرة ... ويضحكون بصوت عال ... مائدة طويلة مغطاة بأطباق الطعام ... واخرى عليها زجاجات الخمر ... قدمه حنفي الى صاحب المنزل ... ثم تركه ... تبادلوا بضع كلمات كمن لا يجدون موضوعا للحديث ... وجد نفسه يقف وحده ... فتوجه نحو زجاجات الخمر ... صب لنفسه كأسا ... وبحث عن الثلج فلم يجده ... سمع صوتا نسائيا يقول :

«اتبحث عن الثلج ...؟»

التفت اليه :

اعادت السؤال : «اتبحث عن الثلج ...؟»

عينان غريبتان ... واسعتان ... تنظران في عينيه مباشرة ... بجراة... حاول ان يحدد لونهما فلم يستطع ... ما زالت تحملق فيه ... نظرة ثابتة لا تهتز ... فيها وحشية القط او النمرة ... تقتحم ...

قال «نعم» .

اخذت منه كأسه واختفت ... عادت بعد لحظات ... مربعات الثلج شفافة في السائل الاصفر ... احس بأطراف اصابعها ساخنة حول السطح البارد ... «متشكر» .

سار عبر الحجرات يبحث عن مقعد ... وجلس الى جوار نافذة تنفتح على شرفة واسعة ... الضجيج يزداد في الشقة كأنهم يصطنعون السرور ... يحس بالوحدة وسط الزحام ... متى حضر حفلا من هذا النوع...؟ منذ سبع وعشرين سنة ... في بيت اسعد ... تذكر وجهه المرح فأصابه الوجوم ... شرب الكأس برشفات سريعة ... وعاد الى مائدة الزجاجات يملأه من جديد ... مقعده انشغل ... خرج الى الشرفة ومال فوق الحاجز ، يحملق في البيوت المجاورة.. فكر في ان يفرغ كأسه وينزل ... راحت ايام الحفلات بالنسبة اليه ... فقد القدرة على السرور ... اشتد احساسه بالوحدة ... لماذا لم تأت معه نادية؟..

لو كانت معه ربما ذهبا سويا الى مكان في الخلاء بجوار النيل ... عاد يطل على البيوت المجاورة ... التفت الى جواره فوجدها تقف مع آخرين ... تتحدث معهم في حيوية هادئة ، وتشير الى شيء في الهواء ... اصابعها بيضاء طويلة خالية من الطلاء ... يرى وجهها من الجانب ... انف صغير فيه عناد ، وشفتان ممتلئتان مرسومتان بدقة ... ادرك انها احست بعينيه فاستدار كأن شيئا اثار انتباهه ... خطا خطوتين مترددتين في اتجاه الحجرة ... سيترك كأسه الفارغة وينسحب في سكون ... لماذا لم يتحدث اليها عندما حملت اليه الثلج ؟... في قديم الزمان كان اكثر جراة ... رغم الخجل الذي لم يتخلص منه ابدا ... ولكن الان اصبح كانه موثوق بالحبال ... حبال مستترة يحاول ان يتخلص منها دون جدوى ... معقود اللسان والتصرف الطبيعي ... خطا خطوتين اخريين ... فوجيء بها تقف امامه ... تنظر اليه بنفس الثبات ...

«الى اين ..؟»

تردد لحظة ثم قال :

«كنت انوي النزول ...»

«هكذا مبكرا ...! لماذا الاستعجال ...؟»

صوتها ناعم ، ولكنه واضح ، مشدود ...

«لا ... ابدا ...»

قاطعته ...

«هل تناولت شيئا من الطعام ...؟»

«لا ... لا اشعر بالجوع ...»

«الجوع يأتي مع الاكل ... ساصنع لك طبقا ستأكله باكمله ... فانا اعرف احسن ما هو موجود ...»

مالت ناحية النافذة المطلة على الشرفة ثم التفتت فوق كتفها واستطردت :

«ام تريد كأسا من الخمر ...؟»

«اريد الاثنين ...»

ضحكت في سرور ...

«سأحضرهما حالا ... واعود ...»

عاد الى وقفته على الشرفة ... رآها تخط طريقها وسط الزحام ... تحمل طبقا من الاكل في يد ... وكأسا في اليد الاخرى ... تطلع اليها وهي تقترب منه ... جسدها ممتلىء ولكن خطوتها فوق الارض خفيفة ، كأنها تعلمت الرقص في الصغر ...

قال :

«نبحث عن مكان نجلس فيه اولا ...»

جلسا في ركن من الشرفة ... على الجدار فروع الياسمين ... رائحة عطر خفيفة تصل الى انفه لا يعرف ان كانت منها ام من الزهور ... الخمر صعدت الى رأسه قليلا ... ولسانه ينطلق ...

قال :

«لم تتعرف ...»

«انا ... زينب جاد ...»

«وانا ... عزيز عمران ...»

«الدكتور عزيز عمران ... اليس كذلك ...؟»

«من اين علمت ...؟»

«سمعت عنك من بعض الاصدقاء ...»

احس بالرضى ... الان ذهب الخجل ...

«وماذا تفعلين يا زينب ...؟»

«أدير معهدا للموسيقى ...»

«الموسيقى ... كنت اعشق الموسيقى عندما كنت شابا ... اردت في يوم من الايام ان اكون عازف كمان ... ولكن اهلي قالوا لي : الموسيقى لا تغـذي صاحبها ... »

ضحكت ...

«هذا صحيح ...»

«وزوجك ...»

«زوجي مات ... منذ اربع سنين ...»

سكت ... احس بالراحة ... وبعيدا في الاعماق ، شيء كوخز الضمير ، سرعان ما تخلص منه .

«امعك اطفال ...؟»

«نعم ... اثنان ... بنت وولد ...»

«مثلي ...»

ادارت وجهها ناحيته ... عينان واسعتان لا يستطيع ان يحدد لونهما ... نظرة فيها جراة ... او نهم لا يدري ... وانف صغير يرتعش مع انفاسها ... احس بنبضه يسرع ..

قالت :

«سانصرف الان ... لا بد ان اعود الى المنزل ... زرني في المعهد لا تنسَ .. سانتظرك ...»

مدت يدها اليه ... ساخنة ..

ثم استطردت ...

«رقم التليفون في الدليل ...»

كانت الساعة قد قاربت على الثانية بعد منتصف الليل عندما عاد الى المنزل ... دخل في هدوء حتى لا يوقظهم ... ولكن عندما اضاء النور الصغير الى جوار سريره ... فتحت نادية عينيها ...

قالت :

«لقد تأخرت ... كم الساعة الان» ؟
«الثانية صباحا ...»
«اصابني شيء من القلق عليك ... هل تسليت في الحفلة ...؟»
اخذ يخلع ملابسه ...
«لا ... ابدا كانت مملة ...؟»
«احك لي ...»
تردد لحظة ... ايحكي لها ...
«لا يوجد ما يستحق ان يحكى ...»
ما الداعي لان يقص عليها ما قد يضايقها ولو قليلا ... الافضل ان يسكت.. احس انه يتعمد الاخفاء لاسباب لا يريد حتى ان يعترف بها لنفسه ...

***

لم يعد قادرا على ان يتحكم في نفسه ... بل لم يعد راغبا حتى في ذلك... كمن هبط الى الجحيم فلم يعد يعير اي شيء ادنى اهتمام ... ولكن يا للذة هذا الجحيم ... كأن غرائزه احتجزت خلف سد من الفولاذ ، والاسمنت المسلح ، وباتت مقهورة ، مكبوتة ... ثم انهار السد فجأة ... وتدفقت كالفيضان العاتي الغزير ... ظل عبر السنين ناسكا في المحراب ، بعيدا عن الحياة ... قضى شبابه واحلى مراحل العمر ... مغلقا خلف جدران ... تغيرت اشكالهما والوانها ... وبقيت نتائجها واحدة ... حرمان طويل يسد كل منافذ الحياة .. يحس كأنه يعوض ما فات ... ينتقم للحظات ... والساعات ... والايام التي ضاعت ... يعوض في سباق جنوني ما لا سبيل الى تعويضه ... فقد ضاع الزمان ، ولن يعود ... يتوقف لحظة كالمشدود ... يتأمل ما يدور ... ثم يلقي بنفسه في الدوامة من جديد ... لم يشبع بعد ... لم يرتو حتى الثمالة ... رغبة حارقة تقوده ... كمن يكتوي بنيران اللذة ... فيعود ... يبدد قواه المختزنة ... يغوص في بئر بلا قرار ... يفنى في ايام وليال من العشق المجنون ...

انه لا يستتر ... يخرج معها في كل مكان ... في الشوارع والطرقات ... في المسارح .. والمطاعم ، والمراقص .. يشاهد الشمس تشرق من نافذة حجرتها ... وطيور الصباح تتكاتف حول الاغصان ... يمشيان في الحدائق ويقطفان الزهور ... يشم رائحتها بانفاس عميقة ، كأنه لم يسبق له ان استنشق الزهور ... يسرعان بالسيارة بين المدن والكفور ... البيوت تنام هادئة تحت القمر ... والاسفلت الناعم يلمع في اضواء المصابيح .. يدخلان ضواحي الاسكندرية ... لصان هاربان يتسللان مع الفجر ... يجريان فوق الرمال ، ويقفزان فوق الامواج ... على اجسامهما لسعة الشمس والرذاذ ... والملح... وفي الليل يرقصان على انغام الموسيقى الصاخبة ... شيء كالزار او الجنون..

مائدة صغيرة ... ودخان ... وزحام ... وعيون ... يحرك ذراعيه وساقيه كأنه يمزق الملابس والقيود ... تقترب منه ... وتبتعد عنه ... يتلامسان بلغة الاجسام في وحدة الوجود .. كالفراشات... لا يريان... ولا يسمعان... سوى دقة الطبول ... يستطعمان الاعياء ... وعرق الاجساد .. والعودة في الهدوء.. تنساب السيارة في الليل عبر البيوت ... يصعدان السلم خطوة بعد خطوة ... نافذة مفتوحة ... وباب مغلق ... وعينان واسعتان ... وذراعان يلتفان حوله ... ونسيان ... رحلة في عالم الجنس ... الجنس ولا شيء سواه .. يغوص في اغواره كالضائع ... رغبة محمومة تدفعه .. يمزق ستارا وراء ستار .. ليصل الى نهاية هذا العالم المبهر ، الرهيب ... فلا يصل ...

انها تدرك بحسها ان شيئا يحدث ... لم يعد يقترب منها في الليل ... احيانا يبيت خارج المنزل ... او يعود متأخرا ... تشم رائحة الخمر عندما يدخل الحجرة ... انه متماسك على الدوام ... يتحمل الخمر والاعياء جيدا.. كالحجرة الصلدة .. صقلتها الشمس ، والصحراء ... وعواصف الزمن ... يجيب بحجج مختلفة ... فتحس انه يكذب ... بل تعرف انه يكذب .. تفكر في كل الاحتمالات ... الا هذا الاحتمال ... تفكر فيه ، وترفضه كمن يأبى ان يصدق شيئا .. فلا يصدقه ... انها مستعدة لان تتحمل اي شيء ... الا ان يكذب عليها ... وهو يكذب الان ... يطعنها بسكين حاد .. يقتلها يوما بعد يوم ... بالتدريج ... اول مرة .. كان الصدق بينهما دائما ... اول مرة... يقرأ الاتهام الصامت في عينيها .. ليس من عادتها ان تسكت ... تفجر المسائل لحظة بلحظة وتقتحم ... ولكنها صامتة هذه المرة ... يود احيانا ان تفتح الموضوع او تواجهه حتى يستريح ... ويحمل في اعماقه خشية هذه اللحظة التي يحس انها آتية لا محالة ...

كان لا بد ان تدرك قبل ان تصلها اخباره ... بل ادركت ، ورفضت ... الى ان اصبح الامر لا يقبل الرفض ... انه لا يستتر ... يعاشر هذه المرأة علانية.. انها رفضت ان تصدق طويلا ... ليس من اجل نفسها ... ولكن من اجله .. من اجل الصورة التي حملتها في اعماقها .. من اجل الانسان الذي احبته لانه مختلف ... صادق ... ان من حقه ان يختار غيرها ... ان يعيش ... ولكن ليس من حقه ان يكذب ..

كانت الساعة قد قاربت على الثالثة صباحا عندما عاد ... وجدها مستيقظة تقرأ في السرير ... رفعت عينيها عن الكتاب عندما دخل من باب الحجرة ... نحته جانبا واخذت تتأمله وهو يخلع ملابسه ويستعد للنوم ...

قالت :

«يا عزيز ... اجلس هنا» ... افرغت له مكانا بجوارها على السرير ... «اريد ان اتحدث معك ...»

احس ان اللحظة التي كان يتمناها ويخشاها في نفس الوقت قد جاءت ...

ارتدى لباس النوم وجلس ...
«هناك شيء يحدث ... انك لست انت» .
«ماذا تقصدين ؟...» ضحك ... «لا شيء يحدث» .
«لا ... بل هناك شيء يحدث بالتأكيد ...»
«ابدا ... ماذا يحدث ... قولي انت» ... امل مجنون في انها لا تعرف.. وامل آخر يجعله يتمنى ان تعرف وينتهي ... لماذا لا يقول لها هو ما ينبغي ان يقال ..؟ لماذا هذه الاكذوبة ...؟
«طالما انك لا تريد ان تصارحني ... سأصارحك انا ... ولو كنت اتمنى ان تكون انت البادىء ... ولكن ...»
سكت ... انتظرت قليلا ... ثم استطردت بهدوء ... احس انها تكتم انفعالها ... وتبذل جهدا حتى لا تسقط الدموع ...
«من زينب هذه ...؟»
«زينب ...؟»
«نعم زينب جاد ...»
صمت ... احس بشيء من الراحة ... الان ستحدثان ...
«من قال لك ...»
«أهذا كل ما يهمك ؟»
«لا ...»
«اذن ... قل لي ... من زينب جاد هذه ...؟»
«امرأة ...»
«اعرف هذا ... ما علاقتك بها ... وارجوك ...» نبرات صوتها ترتعش قليلا ... «لا تكذب عليّ ... كل شيء الا الكذب بيننا يا عزيز ...»
«امرأة ...» تعثر صوته وسكت ...
«هل تحبها ...»
«لا ... لا احبها ... ولكني» تردد ... «اعشقها كأنني استيقظ للحس ، واحيا مرحلة كان من المفروض ان احياها ولكنها ضاعت مني ... اعود الى الوراء ... استرجع ما فاتني ... كالذي يعيش عكس الزمان ...»
صمتت ... «انني لا أفهمك ... ربما لا افهم الرجل ... ربما ...»
«لا اعرف بالضبط ... طوفان ...»
«تعاشرها ...؟»
«نعم ...»
«ونحن ...؟»
«نحن ...؟»
«نعم ... نحن ... انا» ... بشيء من العصبية ... «الم تفكر فيّ انا ؟»
«فكرت ...»
جاء صوتها لاذعا :

«فكرت ... كيف ... نحن نحيا اكذوبة انت سببها ... منذ شهور ...»
«اعرف هذا ...؟»
صمتت ... غطت عينيها بيدها كأنها تقبل على شيء تنفر منه :
«لا استطيع ان استمر هكذا ...»
نظر في عينيها ... مفتوحتين ... سواد عميق ... وصمود ...
«اذن ...؟»
«لا بد ان ننفصل ...»
احس بيده ترتعش فوق حافة السرير ...
«اهذا هو الحل الوحيد ...؟»
«نعم ...»
«ولماذا لا اتركها انا ...»
«الان ... بعد كل هذا لن استطيع ... انتهى ... اشياء تمزقت لن تعود .. لو لم تخف عليّ ... هذا ما يحز في نفسي .. اشياء كثيرة تجرح الانسان ... وتمزقه ... ولكن ان تكذب ...»
ينظر الى اسفل ... الى اقدامه ... تبدو غريبة ... كأنها ليست اصابعه ... كل شيء غريب ... ليس هو عزيز ... وليست هي نادية ... والحجرة ... في بيت آخر ... في عالم آخر ... ترى هل يحبها ... يفكر في فتور ... كأن لا شيء يهمه الان ... كل المسائل سيان ... انه متعب ...
«من منا يذهب ...؟»
«كما تريد ...»
«اذهب انا ... هذا اسهل ... ليبقَ البيت لك ولسناء ... استطيع ان اعود الى منزلنا ... امي تعيش وحدها ...»
ساد الصمت ... حملقت في الجدار ... هكذا تنتهي الاحلام ... كل شيء في هذه الحياة ... وهم .. لم تعد قادرة حتى على البكاء .. سنين الانتظار ... وعودة ... تاقت اليها بكل قلبها وكيانها ... وهذه نهاية الاشياء .. مضحكة مبكية ... بلا معنى ..
قام من جلسته ... واستلقى فوق السرير ... اطفأ النور ... باتت عيونهما مفتوحة حتى الصباح ... راى نور الفجر يتسلل عبر الشيش ... قام الى الحمام ... حلق ذقنه ، واغتسل ... ارتدى ملابسه في الحجرة واعد حقيبته ... اطل على سناء من باب حجرتها فوجدها نائمة ... عبر الصالة يمشي على اطراف اصابعه ... جمع بعض الاوراق ... والكتب وعاد بها ... اغلق الحقيبة ... حملها ، وهمّ بالخروج ... توقف عند الباب ثم التفت وراءه ... راى العينين الواسعتين كالحجر المصقول ... وضع الحقيبة على الارض ... واقترب منها ...

«نادية» .

«نعم» .

«قولي لسناء ... انني سافرت وساعود ...»

صمتت ...

انحنى فوقها وقبلها ... حمل حقيبته وخرج من الباب ... اغلق الباب ووقف لحظة ... هبط السلم بخطوات بطيئة ... الان اصبح وحيدا من جديد ...

***

صدرها الناعم يعلو ويهبط تحت راسه... يضغط عليه باحثا عن السكون.. ماذا يريد ...؟ ماذا سيفعل الان ... لم يعد لكل هذا اي معنى ... بعد كل هذه السنين ؟.. بعد كل ما رآه وفعله في حياته ... ماذا جرى له ...؟ احاطها بذراعيه وقبلها ... انفاسها الساخنة تطلبه ، فقبلها من جديد ... احس بكفيها فوق ظهره تجذبه اليها ... تأخذه ... فقبلها ... ظلام يحتويه في الظلام ... يستسلم لعطاء البطن ، والنهدين ... يحتمي فيهم كالطفل ... كالجنين ... كمن يعود الى حيث جاء ... يدفن ياسه في رعشة الجسد الانثوي ، ويفني كيانه في قمة النسيان ...

قبلته ...

«اعطيتني ما لم تعطه اليّ من قبل» ... نظرت اليه في حزن ... نهم العينين تحول الى حنان ... قبلته ... فقبلها ... شفتاها حلوتان ... سيتذكرهما ...

قالت :

«اهذه قبلة الوداع ...»

صمت .

«انها قبلة الوداع ... اليس كذلك ؟»

قال :

«نعم» .

تنهدت :

«كان لا بد ان يجيء يوم الوداع ... الافضل ان جاء مبكرا ...»

«لماذا ؟»

قبلته وابتسمت :

«كدت احبك ... والآن اذهب ... قبل ان ابكي» .

... بائع الخبز يمر على البيوت ، والشمس تطل من بين الغصون ... ابتاع جريدة من عند كشك في قمة الشارع : «تعديلات جديدة في قانون الاصلاح

الزراعي» ... اسرع الخطى فوق الرصيف ...

***

اقترب من البوابة الحديدية التي تقود الى مستشفى المنيل ... على يمينه كازينو صغير ... موائد ، ومقاعد حمر ، وخضر ... شباب يقرأ في كتاب ، ويرنو بعينيه من فوق الكتاب ... اقترب الامتحان ... وعاشقان رؤوسهما تقترب ... نظرات طويلة .. وهمس .. الشماسي ، زجاجات البرتقال والبيرة.. واكواب تبرق تحت الشمس ... وفي الميدان الصغير عربات اليوسفي ، والجوافة ... والسميط ، والباذنجان ... والطعمية ... وذباب ... اسر تجلس على الرصيف كانهم في محطة ينتظرون ... وحارس في معطف ابيض تطل منه شراسة العيون ... سار بجوار الملاعب ... حجرة الفيار ، وفتيات يتنزهن فوق الحشيش الاخضر في هدوء ... مستشفى القصر العيني ... ايام الدراسة ... والمظاهرات ... والامتياز ... والهروب ... صعد السلالم ... تراب الاركان ، وقشور البيض واعقاب السجائر ... ازيز النقالات ، وملابس المرضى يحملونها الى المغسل ... والمعاطف البيضاء ... والسماعات ... رائحة المرض واليزول ... دلف من باب القسم الى حجرة الحكيمة ... الدكتور انور العشري في المرور ... زحام الطلبة حول الاسرة ... ومريض يجلس القرفصاء في السرير مستسلم للايدي العابثة ، في سكون ... يراه واقفا بينهم ، يشير باصبع قصير في الهواء ... ويميل براسه الكبيرة على اليسار ليسمع بأذنه السليمة ... عاد ادراجه وجلس في حجرة الاستاذ ...

دخل عليه بعد دقائق معدودة ...

«اهلا ... دكتور عزيز ... كيف حالك ... غبت عنا طويلا ... الحمد لله على السلامة ... اجلس ... اجلس يا اخي» .

سحب مقعدا وجلس امامه ... عيناه فيهما حول ... عين تنظر اليه في ثبات ، والاخرى ترنو عبر النافذة ... كانها تبحث بجزء من نفسه عن شيء آخر غير موجود ... استطرد :

«لا ... الحمد لله ... امسك الخشب ... حالتك على ما يرام ... لم تتغير ... كما انت تماما ... هه ... انسيت الطب ؟.. ام ما زلت تتذكره ؟..»

ابتسم عزيز ... كان تلميذه المفضل ... يحبه ، ويحب العلم الذي كان يدرسه ... الامراض الباطنية ... يكره الجراحة والجراحين .. غطرستهم.. ومشيتهم كالديكة في ابهاء المستشفى والراس مرفوعة في السماء ، والمنديل ... آلهة يملكون سر الحياة والموت في مشرطهم ... اما الامراض الباطنية ... سعي حثيث لمعرفة الداء المختبىء تحت الانسجة والضلوع ... احساس الاذن والاصابع والذكاء ... حضر اليه من السجن عندما مرض ... ضاربا عرض الحائط بالقانون ... كما هو رغم الشهرة ، والعلاقات الوثيقة بمن يحكمون ... يعطي من

وقته لمريض القرية ... قدر ما يعطي لاثرياء الناس ...
«بل تغيرت ...»
رمقه بنظرة سريعة من العين التي ما زالت تحملق فيه بثبات ...
«اين ...؟ من الداخل اذن ... لا ... ولا حتى من الداخل ... عندي ثقة كبيرة فيك ...»
حساس دائما ... ينتقي الكلمات ... مريح ... قال عزيز :
«اعرف انك مشغول ... ولا اريد ان آخذ من وقتك كثيرا ...»
«خذ من وقتي كما تشاء ... بعد كل هذه السنين ... مشغول ؟!.. متى خرجت من السجن ...؟»
«منذ ستة شهور» .
«حسنا ... وكيف وجدت الحياة ...؟»
تردد لحظة ... عينه ترمقه كانها تفحص ... بدقة ...
«اتعود عليها بالتدريج ... استكشفها من جديد ...»
«تغيرت اشياء كثيرة ... متى تركتنا يا عزيزي ...»
«منذ ما يزيد عن سبعة عشر عاما» .
«سبعة عشر عاما ؟.. كل هذا ؟.. الزمن يطير ... لا ستجد بلدا اخرى» .
«احسن ..؟»
صمت لحظة كانه يتامل السؤال ...
«احسن لا شك ... من نواحي متعددة ... وقفنا على اقدامنا ... واصبح لنا كيان ... تقدم في نواحي من الحياة ... ولكن ...» صمت لحظة ... «اشياء تقلقني ...»
«ماذا ...؟»
«زيف ... وفساد ... وكلام جميل عن القيم ... والعدالة والاشتراكية.. وعثرات كثيرة على الطريق ...»
«ولكننا نسير نحو الاشتراكية بالفعل ...»
صمت من جديد ...
«لا اريد ان اؤثر عليك ... سترى بنفسك وتحكم ... انظر حولك جيدا... واعرف ... انا لست رجل سياسة ... اما انت ...»
هز كتفيه ...
لماذا يبدي هذا الشك ... تأمله عزيز ... شيء من الحزن في الوجه ... كأن ثقلا مفاجئا هبط فوق قلبه ... رجل حسن النيات ... ولكنه محدود في نظرته للامور ... محدود بجيله ... ونشأته ... والنجاح الذي حققه في الحياة ... الاشتراكية تتحقق بالفعل ... باتوا الليالي في الواحات يناقشون .. استطرد :
«ما علينا ... لست رجل سياسة كما قلت ... ولكن خبرني عن الأهم ...

ماذا تفعل ...؟»
«هذا ما جئت اليك من اجله ...»
عينه الاخرى ما زالت تنظر الى النافذة ... تبحث بقلق عن شيء في الخارج ...
«وماذا استطيعه انا في هذا السبيل ؟»
«اريد ان اعمل ... ولك علاقات ...»
صمت كأنه يفكر ...
«اي نوع من العمل ...؟»
«في الحكومة ... لا سبيل امامي سوى الوظيفة ...»
«ولماذا لا تفتح عيادة ... وتبقى حرا ...؟»
«انت تعرفني ... اكره العيادات ...»
«والحكومة ... هل تعرف عمل الحكومة ... المسائل ليست سهلة هذه الايام » .
قال عزيز بحماس :
«كل شيء بالجهد ... والعمل يسير ...»
لم يعلق ... ربت على ركبته بيده في ود ... ثم دق الجرس ... جاءت ممرضة صغيرة الحجم ... وقفت منكمشة امامه ... ترنو اليه من تحت الرموش ...
«توجد مفكرة في جيب السترة الداخلي ... هناك في الحجرة الاخرى ... احضريها اليّ لو سمحت ...»
هربت مسرعة عبر الباب ... التفت الى عزيز :
«سأتصل بك تليفونيا في بحر عشرة ايام ...»
قام عزيز ومد يده اليه ... سار نحو الباب ... كاد ان يخرج عندما سمعه يناديه ... فاستدار ...
«يا دكتور عزيز ... كن حريصا ... وانظر حولك جيدا ... لا داعي للاستعجال ... فالزمن طويل ...»
تركه جالسا فوق المقعد ... عين تتأمله في ثبات ... والاخرى حزينة هاربة في مكان بعيد هناك ...

★★★

حجرة السكرتير مستطيلة ضيقة تطل نافذتها على حوش الوزارة ... صفان من المقاعد ... يجلس فوقها المنتظرون ... يحملقون في الجدران ... والسقف ... ووجوه الآخرين ... ويخطفون نظرات سريعة للساعة المعلقة فوق الحائط ... تشبه ساعات مكاتب البريد ... ومحطات السكة الحديد ... والسجون ... ساعة ميري ... يقفز العقرب الطويل من دقيقة الى دقيقة كأنه

يفيق فجأة لمرور ستين ثانية ... بين الحين والحين يقوم احد الزوار من مقعده ... يميل فوق مكتب السكرتير ... ويهمس في اذنه كانه يسر اليه بخبر خطير ... فيسمعه ليقول :

«نعم ... نعم ... ماذا تريد ان افعل ؟.. السيد الوزير مشغول» .

وجهه بيضاوي ، ممتلىء ، نما على حساب الجبهة تاركا لها مساحة محدودة تحت الشعر الاسود يلمع بالعرق والفازلين ... وجه صب في الجمود ... لا تبدو عليه علامات الغضب ... او الرضى ... او السرور ... راس كبيرة مثبتة في الجسد البدين ... راسخة فوق الكتفين بلا عنق ... الى جواره اجهزة التليفون ... ودكتافون ... يملأ المقعد كالخرتيت الاليف ... تليفون الوزير له جرس خاص ... رنين قبيح ، اجش ، كالمنبه القديم ... يقفز عندما يسمعه كمن اصابه مس كهربائي ... يمد ذراعه الى السماعة بسرعة فيخطفها كمن يبحث في الظلام ... ويرد بصوت مدفون ...

نظر الى عزيز وقال :

«يا دكتور عمران ... تفضل ...»

دفع الباب المبطن بالجوخ الاخضر ، ورؤوس بين النحاس تلمع في صف مستقيم ... حجرة كبيرة ... مائدة للاجتماعات ... وبرافان ... مقاعد ضخمة من الجلد بنية اللون ... ومكتب طراز لويس السادس عشر ارجله مقوسة عند الاركان ...

خرج من خلف المكتب واحاطه بالأحضان كصديق قديم افتقده منذ سنين ... قال ...

«الحمد لله على السلامة ... انا سعيد برؤياك بيننا ... اجلس ... يا دكتور ... اجلس هنا» .

اشار الى مقعد ثم جلس الى جواره ... جبهة عالية ... وعينان صغيرتان لا تستقران ... وسبحة طويلة يحملها ، دون ان يحركها بين اصابعه ...

«متى خرجت ؟... منذ ستة شهور ... الحمد لله ... الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ... جاءت سليمة ... وكل شيء يتصلح انشاء الله.. اننا نحتاج الى رجال مثلك ... مكافحون ... اشتراكيون .. طالما تدخلت من اجلكم ... ولكن الرئيس قال لي ... اصبر كل شيء في اوانه .. سنخرجهم في الوقت المناسب ... اريد ان اعتمد على امثالكم في الوزارة ... هل تعرف الدكتور عاصم الدجوي ..؟ انه من اقرب الناس اليّ ...»

«نعم كان معي في المعتقل سنة ١٩٤٩ ...»

«ما رايك فيه ...؟»

«شخص ذكي ... وله صفات كثيرة ...»

حملق فيه ... وقال :

«هه» ... دخل فراش يحمل فنجانين من القهوة ... صب للوزير فنجانه

ثم وضع الآخر امامه وانسحب ... استطرد ... سيجارة ؟... كنت ادخن بشراهة ولكنني اقلعت ..

«حسنا فعلت ... ابطلت التدخين ثلاث سنوات ... ثم عدت ...»

اخذ رشفة من قهوته ... عيناه تفحصانه من فوق الفنجان ... انفتح باب على اليمين ... ودخل منه رجل ضخم ... تقدم خطوتين ثم انتظر ...

نظر اليه في شيء من الضيق وقال :

«بعد قليل ... انا مشغول الان يا دكتور عبد التواب ...»

«موضوع الدرجات ... الملف جاهز ...»

«حالا ... حالا ... يا حضرة الوكيل ... قلت لك انني مشغول الان ...»

التفت الى عزيز ثانية ...

«وصلني خطاب رئيس الحكومة منذ يومين ... انا أريد ان استفيد بكفاءاتك ... ستعمل معي مباشرة ... ادرس الوزارة وقدم لي اقتراحاتك ... وهناك موضوعات ساحولها عليك ...»

«انا مستعد لما تطلبه ...»

«حسنا ... اول خطوة ... تعيينك ... الاجراءات ستأخذ بعض الوقت.. ولكنني أريد الا ننتظر ... ابدا من الان .. سأخصص لك مكتبا ... مع الدكتور خليل ... تعرفه طبعا ؟..»

«نعم اعرفه ... كنا زملاء في الكلية ...»

«كل شيء سيصلح ... سأعينك ... سنعوضك كل ما فات ... هه .. امرتاح انت ...؟ »

«في غاية الراحة ... واشكرك ...»

لوّح بيده ...

«علامَ ...؟»

نظر عزيز في معصمه ...

«الآن ينبغي ان استأذن حتى لا اعطلك ...»

«انتظر دقيقة ... سارسل في طلب الدكتور خليل ...» او ... تردد لحظة يفكر ... ثم استطرد ... «بمكنك ان تحضر غدا الى مكتب الدكتور خليل ... وسأتحدث انا معه في شانك ...»

ودعه حتى الباب ...

خرج عزيز ... عيون تفحصه بفضول ... هبط السلم كأنه يطير ... كل الابواب ستنفتح ... سيعمل مباشرة مع الوزير ... سيعوض عن كل ما فات.. عبر الحوش ... اوراق الشجر اكثر خضارا مما رآها في اي يوم ... والسماء صافية تطل عليه بحنان ... الدنيا جميلة ... اخذ نفسا عميقا ... انتهى الكابوس ... الان سيصعد عاليا ... يبتسم لنفسه وهو يسير ... ارسل رئيس الحكومة خطابا خاصا به ... انهم محتاجون لأمثالي ... فالاشتراكية تبنى بالاشتراكيين ... محمول فوق بساط الريح ... في ظرف اسبوع ...

لا ... اقل ... لا بد انهم ينتظرون منه الكثير ... نادية ... تذكرها ... ترى ماذا تفعل الآن ؟ ... كان يود ان يحكي لها كل ما جرى ... ان يبث لها سعادته.. شق طريقه عبر الزحام ... يحب هذه المدينة والناس ... وطنه ... عالمه ...

***

هكذا دخل عزيز جهاز الحكومة ، واصبح من الموظفين ... خصصوا لــه مكتبا في حجرة صغيرة بالطابق الاول ، بها ثلاثة مكاتب اخرى ... يمر جسده النحيل بالكاد في المساحة الضيقة بين المكاتب ... في اليوم الاول تمزق سرواله من الخلف على مسمار كان يبرز من احد الاركان ... سطح المكتب بني داكن ، تتخلله تشققات بيض حيث تآكل الطلاء ... سطح عار ، لا يوجد فوقه شيء ... كان المكاتب قديمة نقلت الى الحجرة للتخزين ... نافذة تطل على حوش الوزارة الخلفي ... ممر من الاسفلت يلقي فيه بالفضلات من صفوف النوافذ التي تعلو طابقا فوق طابق ... قصاصات من الورق ... وملفات ممزقة ... وبقايا طعام ... واعقاب سجائر ... تفوح منه رائحة من النتن كانما فتحوا الزجــاج ... يكره النوافذ المغلقة ... تجعله يحس بالاختناق ... سقف تسقط منه قطع من الجير ، فيخرجون في الساعة الثالثة بعد انتهاء العمل ، وفوق ملابسهم طبقــة بيضاء كانهم يعملون في مخبز ... الارض الواح من الخشب يغطيها التراب ... انهارت اجزاء منها تحت ثقل الاقدام ... معه في الحجرة ثلاثة : الدكتور زكي بدران شاب مكتنز الجسم ، ابيض الوجه ، من دمياط ... والدكتورة سهــام ادريس تتحدث بصوت شاكٍ كانها تبكي على الدوام ... طويلة نحيلة مثل زوجها يحضر كل يوم ليصطحبها معه الى البيت ... وطبيب اصلع يعمل في العلاقــات العامة ... يحمل حقيبة الوزير عندما يغادر الوزارة ... ويجري هنا وهناك ... وعلى الباب يافطة خشبية كادت ان تسقط من مكانها . مكتوب عليهــا «مشروع البلهارسيا الثوري» .

حضر في اليوم التالي لمقابلته مع الوزير ... صعد الى الطابق الاعلى ... ودفع بابا آخر من الجوخ الاخضر ... حجرة اوسع من حجرة الوزير ... مائدة اجتماعات ... وبرافان من الخشب الداكن ... ومقاعد ضخمة من الجلد بنية اللون ... ومكتب عريض ... وتليفونات سوداء مرصوصة على منضدة مربعة .. ونجفة من الكريستال تتدلى من السقف العالي تنقصها بعض المصابيح ... عيناه تلتقط التفاصيل ، كالسائح يدخل على عالم جديد ... فيفحص الاشياء لانــه يراها لاول مرة ...

رحب به الدكتور خليل ... يقف خلف مكتبه كانه لا يجد وقتا للجلوس ... التليفونات الاربعة ترن باستمرار ... فيضع السماعتين فوق اذنيه ويتحــدث فيهما بالتبادل ... «نعم ... حاضر يا سيدي سننقله الى البحيرة الشهـــر

القادم ... لا ... مستحيل ... السيد الوزير أمر بانه يسلم جميع الاوراق للمفوض ... قبل التحقيق ..؟ طبعا .. نحن في عهد ثورة ... الاسلوب القديم انتهى ...»

سيل من الزوار يتدفق عبر الباب ... يرحب بهم ، ويضحك ، ويتبادل القصص عن ايام الكلية ... ويدون في مفكرة صغيرة ملاحظات ... ويوزع السلامات والأحضان على الداخلين والخارجين ... شد على يده ولكنه لم يحتضنه مثل الآخرين ... ربما احس فيه شيئا من التحفظ ... فهي طبيعته لم تتبدل ... ظل خفيف من الفتور في استقباله ، سجلته الحواس سريعا ... دون ان يتعدى مجرد الاحساس ... قال :

«اهلا وسهلا... انا سعيد جدا بعودتك الينا... واسعد لأنك ستعمل معي».

خطرت له فكرة سريعة ولكنه صمت ... الم يقل الوزير انه سيعمل معه مباشرة ؟.. انتظر ... حتى يستطرد ...

«نحن في اشد الحاجة الى امثالك ... قيادات ثورية يمكن الاعتماد عليها... ناس عندهم فكر ... لذلك اتفقت مع الوزير على ان تعمل في مشروع هام للغاية ... مشروع استئصال البلهارسيا من وادينا ... بلدنا حلوة ... وناسها طيبون ... والفلاحون بؤساء ... لا بد ان نفعل لهم شيئا ... الريف يا سيدي ... مشاريع الريف اهم شيء ... والقيادات الثورية وحدها هي التي تستطيع ان تبلور المسائل ... وترسم الخطوط ... حتى تقضي على الميوعة التي ما زلنا نعيش في ظلها ...»

استمع اليه في صمت ، مكتفيا بأن يهز راسه بالموافقة ...

قال :

«هه ما رايك ...؟»

«اوافق على ان اعمل في اي مكان يحتاج الى جهودي» .

«بالضبط ... هذا هو الموقف السليم... وانا مسرور جدا لاننا سنتعاون.. خصصنا لك مكتب في الطابق الاول ... ومعك زملاء منتقون ... نحن نجمع العناصر الثورية لهذا العمل ... ونحتاج الى آرائك واقتراحاتك ...»

هكذا وجد نفسه يجلس على مقعده خلف المكتب ... مقعد من القش تمزقت بعض اجزائه ... جلس عليه بنصف ثقله حتى لا يتمزق الباقي ... هبط الدكتور خليل معه ... وقدمه للباقين ... واعتذر لضيق المكان وبساطته ... الوزارة مزدحمة يتزايد فيها العدد باستمرار ... فأجابه عزيز متحمسا بان لا اهمية للمكان ... ابتسم الدكتور خليل في سرور واضح ، وشد على يده بقوة ، ثم تركهم ...

انه يحضر الان كل يوم في الساعة الثامنة والنصف صباحا ... يصل قبل الآخرين ... مقبل على العمل كالخريج الجديد ... سيصنع اشياء كثيرة ... وسيساهم في مشروع كبير ... استئصال البلهارسيا التي عانى منها الفلاحون آلاف السنين ... يصبون دماءهم في البول الاحمر ... وتنهش في احشائهم

الديدان ... عاد الى حلمه القديم ... مرحلة جديدة على مستوى اعلى ... جزء من بناء للاشتراكية يقام ... هناك اشياء لا يفهمها ... يسجلها دون ان يفكر فيها ... وهو محمول على موجة من الحماس ... سيشارك الان في تغيير الحياة ... في بناء البلاد ... كالشاب المندفع ... لا يرى سوى احلامه ... عاش طويلا خلف الجدران ... مع الشيوعيين ... عالم فيه الصواب والخطأ.. فيه من الخير والشر ... ولكنه مصطنع يحيا على المثل ... ويحركه امل ، واستعداد للتضحية ... وصورة للمستقبل تبهر العيون ... ماذا يهم ضيق المكتب وقبح المكان ؟.. وماذا يهم ان بدأ في مستوى متواضع ، وصعد بالجهد والعمل ... هناك آخرون سبقوه يجلسون في الحجرات الضخمة ... ويتمتعون بامتيازات ... امر طبيعي ... تغيير المجتمع جهد يقتضي سنين ... ولكن الاخلاص يحطم الجبال ... مزيج من السذاجة ، والنيات الطيبة ، والطموح.. طموح لم يكن يدركه ... ولكنه موجود ... رغبة في تعويض ما فات .. رغبة في الصعود ...

يدخل كل يوم من باب الوزارة ... يحس بمعنى جديد للحياة ... لا ترى عيونه منظر القطيع ... الرؤوس التي تنحني ، وتهمس في الأذن ... الاصابع التي تصلح السترة وتغلق أزرارها قبل الدخول ... الملتفون حول الوزير يسيرون في ركابه في كل مكان ... الصوت العالي مع المرؤوس ، والهمس الذليل مع المسئول ... الذين يلهثون ويتشنجون ... التاشيرات التي تنقل الورق في حركة دائبة من الصعود والهبوط دون ان تؤدي الى شيء ... الكلمات التي ترن في القاعات والتليفونات والاذاعات كدق الطبول ... يرى كل هذا ... ولا يراه.. يلقي بنفسه فيما يدور ... يحاول ان يصبح جزءا منه ... وتمنعه حقيقته من ان يكون ... كالاشياء التي لا يمكن ان تختلط ... كالماء والزيوت ...

مر الاسبوع تلو الاسبوع ... ينتظر ... بين الحين والآخر ... تهبط عليه ورقة من الطابق الاعلى ... خطاب مصبوب في الاطار الموروث ... ورقة صفراء ممزقة ... كلمات بالكوبيا والحبر الاحمر ... آلة كاتبة عتيقة تقفز فوق الكلمات لتخفي معالم الاشياء بين الكلمات ... نرجو اتخاذ اللازم ... وتفضلوا بقبول.. نمط واحد مكرر ممل ... يجلس امام الورقة ويشعر بالحيرة ... لا شيء مطلوب منه بالتحديد ... تاشيرة تحرك الورقة خطوة اخرى ... نحو شخص آخر ... دائرة مفرغة لا بد ان تدور ... حتى يسير دولاب العمل ...

الناس في الشوارع ... والمصانع ... والحقول ... يروحون ويجيئون.. ويكدحون ... ويطيعون .. لا يملكون من مصيرهم الا القليل ... وفئة جديدة من الناس هم الذين يتحكمون ... مزيج من التقدم والجمود ... فلماذا لا يصبح هو من تلك الفئة ... حتى يغير مع الذين يغيرون ... انه قادر على ان يفعل الكثير وعلى استعداد لان يعطي خبرته ... يبني معهم فيما يبنون ... اليست الاشتراكية هدفا مشتركا يسعون الى تحقيقها ...؟

مر على اصدقائه القدامى في الوزارة ... واخذ يجمع المعلومات ... انه لن ينتظر ... الدكتور طلعت مدير عام الخدمات الطبية وامين الاتحاد الاشتراكي... اسمر طويل ... مرح على الدوام ... يقبل كل من يزوره في مكتبه ... قبلات تطرقع في الهواء ... «الوقاية يا دكتور عزيز ...» الاشتراكية في الطب تعني الوقاية اولا ... تصور ٩٥ بالمئة من ميزانية الوزارة على العلاج ... الاتحاد الاشتراكي بصفته تنظيم لتحالف قوى الشعب لا بد ان يتبنى هذه القضية ... نريدك معنا ... خبرتك سنستفيد منها ... وافكارك ... فاكر ايام زمان ... حين هربت من المستشفى ... لم انساك ابدا ... تاريخ مجيد ... مجيد» ... قبله .. وحضنه .. واوصله حتى الباب ..

بات الايام والليالي سهرانا ... يسال ، ويستقصي ، ويقرا التقارير ... ويزور الادارات ... انتهى من تقريره ... بعد شهرين ... طبعه على الآلة الكاتبة على حسابه ... ثم طلب مقابلة الوزير ...

رحب به كالعادة ... وسأل عن احواله ...

«ارجو ان تكون مرتاحا ...»

«مرتاح ... ولكن لا عمل لي ...»

حملق في وجهه بعينيه الصغيرتين ... علامات الارهاق بادية في الجفون المتضخمة ، وتجاعيد الوجه تتكاثر ...

«اصبر يا دكتور ... لا بد ان تتم اجراءات التعيين رسميا ... وستعود اليك حقوقك وتوضع في المكان المناسب حتى نستفيد منك ... ولكن الى ان تتم هذه الاجراءات كيف نستطيع ان نعطيك عملا رسميا ...؟»

اقتنع وصمت ... ثم قدم التقرير ...

«اعددت التقرير الذي طلبته مني ...»

«حسنا» ... مد يده واخذه ... قرا العنوان ثم فتح درجا في مكتبه ، ووضعه داخله ... «سأقراه واطلبك لمناقشته بعد اسبوع او عشرة ايام» ... رفع سماعة التليفون :

«يا استاذ عبد الغني ... سجل عندك موعد الدكتور عزيز عمران بعد عشرة ايام» ... التفت اليه ثانيا ... «سأعطيك موضوعات خاصة تقراها لي ... وتكتب فيها رايك ...» وقف وسلم عليه ...

«على فكرة ... كيف حال اسرتك ...؟»

رمقه بنظرة غامضة من العينين ... ربما سمع شيئا ... احيانا يحس انه متابع ... غريزته لا تخيب ...

«الحمد لله بخير ...»

عاد الى مكتبه الخالي وجلس عليه ... الدكتور زكي يجلس امامه ... يميل بجسده الممتلىء عبر المكتب ... جسد من اللحم الابيض المدعوك ... وعينان جاحظتان فيهما غباء البقر ... يقرا خطابا باهتمام ويؤشر عليه ... تنهد ... كل شيء سينصلح ... ليصبر قليلا ... ترى ماذا تفعل نادية الان ...؟ يحس

احيانا بفراغ هائل داخل نفسه ... شيء كالعدم ...

***

يجلس في الزنزانة وحيدا على الارض ، مسندا ظهره على الجدار ... نور باهت يتسرب عبر القضبان ... وضجيج في اذنيه يأتي من بعيد ... انوار حمر وصفر ... وغلالة كالسحابة المعلقة في الجو تحيط به ... يسمع صوت المفاتيح في الابواب ... واقداما فوق البلاط ... الزنزانة تتأرجح وتميل على ناحية .. يثبت يديه على الارض ليمنع نفسه من السقوط ... يرى الاشياء هلامية تسبح في الهواء ... قلبه تحت ضلوعه ثقيل كالحجر ... ما زال الزمن يمتد امامه .. رفضوا ان يحددوا يوم الافراج ... سيبقى هنا الى الابد ... وحيدا يجتر الذكريات .. لا صديق ، ولا انيس يتبادل معه الكلمات ...

استيقظ فجأة كمن يصارع الغرق ... فيطفو في لحظة فوق سطح المياه .. اخذ نفسا عميقا ، واحس بالارتياح... ازاح الغطاء جانبا ... النافذة مفتوحة.. يرى السماء واوراق الشجر تهتز في الشمس ، فتلقي ظلالها الراقصة فوق الجدار ... كالتطريز الاسود يتخلل المفارش البيض ... سمع طرقا خفيفا على الباب ... اطلت امه براسها من الباب وقالت :

«صباح الخير ...»

اشار اليها فدخلت ... جلست الى جواره فوق السرير ... لا تفعل هذا عادة ... شيء يقربها اليه اليوم كانها احست بصراع الليل في عينيه ... وفي التقاء الحاجبين في خط اسود كثيف ... يفصل الجبهة العنيدة عن الأنف والعينين ... اسند نفسه على ذراع واحدة ... وقبلها . نظرت اليه بدهشة في زرقة المقلتين ... وضعت يدها على كتفه وقالت :

«اتريد ان اعد لك الافطار ...؟»

«بعد نصف ساعة ... سأكون جاهزا ... كيف حالك اليوم يا اماه ...؟»

«انا سعيد بوجودي معك ...» عادت الدهشة الى المقلتين ... شيء يقربه اليها اليوم ... لا تدرك سببه ... تنهدت ... تحبه حبا عميقا ... وتقدره .. ولكنها تعجز عن فهمه في كثير من الاحيان .. القى بكل ما يهتم به الرجال في الحياة جانبا ... واختط لنفسه مسارا مفعما بالاشواك ... عاد اليها بعد السنين الطويلة ... الان حياته اصبحت عادية ... ينام في فراش نظيف ... ويأكل ثلاث وجبات ... يقود سيارته في الصباح ، ويذهب الى عمله ... تفتحت السبل امامه بعد طول انتظار ... ولكنه كان اكثر مرحا ايام الهروب والسجون ... تذكرت تلك الليلة الممطرة منذ سنين ... كانت تجلس في الصالة الكبيرة تطرز بعض الملابس وتستمع الى المذياع ... تسرح بأفكارها مع الابن الغائب في بلاد بعيدة ... هرب واجتاز البحار ... دق جرس الباب ... دقة

واحدة سريعة ... نظرت الى معصمها ... الساعة الحادية عشرة والنصف ... من يدق الجرس في هذه الساعة المتأخرة من الليل ...؟

أحست بشيء من القلق ... قامت وفتحت الشراعة ... وجدته يقف خلف الباب . يبتسم في هدوء من خلف قضبان الحديد الدائرية ... همست :

«عزيز ...»

احاطته بأحضانها كأنها لن تتركه ابدا ليفلت من جديد ... دموعها تنهمر كالسيل الصامت ... تبكي كما لم تبك في حياتها ... على الابن الضائع ... والعمر ... ووحدة السنين ... أجلسته الى جوارها على الكنبة ... «متى عدت ؟ مالك نحيل ...؟» تمسك بيده بين ايديها ... وتنهل منه بعينين زرقاوين فيهما عمق البحيرات في الجبال ... «اخاف عليك ... لماذا عدت ...؟ سيقبضون عليك من جديد» ... احضرت اليه طعاما ... وشايا ساخنا ... تروح وتجيء كأنها تريد ان تعطيه كل ما في البيت ... أكل لكي يرى بريق السعادة يلمع في العينين ... يثرثر معها ويضحك ، ويحكي لها عن فرنسا ... والجزائر ... وحركة الثوار في باريس ... تتنقل ملامحها بين الفرحة والخوف ... بين سعادة طاغية ... ومرارة ترسبت مع السنين ...

كان يمشي مع عماد على كورنيش النيل ... يتحدثان عن ايام الطفولة ... والاهل والخلان ... تركه ليعود الى بيت احد الاصدقاء ... غدا سيعود الى طنطا ... حجرة فوق السطح تطل على الحقول ... البرسيم الاخضر ، والقمح تتماوج أعواده في الأصيل ... تصورها تجلس وحدها في المنزل ... فسار على قدميه عبر الليل المطر المهجور ... يجازف من اجلها مرة واحدة ... فكم جازف من اجل الآخرين ...

جاء وقت الانصراف ... احاط بذراعيه الجسد النحيل ... كبرت ... وابيض شعرها ... وانحنت تحت اثقال الحياة ...

«كوني قوية ... ولا تقلقي ... منك تعلمت الكثير» ... قبلها ... على الوجنتين ، وفوق الجبهة ... ثم هبط مسرعا ... توقف عند قاع السلم ... رآها تطل عليه من اعلى ... لوّح لها بيده واختفى في الظلام ...

لم يعط لها الكثير في حياته ... تخرج من الكلية واختفى ... تراه بين الحين والحين ... عندما يفرج عنه بضعة شهور ... او يستقر في السجن القريب ... الان يقيم معها في البيت ... ولكنه ما زال كالبعيد ... طرأ عليه تغيير ... كأن اشياء تشغله عن الآخرين ... صامت اغلب الوقت ... حزين.. تنتابه موجات من الغضب العنيف ، يجرح فيها أقرب الناس اليه ... قلق على الدوام .. كالذي يسعى الى اشياء يخشى ان تفلت منه ، فيظل يجتر المخاوف.. اعتقدت اول الامر ان الفراق بينه وبين نادية هو السبب ... ولكنها ادركت باحساس الأم ... ان هذا ليس وحده ما يشغل باله ...

دخل عليها المطبخ واحاطها بذراعيه من الخلف قال :

«اعرف انني اجرحك احيانا ... وارجو ان تسامحيني ...»

قالت في هدوء :

«اشياء كلها بسيطة ... المهم انك موجود ... لماذا تقلق هكذا ...؟ كل شيء يأتي في اوانه ... عش واستمتع بحياتك وعوض السنين» .

يستمتع ... بماذا يستمتع !.. نعم يريد ان يعوض السنين ... ان يصعد الى اعلى ، ويشارك في تحديد الامور ... طموحه يطغى على كل الاشياء ... افقده القدرة على استطعام الحياة ... لم يعد يحيا في الاشياء البسيطة ... جلسة مع الاهل في المساء ... زيارة صديق ساءت ظروفه ويفرح عندما يراه.. شجرة تهتز في نسيم الليل ... اصبح كالاعمى ، تحكمه رغبات طاغية ... المنصب والمرتب ... وجد يفرغ فيه حرمان كاللهيب ...

«نعم يا اماه ...» ولكنه لا يسمع ... لا يرى ما يراه ابسط الناس ... اولئك الذين يحبونه مهما كان ...

جلس امامها على المائدة يتناول افطاره ... فتح جريدة الصباح بفتور ... تعلقت عيناه بالحروف الحمر تصدم العيون ...

«الافراج عن جميع المعتقلين» صرح وزير الداخلية انه في بحر اسبوع ... ستخلو جميع المعتقلات والسجون من الذين احتجزوا او حكم عليهم في قضايا الشيوعية» ... ثم برواز ...

«الاتحاد الاشتراكي بوصفه تنظيم قوى الشعب العامل يتسع لجميع الآراء.. بما فيها الماركسيين ... الذين ينبغي ان يخضعوا لنظامه ... ولكن سيعاقب كل من يحاول ان يكوّن تنظيما مستقلا عقابا صارما ، وفقا للقانون» .

ابتلع لقمات صغيرة بسرعة ، وفنجانا من الشاي ... راته وجها مشرقا عبر المائدة ... قفز من على مقعده ... فتح الباب الخارجي ... ثم نادى عليها :

«يا اماه ... جميع المعتقلين سيخرجون ...»

★★★

طائرة حربية تحمله الى اسوان ... الوزير سيزور المنطقة لدراسة مخاطر انتشار البلهارسيا بعد اتمام السد العالي ... فالري المستديم سيبقي على حياة القواقع ... وفي القواقع تنمو يرقات الدودة ... تكتمل وتتركها لتسبح في المياه ... باحثة عن ساق الفلاح او جسمه غارقا في الترع والقنوات ... تخترق الجلد ، وتسير مع دورة الدم الى الكبد والمصارين ، ومجاري البول ...

طلب منه ان يصطحبه في هذه الرحلة ... يجلس الوزير في مقدمة الطائرة وحوله المقربون ... الدكتور خليل ، والدكتور عاصم الدجوي ... والطبيب الاصلع الذي يعمل في العلاقات العامة ... يعد له السفريات ، والاقامة ، ويحمل الحقيبة من مكان الى مكان .. حرص عزيز على ان يبقى بعيدا ... هناك اشياء لا يستطيع ان يقبلها ... هذا التسابق على القرب من الوزير ... اذا اراد ان

يبدي حسن استعداده فربما ينبغي ان يفعل مثلهم ... ولكنه لا يستطيع ... حاول كثيرا ان يندمج معهم ... لكنه دائما غريب ... حدود فاصلة تكونت ... يحس انهم مجموعة واحدة ... تربطهم الاسرار ، والعلاقات ، ومصالح مشتركة ... يتعاملون معه حسب الاصول ... ولكنه خارج الحلقة دائما ... منفصل ... معزول ... آخرون كانوا معه في نفس التيار ... امثال خليل مبارك ، وعاصم الدجوي وطلعت المعداوي... يجلسون الى جواره الان ويتصرفون كأنهم مهمون ... هزة الراس بالموافقة ... وحركة اليدين ... وحديث طويل عن شئون البلد ... وكيف ينبغي ان تكون ...

ضجيج المحركات يصم اذنيه ، والضغط المنخفض يسبب له آلاما حادة في الطبلتين ... اول مرة يركب فيها طائرة ... منذ شهور تقريبا كان ينتظر في الزنزانة ، لا يعرف اين يكون المصير ... والآن يطير على ارتفاع عشرين الف قدم متجها الى السد العالي.. يرى الوادي شريطا اخضر يتعرج عبر رمال الصحراء.. فاصل حاد بين الحياة والموت ... حيز محدود يتدفق فيه النيل ... نهر عظيم، هادىء ، اليف ... مساحات من الصحراء تمتد بلانهاية ... هنا حضارة آلاف السنين ... عرق ، وعمل ، وحقول خضر ، وبيوت ورجال ونساء يتكاثرون ، ويتزاحمون فوق الارض الضيقة ... وهنا محيط واسع من الجفاف ، وبدو رحل ضائعون ...

عندما همّ بالركوب في الطائرة وجد نفسه وجها لوجه مع عاصم الدجوي... فتقدم نحوه يبتسم بترحاب ومد اليه يده بالسلام ... فوجيء به يتجاهله ... العينان الجاحظتان تتفاديان النظر اليه ... والملامح الغليظة مستقرة في جمود.. لاحظ الموجودون ما حدث فانفضوا من حوله ، وساروا وحدهم ... سار بخطوات بطيئة يفكر ... كيف حدث هذا ... قضيا السنتين الاخيرتين من الكلية لا يفترقان ... في المدرج يجلسان في الصف الاخير ، يتتبعان ما يدور من اعلى.. في الليل يسهران سويا اما في بيته في قصر الدوبارة أو عند عاصم في المنيل... يقرآن في الكتب السميكة استعدادا للامتحان ... يتنزهان ساعة او ساعتين للراحة ويتحدثان ... يأكلان وينامان سويا في الحجرة التي خصصت لهما ... اول تجاربهما في السياسة اشتركا فيها سويا ... اجتماعات الطلبة في الملاعب.. واللجنة الوطنية للعمال والطلبة... صحيح انه كان غريب الاطوار يرتدي طربوشا، ويحمل عصاة يتكيء عليها حين يمشي ... ويبدو اكبر سنا من بقية الطلبة ... يشبه كبار الموظفين في شكله ، وفي الغطرسة التي لا تفارقه الا نادرا ... شديد الاعتزاز بآرائه ... شديد الغرور ... جذبته شخصيته الفريدة من نوعها ، وآفاقه في التفكير تمتد خارج اسوار الكلية والدروس .

كيف حدث هذا ...؟ ايمكن ان يكون قد نسيه ...؟ مستحيل ... لا بد انه سمع عن خروجه ... سمع عن تطوراته الكثير ... انه وثيق الصلة بالوزير.. ربما سأله بطريقته الملتوية ... ما رايك في الدكتور عزيز ؟... شخص ممتاز ، اليس كذلك ؟... انه يتعمد ان يتجاهله ... لولا هذا التعمد لقال له على

الاقل ... «آسف انني لا اتذكرك» لكنه اراد ان يقطع حتى احتمال الحديث ... تصرف معه وكأنه يقول «لا اريد ان تقوم بيننا اي صلة ...» يتعمد ان يسري الآخرون الواقعة حتى ينتشر عنها الحديث ... فلماذا أحس بالحيرة ؟... أيمكن ان يكون قد اساء اليه في شيء ...؟ ولكن متى ... لم يره منذ ان افترقا بعد التخرج مباشرة ... قضى حياته بعيدا عنه في السجون ... عاد بذاكرته الى الوراء المرة تلو المرة ... عندما افترقا كانا صديقين حميمين ، ومنذ ذلك الوقت لم يلتقيا من جديد الا اليوم ...

تطلع من النافذة ... الطائرة تهبط وتستعد للنزول . احس بالآلام في الأذنين وصفير ... عودة الضغط الجوي ...

انه يقف الان فوق السلم العالي ... لحظة فريدة في العمر ... هنا الوجوه القوية لفحتها الشمس ... تقاطيع كالصخر تحميها القبعات ... عيون تنظر الى الآفاق البعيدة ... واصابع تشير ... «سد من الرمل والحجارة عرضه عند القاعدة خمسمائة متر ، وارتفاعه مائتان وخمسون ، وطوله ثلاثة كيلومترات... سيحتجز بحيرة مساحتها خمسمائة كيلومتر مربع ... هذا هو التربين الاول».. يرى المياه تتدفق شلالا ابيض ... ويحس بالرذاذ فوق وجهه منعشا ... ستنار جميع قرى مصر بالكهرباء ... وتدار المصانع ... طاقة جبارة بلا حدود ... عشرة آلاف مليون كيلو وات ... هذا هو عبد الناصر ... احلام تتحول الى حقائق في الوجود ... «وخمسة وثلاثون الف عامل من الصعيد ...» اجساد سمر تتسلق الصخور ... معاول تعلو وتهبط ، واكتاف قوية تحمل الجرانيت الاسود ... تذكر اليمان ... «هناك مشكلة ... كسارة الحجر تثير غبارا خطيرا وتسبب تكلس الرئة» ... انه يعلم معنى هذا الداء ... تكلس الرئة يؤدي حتما الى الفناء ... هكذا دائما ... يبنون ويموتون ... الهرم الاكبر ... وقناة السويس ... والسد العالي ... دورة التاريخ تصعد الى اعلى ... ولكنهم هم ما زالوا يموتون ... يقيمون صروح المستقبل وتحتها يدفنون ... كسرة من الخبز وقليل من الماء ... ولهيب الشمس المحرقة ... هذه هي الحياة بالنسبة اليهم تنتهي قبل ان يقطفوا ثمارها ...

هبط الى التربين .. الات ضخمة لم ير مثلها من قبل ... ينتقل في صمت وذهول ... يسير خلفهم بعيد عن زحمة المتكالبين ... وجوه شابة ... عمال ومهندسون يشرحون في حماس ... بريق في العيون ... هنا تبني الحياة الجديدة ... فينون الفراش المريح ... واضواء المدينة ... والاهل ... ويعيشون على الرسائل ... ومنظر البناء يرتفع عاليا يوما بعد يوم ... وشلال ابيض يتدفق من بطن الجبل ... راى وجوها حمر ... خبراء سوفيت ... احس بالود نحوهم ... ترى لو تحدث معهم ماذا سيقولون ؟

صعدوا من جديد فوق السد ... الى جواره رجل ... قصير القامة مدكوك الجسد يرتدي قميصا وسروالا ، وصندلا خفيفا حول القدمين ... عيناه ضيقتان

زادت من ضيقهما اشعة الشمس البيضاء اللافحة ، ومسافات من الصخر والرمال ... وجه شيخ تفرعت فيه الغضون ... حيوية في الخطوة ، ونظرات ثابتة مفعمة بالهدوء ...

سأله :

«منذ كم سنة وانت هنا ؟»

«ثلاث سنوات» .

«واين كنت تعمل قبل ان تجيء ...؟»

«في مشروع كهرباء البحيرة ...»

«الحياة قاسية هنا اظن ...؟»

«الى حد ما ... اشكو من الدوزنتاريا ... تزداد مع حرارة الجو... ولكنها مسائل بسيطة ... العمل ينسي الانسان ...»

«وما هو عملك في مشروع السد ؟»

ابتسم في هدوء :

«انا مدير التنفيذ للسد العالي ونائب رئيس المشروع» .

***

عندما دخل في الصباح فوجيء بالدكتور زكي يبتسم له ويقول :

«مبروك» .

«على ما ؟»

«صدر قرار التعيين الخاص بك ... طلبوا مني ان أسلمه اليك حتى توقع عليه» . مد يده بملف باهت ... فتحه عزيز واخذ يقرا ...

«بعد الاطلاع على ... وعلى ...» ديباجة طويلة لا يفهم منها شيئا ... ماله وما للقوانين ؟... كل شيء يتحقق بالعمل والجهد وليس بالقانون ...

«تقرر تعيين الدكتور عزيز عمران طبيبا بديوان عام الوزارة في اول مربوط الفئة السادسة ...»

بهت ... قرا القرار ثانيا بامعان ... ربما اخطأ ... لا ... لم يخطيء .. «اول مربوط الفئة السادسة» .. حمل الملف ... ترك المصعد وانطلق فوق السلم يقفز درجتين ... درجتين ... راى عيني الفراش تحملقان فيه باندهاش ... لا ينتظر المصعد ابدا هذا الموظف الجديد ... شكله محترم ... ولكنه غريب ... لا يتصرف مثل الآخرين... دفع باب الدكتور خليل ... وقال:

«ما هذا القرار ...؟»

حملق فيه من خلف النظارة ... كيس الدهن يلمع فوق جبهته ... وجه فيه موات المومياء او التمثال ...

«اي قرار ...؟»

«قرار التعيين الخاص بي ...»

«ماله ...؟»

«في الدرجة السادسة ... انا في الدرجة السادسة ...» ضحك في سخرية ... »الم تراعوا حتى السن ... عمري اثنتان وخمسون سنة الان« .

«يا عزيز ... يا صديقي ... هوّن عليك قليلا ... انسيت ظروفك ؟ هل تعتقد ان كل شيء ينصلح بهذه السرعة ؟... انت رجل مكافح ، وتعودت الكثير ... هذه هي الخطوة الاولى التي لا بد منها ... اكد لي السيد الوزير انه سيحسب لك كل ما فات ... مسألة لن تأخذ اكثر من شهر او شهرين ...»

«اريد ان اسمع منه هذا الكلام مباشرة ...»

«لك ان تقابله ... اجلس يا اخي... واهدا»... ابتسم ناحيته مشجعا.. ابتسامة ميتة ككل شيء فيه ... لا يتحمس الا في الخطب ... يرن صوته كالطبل ... فيه طيبة وشيء من الاعتزاز بكرامته ... ولكنه لا يهمه سوى ما يعود عليه بالنفع مباشرة ... تمرس طويلا في النقابة ويعرف كيف يساير بعض الامور ...

«تشرب فنجان قهوة ؟»

جلس عزيز على مقعد من الجلد في ركن الحجرة ... واشعل سيجارة :

«لا مانع» .

الان ينتظر في مكتب الاستاذ عبد الغني ... في المرات السابقة كان يدخل مباشرة من الباب الخاص ... ولكن هذه المرة ينتظر دوره مثل الزوار من خارج الوزارة ... مضى على ميعاده نصف ساعة ... مجرد صدفة ؟... لا داعي لان يتسرع في الاستنتاجات ... ولكن هذه السلسلة من الدلائل تتوالى ... على كل حال سيرى ... ايمكن ان يكذب رجل في مستواه الى هذا الحد ؟... مستحيل ... ولماذا ؟ انه لم يطلب منه شيئا عندما قابله اول مرة ... هو الذي تطوع بكل الاقتراحات ... هل كان لخطاب رئيس الحكومة اثر ؟... ولكن ان صح هذا هل يزول الاثر بهذه السرعة ؟... اخرجته غمغمة الاستاذ عبد الغني من تأملاته ...

«تفضل ... يا دكتور عمران ... السيد الوزير ...»

وقف امام المكتب ... لم يدعه هذه المرة الى الجلوس... فجلس من نفسه.. شعلة التمرد القديمة تستيقظ من جديد ...

قال :

«وصلني اليوم قرار بالتعيين ... في الدرجة السادسة» ...

ظل صامتا يحملق فيه بعينيه الصغيرتين ...

استطرد :

«وكنت قد وعدتني بتعويض ما فات ... عند استصدار قرار التعيين» .

«وهذا هو ما سيحدث بالفعل» .

«اذن ما معنى هذا القرار ...؟»

«حولت الموضوع الى الشئون القانونية ... فاتضح انه لا بد من تعيينك في ادنى الدرجات اولا ... ثم تعديل الوضع ...»

«ومتى يتم هذا ...؟»

«في ظرف شهرين على الاكثر» .

صمت ... الكلام يبدو مقنعا ... ولماذا يكذب عليه الرجل ؟... لا ... انه يتمادى في الشكوك ...

وقف وقال :

«اذن سامضي ورقة باستلام العمل ... اشكرك» ... توجه ناحية الباب.. لحه وقد انصرف الى اوراقه كأن الموضوع انتهى ...

***

عندما يعود بذاكرته الى تلك الايام ... يندهش كيف اتسم موقفه بهذا القدر من السذاجة التي تبدو مضحكة ... المكافح المحنك الذي عرك السجون ، والمنافي ... واجه المخاطر ، وصارع الاعداء ... شيء لا يصدق ... ولكنه قد كان ... وعندما يفكر في الاسباب يدرك انها كانت عديدة ... لا شك ان خبرته بهذا المجتمع وبالناس كانت قليلة ... كرجل المقاومة يطلق الرصاص ويواجه الموت ... ولكن عندما يعود الى الحياة المدنية ، يواجه صعوبة في فهم الاشياء والناس ... والذين يؤمنون بالمبادىء والقيم ... حتى اذا كانت فيهم عيوب.. يحتفظون بقدر من النقاء ، ولا يتصورون بسهولة قدر الانحدار الذي قد يصل اليه اولئك الذين يتعاملون مع المال او السلطة ...

ولكن السبب الرئيسي هو انه لم يكن يريد ان يرى ... حملته موجة من الطموح نحو اشياء كانت حياته كلها رفضا لها وتضحية بها ... لكن السنين الطويلة من القهر والحرمان ... اضعفت ارادته ... وجعلته يلين ... انه كالعطشان ... يريد ان يعيش ... ان يستمتع مثل غيره بحياة فيها استقرار.. ان يعترف بقدراته ... وان يحتل مكانه في المجتمع الذي يقولون عنه انه مجتمع اشتراكي ... انه من اول الاشتراكيين ... فكيف لا يجد مكانا مناسبا له في هذا النظام ؟... لم يكن يدري ان الاستقرار بالنسبة اليه وهم انتهى ، وراحت ايامه ... وان حياته لا بد ان تكون استمرارا منطقيا للحاضر وبحثا عنيدا عن مستقبل يسير في نفس الطريق ...

لم يقع في هذا الخطأ وحده ... فقد وقع فيه الآخرون ... مهدوا له طويلا في مناقشاتهم خلف جدران السجون ... ارهقوا هم ايضا من حياة القيود ، والقضبان والمطاردة ... شردوا في ربوع الارض ، هم وزوجاتهم واطفالهم ... ذاقوا السياط والموت والعطش والجوع ... ثم جاءتهم قيادة جديدة للبلاد وقالت «نحن اشتراكيون» فمدوا يدا للتعاون كانت في الواقع يد التسليم ... التسليم للقهر والجبروت ... ثم وضعوا لهذا المنهج نظريات ... وبراهين.. وطقوس..

انهم اصحاب مدرسة العلم في السياسة ... فلا بد اذن من تأصيل المسائل ... ووضعها على اساس مدروس ...

شيء واحد انقذه من نهاية وصل اليها آخرون ... بعضهم منذ البداية كخليل مبارك ، وعصام الدجوي وكثيرين ... وبعضهم بعد ان خرج من السجون ... شيء في الاعماق بقي رغم كل الظروف ... احساس بالصدق وابن يكون ... لذلك لم يكن من الممكن ان يصبح منهم ... وان يفتحوا له مكانا في صفوفهم ويستوعبوه ... بقي كالجسم الغريب ... يتأرجح في مكان ليس هنا او هناك ... مجذوب وفي نفس الوقت مطرود ... يفتحون له ثقبا صغيرا ليمر منه ثم يغلقونه ... ويحس بحصار يضرب من حوله ... حركة التفاف بطيئة ومدروسة تتم من تلقاء نفسها ... فاذا كان ثمة خطر على من يدعي الاشتراكية ... فليس اخطر من الاشتراكيين ...

جاءه الدكتور طلعت وهو يستعد للخروج ... يوم آخر قضاه دون عمل ... ست ساعات من الضياع ... سمع صوته يهلل كعادته وهو يجتاز باب الحجرة بقوامه الطويل ...

«كيف حالكم يا جماعة ... اهذا هو كلام ؟... لا نراكم ابدا ... لا ... لا يا دكتور عزيز ... في نفس المبنى ولا نلتقي ... قضايا مهمة تشغلنا جميعا ولا نتداول فيها على الاطلاق ... طالما انكم لا تأتون ... فقد جئت انا اليكم» ... اخرج سيجارة واشعلها ... اخذ نفسا طويلا ونفث الدخان بصوت مسموع... بحث عن مقعد بعينيه فقام الدكتور زكي واعطاه مقعده ... جلس ... ترى ماذا يريد ؟... يحب الثرثرة ، ولكن عادة يحركه غرض محدد ... يصل اليه بعد التفاف طويل ... سنرى ...

هذه المرة دخل في الموضوع مباشرة ... لا وقت للدوران ... ولا داعي... باكرا اجتماع سيعقده الاتحاد الاشتراكي لموظفي الديوان.. سيقام في الحوش.. ١٥ مايو ذكرى فلسطين السليبة ... الوزير سيحضر الاجتماع ... طلبوا من الدكتور خليل ان يعد بحثا مختصرا في الموضوع ليلقيه ... فاعتذر بأن الوقت ضيق ... يعلم عزيز انه والدكتور خليل متنافسان ... السياسة في هذه الايام مجال خصب ... لا تسع الكثيرين طالما انها صراع على المناصب ... قال للوزير «انه لن ينقذنا من هذه الورطة سوى الدكتور عزيز» . توقف ليلتقط انفاسه ، ونظر اليه مبتسما . الوجه خال من التجاعيد ... كل شيء لا يخترق السطح ، فلماذا تنشأ التجاعيد ...؟

«ما رأيك» ؟

تردد لحظة ... فرصة للعودة الى النشاط السياسي ... «يموت الزمار واصبعه يلعب» .

قال :

«لا مانع» .

«ستكون مستعدا باكرا ؟»

«نعم» .

«هذا ما قلته للوزير بالضبط ... كفاءة نادرة لا نستفيد منها ... أعرفه من ايام الدراسة ... عبقري» .

ضحك عزيز ... يعرفه جيدا ، ولكنه يشعر بالرضى ازاء كلامه ... شيء من التقدير ... ولو حتى بالكلمات ...

«احضر كلمتك الليلة الساعة العاشرة مساء ... لنكتبها على الاستنسل ، ونطبعها ... قالوا لا بد ان نقراها اولا ... انت عليم بالامور ... عقلية قديمة.. لا يعرفون من هو الدكتور عزيز ...»

«الساعة العاشرة مساء ..»

«الا يكفيك هذا ...؟»

«لا» ...

«اذن ... ما الحل ... ارجوك ... ان تبذل جهدا خاصا ...»

«لماذا لم تفكروا في هذا مبكرا ؟»

«انت تعرف وضعي ... مشغوليات لا تنتهي ... اضع تخطيطا جديدا ثوريا للعلاج الطبي ... ولجان ... وامانة الاتحاد الاشتراكي ... وست جمعيات اعمل في مجلس ادارتها ... والنقابة ... لا اجد وقتا للتنفس ...»

«باكرا صباحا الساعة الثامنة... هذا يعطيكم ثلاث ساعاتللقراءة والطبع .. الاجتماع سيعقد الساعة الحادية عشرة والنصف ... اليس كذلك» ؟

تنهد :

«وهو كذلك يا سيدي ... اياك ان تخلي بنا ...»

«اطمئن ... لن اخلي بكم ...»

السرادق يمتد بطول حوش الوزارة ... بين المبنى والمجمع ... صفوف وراء صفوف من الموظفين ... والعمال ... وعلى المنصة الخشبية ... مائدة مغطاة بمفرش اخضر ... وميكروفونات اعناقها محنية ... وآخر طويل منتصب عند ركن المنصة ... تطل من بينها وجوه اعضاء الاتحاد الاشتراكي يتوسطهم الامين الدكتور طلعت والوزير ... جلس في ركن المنصة بعيدا في الصفوف الخلفية.. حيث يستطيع أن يتابع ما يدور دون ان يكون جزءا منه ... ملامح الوجوه مختلفة ... ومع ذلك تشبه بعضها ... شيء واحد مشترك ... شيء باهت ممسوح ... كأن العمل في الجهاز الحكومي يسحق ما يميز الانسان ويجعله مثل الآخرين ... كالنقود المسكوكة تضغط في قالب واحد ... وجوه فيها شحوب الفقر ... وفيها حزن ... كانها لا تعرف سوى الهموم ... وفوق المنصة اعضاء اللجنة ... صفان يجلسان منتصبين فوق المقاعد ... يريدون لملامحهم ان تبدو جادة صارمة ... كانهم يجتمعون لتحرير فلسطين الان ... يحتفلون بكارثة ، فلا بد من ان يتصرفوا كانهم في مأتم ... فهذه هي الاصول .

آيات من القرآن تتلى في صوت قبيح ... تزيد الاحساس بانهم في مأتم..

وكلمات مملة رتيبة لا روح فيها ... حتى الحماس كالطبل الأجوف ، مصطنع ، عاجز عن الاقناع ... «اجتمعنا بتوجيه السيد الوزير ... نسير تحت قيادتنا صفا واحدا ... الاتحاد الاشتراكي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ... الثورة منحتنا حقوقا لم يحلم بها الشعب من قبل ... بفضل قيادتنا سنسير... اقمنا مجتمعا اشتراكيا في بلادنا ... والآن سنحرر فلسطين بالتضحية والفداء ... اسرائيل العاهرة ينبغي ان ترتدع وتفيق ... سنسحقها من الوجود نحن العرب ...»

بين الحين والحين يقفز احد الجالسين واقفا ويردد بعض الهتافات ... فترد عليه مجموعة اعدت نفسها من قبل في الصفوف الامامية ... بينما يتابع الآلاف ما يدور كانهم في المسرح ... متفرجين .

جاء دوره ... وقف في هدوء امام الميكروفون ... وبدا يتكلم ... ينطق الكلمات بوضوح ... كلمات بسيطة اعدها بعناية ... بعض الارقام والحقائق.. قضية الوحدة العربية في مواجهة اسرائيل ... معركة ليست سهلة لان خلفها يقف الاستعمار الامريكي بماله ، وسلاحه ، وقوته المنبثة في كل مكان ... حتى في بلادنا ... قيمة المساعدات التي تقدم لاسرائيل وكيف تستخدم ...

الاشتراكية ليست شعارات فحسب وانما عمل ، ودور متزايد للشعب ... حل مشكلة فلسطين والعدوان الاسرائيلي يساهم في الاسراع بالبناء . لا بد من تحرك الملايين استعدادا للمعركة والحماية بلادنا ... كلماته فيها صدق ... انه ليس مثل الجالسين على المنصة ... فقد دفع ثمنا لأفكاره بينما كانوا هم المستفيدين ... كلمات هي جزء منه ... تخرج تلقائية .. جزء من ايمانه بالحياة ... وبالناس .. وبمستقبل يريدون ان يصنعوه ...

انه يشعر بالقوة عندما يقف هكذا ... مكانه ... مياه يسبح فيها بسهولة لانه يعرفها ... طموح الرجل السياسي الذي يريد أن يؤثر ... ان ينقل رسالته ... ان يرى بريقا في العيون ... وانصاتا ... في الوجوه المرفوعة اليه ... ان يسمع كلماته ترن في الصمت ... لانهم يسمعون ... لذيذة هذه اللحظات في الحياة ... ومسكرة ... لكنها مفعمة بالخطر ... فقد تصبح هدفا في ذاتها ... وتحول الانسان من ثائر ليبحث عن الحقيقة ... الى طالب سلطة ونفوذ ...

تفادى ان يسير معهم بعد انتهاء الاجتماع ... يعرف انه حقق نجاحا ... ويحس بغريزته ان بعضهم سيحقدون ... توارى خلف الزحام وعبر الحوش... سمع بعض الناس يتكلمون ...

«اسمه عزيز عمران ... خرج من السجن اخيرا ... آه ... شيوعي اذن.. ولكنه الوحيد الذي قال شيئا مفيدا ... كلمة مدروسة ومؤثرة ..»

آه ... شيوعي اذن ... ولكنه ... يوما بعد يوم يزداد ادراكه لحقيقة الامور ... شيوعي اذن ولكن ... الشيوعية في نظرهم شيء ممجوج ... اسرع

الخطى ... الطريق لا يزال طويلا .

★★★

في اليوم التالي جاءه الدكتور طلعت ... وجده ينتظره في الحجرة عندما دخل في الصباح ... في الساعة الثامنة والنصف ... يصل دائما في الميعاد.. عادة لا معنى لها حيث انه لا يفعل شيئا ... قالب صب فيه منذ الطفولة ... قام وسلم عليه .

«صباح الخير ... يا سيدي اهنئك ... كلمتك كانت رائعة ... الدكتور خليل فاته نصف العمر ... لم يكن موجودا ...» ضحك بمرحه المعتاد وقليل من الخبث ... «الوزير مبسوط جدا ... نريدك ان تعمل معنا في الاتحاد الاشتراكي ... ان وحدة الوزارة في احتياج الى تنشيط ... اقترح أن نبدا برنامجا للتوعية ... سنكوّن لجنة ونضمك اليها ... فما رايك ...؟»

لا بد انه اخذ راي السلطات ... يذهب ليليا الى مقر الاتحاد الاشتراكي في قصر النيل ... فليجس حقيقة الامر ...

«ولكني لست عضوا في الاتحاد الاشتراكي» .

ضحك في شيء من السخرية :

«انت يا سيدي لست شخصا عاديا ... ثم نحن جميعا مواطنون ... عندما يطلبنا الاتحاد الاشتراكي في عمل نلبي الدعوة ... نحن نعمل لمصلحة الوطن... وليس لغرض آخر ... ومصلحة الوطن تعلو فوق كل اعتبار ...»

من اين تعلم هذه اللغة ... كلهم يتحدثون بها الان ... لغة تميزهن في كل مكان ...

«موافق» .

وقف ومد يده ...

«وهو كذلك ... اتفقنا ... لا بد ان اتركك الان ... عندي لجنة الساعة التاسعة» ... هرول خارجا من الباب ... تبعه بعينيه من الخلف ... تحت السروال ، بطن وارداف امتلات من كثرة الجلوس ... صوته يرن في الخارج.. «اهلا يا عزيزي» ... ومصمصة الشفاه فوق الأصداغ ... سيثرثر نصف ساعة اخرى رغم اللجنة ... بالاسلوب الثوري ...

★★★

يحس انه يعيش لاول مرة منذ ان اخترق بوابة السجن ... وخطا خطواته الاولى في عالم مجهول ... اجتمع باللجنة عدة مرات ، وسرعان ما اصبح قطبها المحرك ... وضعوا سويا برنامجا كاملا يشمل جميع موظفي الوزارة ... صالة صغيرة يستخدمونها لعرض الافلام تسع بالكاد مائة شخص ... سيعقدون فيها

سلسلة من الاجتماعات للادارات المختلفة على التوالي ... فليفتحوا المناقشة على مصراعيها ... ما حققناه منذ قيام الثورة ... عيوب في الوضع الحاضر ، وكيف نواجهها ... واجباتنا في العمل الاداري ... دور العمل السياسي في تنظيم الشعب وتوعيته ... ساعة كل يوم تمتلىء فيها الصالة الصغيرة ... ينصتون باهتمام ... اول الامر كانوا صامتين ما عدا قلة من محترفي الكلام ... ثم تفتحت الافواه والعقول ... لم يسمعوا مثل هذا الحديث من قبل ... موجة من الحماس تشتعل في الوجوه ... المباني القديمة والحجرات تنبض ... الباب الصغير تتدفق عبره الصفوف .. يملأون المقاعد ويقفون ... وفي الليل تسهر اللجنة في الكشك الصغير ، تعد الاوراق لبرنامج الاسبوع ...

مر شهر بأكمله ... وهم يعملون ... حتى اولئك الذين تخلفوا في الايام الاولى اصبحوا يجيئون ... حتى كبار الموظفين يأتون ... يجلسون في الصفوف الامامية بوقار .. يضعون ساقا فوق ساق ويسمعون ... اعضاء لجنة العشرة يهللون ... لم يروا شيئا مثل هذا من قبل ... يرى الابتسامات ، والحماس ، واقبال الناس ... فينتابه السرور ... يشترك احيانا في توجيه المناقشات ... واحيانا يجلس في ركن بعيد ويسمعهم يتكلمون .. كلمات فيها صدق وآراء تكسر القيود ... لكنه كان يرى ما يدور امامه ولا يرى ما يعد في الخفاء .

في احد الايام فوجيء بالصفوف الاولى يملأها كبار المسئولين في الوزارة.. ترقب العيون متشجون ... انتهى الاجتماع دون ان يحدث شيء غير عادي ... ولكنه احس بقلق لم يستطع ان يحدد سببا له ... كأن كارثة غامضة تنتظر في ركن خفي ... في اليوم التالي هبط من مكتبه الى الصالة الصغيرة في الموعد المعتاد ... فوجدها خالية تماما ... عند الباب وقف احد موظفي الامن ... وجهه ابيض ، وعيناه فيها برود ...

ساله :

«اين الاجتماع» ؟

حملق فيه لحظة كأنه يفحصه ...

«صدرت الاوامر بالغاء الاجتماعات» .

«ممن» ؟

«لا اعرف ...»

عاد الى مكتبه ... الجالسون في الحجرة صامتون ... كل منهم يتصفح الاوراق كأنه مشغول ... شيء كالجدار الصامت يحيط به ... وخوف في العيون ...

قال :

«يا دكتور زكي ... اسمعت ان الاجتماعات الغيت منذ اليوم ...؟»

التفت اليه ... كان قد شارك معهم في العمل ... هز كتفيه في شيء من الضيق ... وحملق فيه بانكسار كالمضروب ...

«سمعت ...»

«وما السبب ...؟»

«لا اعرف ... كل ما اعرفه هو ان الوزير مجتمع منذ ساعة مع لجنة الاتحاد الاشتراكي ... وقد منع دخول احد عليهم منعا باتا»... المصباح الاحمر مضاء.. حتى كبار الزوار ينتظرون ...

ضحك عزيز ...

«يبدو ان الامر خطير ... على كل حال سنرى» .

تدخلت الدكتورة سهير في الحديث بصوتها الشاكي ...

«لا فائدة يا دكتور عزيز ... لا يريدون لاحد ان يتحرك ... كل شيء ينبغي ان يبقى محكوما ... في حدود ... حدود ما يرونه صالحا ومفيدا للنظام ...»

حماق فيها الطبيب الاصلع ... عينان صغيرتان تطلان برسالة مستترة كأنه يريد ان يقول ... «الصمت افضل» .

***

تسربت بالتدريج تفاصيل ما دار في اجتماع الوزير مع لجنة الاتحاد الاشتراكي ... وما لم يتسرب اكمله بخياله ...

جلسوا امامه صفين ... هو الان على المنصة ، وهم المستمعون ... يخاطبهم من خلف مكتب السلطة ... والسلطة هي التي تحكم الاتحاد الاشتراكي ... تديره ... وتضع اطارا لعمله ... اطارا مرسوما ... بدقة ... مدروسا بعناية ... حملة التوعية مفيدة لا شك ... ولكنه سمع ان هناك اشياء تقال فيها تحريض على السلطات ، وعلى قيادة الاتحاد الاشتراكي ... مثلا ان تذويب الفوارق بين الطبقات بدأ ولكنه لم يتم ... ما زالت هناك فوارق كبيرة ... في الحكومة مثلا يتقاضى من هم في اعلى الدرجات خمسين ضعف من يعملون في اسفل السلم ... ان هناك طبقات نمت في الريف على حساب صغار الفلاحين والعمال الزراعيين ... ان جماهير الشعب ينبغي ان تشارك مشاركة اكبر في تسيير الامور وان تمنح حريات اكبر ... ان هناك تسلط من كبار الموظفين في الوزارة ... وان الاشتراكية ما زال امامها طريق طويل حتى تبني... نعم الرئيس قال هذا الكلام ... ولكن هناك من يندس في صفوفكم محاولا الاستفادة مما قيل لتقويض الثورة ، والاتحاد الاشتراكي ... فاحذروا من المندسين ... السياسة كلعب الكرة ... فلا تدعوا الكرة تفلت منكم ... ختم حديثه بهذه الكلمات وانصرفوا ...

منذ تلك اللحظة اوقفت الاجتماعات ... عادت الوزارة الى وجومها المعتاد.. الاجسام المنحنية المهرولة ... والملفات ... وهمس في الاركان عندما يمر ... وعيون تتفادى مواجهته ... وتحيات زال منها الدفء ، واصبحت مجرد مجاملات خالية من الروح ... جهاز مدرب اغلق المنافذ بإحكام .

عاد الى مكتبه يحملق في الفراغ ... زحف عليه احساس بالحصار ... وجوه الجالسين على مكاتبهم تبدو كأنها تضحك في سخرية ... انف الدكتوره سهام تضخم وامتد الى الامام مخفيا احدى عينيها ... فباتت العين الاخرى ترنو اليه في ثبات ... ضوء الحجرة قاتم ... شيء بين النهار والليل ... ورائحة العفن تصعد من الحوش قوية نفاذة تضغط على معدته وتعتصره ... الاشياء تدور امامه بحركة بطيئة راقصة ، والعرق يتصبب من جسده ويسقط نقطا باردة فوق صدره وعلى ساقيه تحت السروال ... كانه تحت تاثير مخدر نقله من العالم الواقعي الى عالم آخر ربما اكثر واقعية ... راى يده تتحرك على الورق يوم ان امضى قرار التعيين ... كانما يدا اخرى توقع على حكم ... يد بدون ذراع او جسد ... مفصولة ، غريبة ... همس لنفسه «موظف ... موظف» فالتفت اليه الآخرون باندهاش كانهم سمعوا الكلمة وهي ترن في حقد ... قام من جلسته وخرج ... هرول خارج المبنى الى الشارع واخذ يستنشق الهواء بانفاس عميقة ...

★★★

كان يجلس في الصالة الكبيرة يقرا عندما دق جرس التليفون ... رفع السماعة ... صوت نسائي يقول :

«منزل الدكتور عزيز عمران ؟»

«نعم» .

«الدكتور موجود» .

«انا» .

«هنا مكتب الاستاذ مصطفى الخضري ...؟ الاستاذ مصطفى يريد ان يحدثك ... لحظة لو سمحت ...»

انتظر ... سمع اصواتا اخرى كان حديثا يدور في تليفون آخر ... مصطفى الخضري ... لم يره منذ سنين طويلة ... منذ ان تخرج من الكلية واشتغل في المحاماة ... الان اصبح رئيس احدى المؤسسات الاقتصادية الهامة ... ترى ماذا يريد منه ...؟

«آلو ... اهلا ... عزيز كيف حالك ... سنين طويلة مضت» ... الصوت الرفيع يزقزق عبر اسلاك التليفون ويسقط في اذنه دون ان يتتبع ما يقول بدقة ... صوته لم يتغير حتى في التليفون ... ، حاد ، معدني كصرخات طائر غريب ... تنبه فجأة على سؤاله :

«انت تسمعني» ؟

«نعم ... اسمعك» .

«اريد ان اجتمع بك ... وبعض اصدقائنا القدامى في امر هام للغاية ...

هام للغاية» كررها مرتين بصوت يقفز في عصبية عبر الاسلاك ...

اصدقاؤنا القدامى ... يقصد الشيوعيين بالطبع ... كان معهم في التنظيم في يوم من الايام ... تركهم بعد الثورة وصعد بسرعة سلم المناصب واضعا خبرته في خدمة السلطة الجديدة ... كانوا اذ ذاك يبحثون باستماتة عن عقول تساعدهم في التفكير ...

«موضوع هام» .

«نعم ... سأوضحه لكم عندما نلتقي ...»

«متى تريد هذا اللقاء» ؟

«ابوافقك بعد اسبوع ... الساعة العاشرة صباحا في منزلي ... هل يكفيك اسبوع للاتصال بهم ...»

«نعم ... يكفيني» .

اعاد السماعة الى مكانها ... رفع الكتاب الى عينيه ولكنه سرح بعيدا عن السطور ... تطلعت اليه امه بنظرتها الفاحصة تصوبها فوق ثوب كانت تطرزه لنفسها ..

«اهذا مصطفى الخضري الذي كان يحضر اجتماعاتك هنا في منزلنا» .

ضحك ...

«أما زلت تتذكرين ... مضى على تلك الايام عشرون سنة تقريبا» .

احس بسؤال صامت قلق تريد ان تنطق به .

«اطمئني يا اماه ... راحت تلك الايام بالنسبة اليه ... انه اصبح رجلا مهما في الدولة» .

بدت عليها علامات الارتياح ... تحب له ان يختلط بالمهمين في الدولة وتخشى من طبعه ، واندفاعاته التي تبعده في نظرها عن تلك الاوساط التي قد تفيد ... تنهد ... لم يعد معه احد يستطيع ان يتحدث معه فيما يشغله ... وحده ... ربما اقسى من وحدة السجن... هناك كانت الروابط القوية تجمعهم في مواجهة الخطر ...

الان تفرقوا في الارض ... كالكلاب الضالة الجائعة ... يبحث كل منهم عن قوت يومه ... اغلبهم مشردون في الشوارع دون عمل او مورد رزق... يتفاداهم عندما يراهم ... هكذا اصبح الان ... يفكر لنفسه فقط ... كل واحد بمفرده في الغابة ... يكتم وخزات الضمير ويسير مسرعا على الرصيف دون ان يلتفت.. وحده ... حتى نادية التي كانت دائما الى جواره ... يسند كل منهم الآخر ... فقدها ... ما الذي بقي اذن من الاحلام ... احلام الشباب العظيمة التي عاشوا لها وبها طوال السنين الصعبة ... لا شيء ... خطر له ان يتصل بها عدة مرات ... ليسأل عنها وعن سناء ... ولكنه امتنع ... تصرف غريب ... كبرياء ربما ... يريد ان يكون منتصرا قبل ان يقابلها مرة اخرى ... سيلتقيان لا بد يوما من الايام ... ولكنه الان مهزوم ... او هكذا يبدو له في تلك

اللحظة ... نعم مهزوم ...

فلم يكن يدرك بعد ان الانسان لا ينهزم الا من داخله ...

***

العمارة شاهقة ترتفع ادوارها عالية في السماء ... تقف بثبات على عواميد من الرخام الاسود ... كسيقان احد الوحوش الاسطورية ... حدائق ، واشجار يضيئها لهيب احمر هادىء ترسلها الشمس الغاربة خلف حدود المدينة ... لوحة نحاسية عند المدخل ... عرفان احمد عرفان (شركة المباني المتحدة) ... يبني العمارات في كل مكان ... صروح من الحجر والمال ... كل شيء يلمع من فرط النظافة ... حتى البواب بوجهه الاسمر ، وجلباب ناصع البياض ، يحييهم عندما صعدوا السلم العريض ... المصعد يرتفع بسرعة ناعمة حتى الطابق العاشر ... دق سيد جرس الباب وانتظروا ... باب من الخشب الماهجنه ... داكن اللون في الجدار الابيض ... يلمع هو ايضا مثل وجه البواب ... عين صغيرة تتوسطه ... عدسة مستديرة حولها طوق معدني رفيع كالخاتم ... خطوات مكتومة في الداخل ثم سكون ... يفحصونهم من خلال العين الصغيرة ... يفحصونهم دائما في كل مكان ... عيون تراقب دون انقطاع ، وتقرر بدقة ... من يريد ان يفلت لا بد ان يقبل شروطنا ... ان يسلم ... ان يصبح مثلنا ... عندئذ ينظر في امره ... نضعه تحت الاختبار ونفتح له فرص الحياة ... وهي فرص تجلب لصاحبها الكثير ... لاننا نملك المال والسلطة بل والمصير ... ولكن العين ... العين تبقى ساهرة ... وساهرة دائما ...

فتح الباب ... الخادم مثل الباب مثل البواب ... سواد يلمع في البياض.

«الاستاذ الخضري موجود» ؟

«نعم يا فندم ... منتظر حضراتكم ... تفضلوا ...»

الحجرة التي جلسوا فيها تتسع لاربع حجرات من الحجم العادي ... مقاعد خشبها منحوت بدقة ... وسجاد سميك يمتد في ليونة تحت الاقدام ... تماثيل في الاركان تضيئها انوار خفيفة ، واواني من الصيني الوانها زاهية ... نافذة بطول الجدار عليها ستارة شفافة تتموج مع نسمات الليل المقبل ... وسكون ... سكون عميق يحيط به الجدران ... غرقوا في المقاعد ... واخذوا يفحصون المكان في صمت ...

انفتح باب جانبي بهدوء ودخل مصطفى الخضري ... قاموا يسلمون ...

«اهلا وسهلا ... اهلا ... اهلا ... كيف حالكم يا رجالة ... كان بودي ان اراكم منذ مدة» ... ضحك فجاة بدون داع ... اهتز جسده النحيل مع الضحك ، كأن رعشة عصبية اصابته ... جلسوا ...

جاءت اكواب العصير ... برتقال ومانجو ... سائل ثقيل اصفر يرقد في اكواب الكريستال السميكة ... وقهوة تفوح منها رائحة الحبهان والمستكة ...

فناجين عليها زهور صغيرة مرسومة باليد ... احضرها معه من الصين في احد اسفاره العديدة ... يثرثر معهم كأنه يريد ان يبدد توترا خفيفا معلقا في الجو.. تذكره عندما كان شابا حديث التخرج ... كانوا اعضاء في نادي التجديف ... يستقلون قاربا رفيعا في الصباح الباكر ... وينزلقون فوق النيل بين العوامات.. ثم يتناولان حماما ساخنا ... وينطلقان الى ميدان الاسماعيلية ... طبق من الفول عند «ازايفتش» ... ثم سباق اللحاق بميعاد العمل ... كان يرتدي بدلة قديمة وطربوشا وحذاء ذا نعل سميك اشتراه من محل باتا ... يقول في سرور ... «سيتحمل سنتين على الاقل ..» لم يتغير كثيرا ... نفس العيون المستديرة الجاحظة يشوبها احمرار خفيف ... ونفس الرأس الكروية الكبيرة بشعرها القصير ... يحاول ان يضفي على تصرفاته وحديثه رزانة الرجل الذي يتقلد منصبا مهما واصبح يعلم الكثير ... ولكن حركاته ... يد تشد على ثنية السروال الانيق في توتر ... ثم تنتقل الى رباط العنق ... والصوت الحاد الرفيع ينطلق في ضحك مفاجىء دون مبرر ... اشياء توحي بشخص مهزوز .. كأنه ليس في مكانه ...

دار الحديث عن البلد ، وما طرا عليها من تغير في السنين الماضية ... «كنتم بعيدون فترة طويلة ولكن لعلكم لمستم بانفسكم التغييرات بعد ان خرجتم..»

نعم لمسوا ... تغييرات هامة قضت على جزء من التراث الثقيل الذي خلفته عهود الاستعمار والاقطاع ... ولكن ما زالت كثير من الاشياء لم تتغير .

قال :

«بالضبط ... بالضبط ... هذا هو بيت القصيد ... وهذا هو ما كنت اريد ان احدثكم عنه ... الرئيس يشعر بانه لا ضمان لما تحقق الا اذا اقيم التنظيم الذي يحميه ويطوره نحو مزيد من الاشتراكية ... الاتحاد الاشتراكي تحالف فضفاض ... وانما المقصود الان هو الجهاز الطليعي الذي يقود الاتحاد ...»

صمتوا ... ماذا يريد منهم ...؟

تردد لحظة ثم استطرد :

«فما موقف الشيوعيين من هذا الموضوع ...؟»

قال سيد :

«لا بد من نواة قيادية من الاشتراكيين» .

«بالضبط ... تمام ... هذا ما نقصده ... أمستعدون انتم للاشتراك في هذه النواة ...»

وحدة العمل ثم وحدة في التنظيم مع الاشتراكيين من قيادة الثورة ... هذا ما ناقشوه طويلا في عدة مؤتمرات داخل المعتقل ...

سأل حلمي :

«وكيف نشترك» ؟

ضحك الرجل ضحكته العصبية المفاجئة ...

«تنضمون اليه طبعا يا اخي ...»

«جميعا» ؟

«ما هو المانع ... الا تريدون ان تشتركوا في الصراع الذي يدور ...؟ الا ترون ان هناك قوى كثيرة تتربص بالثورة وتسعى الى تقويض كل ما تم ... الى ايقاف الزحف الاشتراكي ...؟»

انه يتكلم الان من موقعه ... نبرة خفيفة من الرسمية والتعالي ... ولكن يده اليمنى ما زالت تنتقل من السروال الى ربطة العنق ...

قال حلمي :

«وكيف يتم التفاوض مع تنظيمنا ... كيف تتم الوحدة ...؟»

صمت ... دارت عيناه الجاحظتان على الوجوه المنتظرة ... كانه يفكر فيما سيقوله ، ويريد ان يستشف أثره المنتظر ... مال على المائدة الصغيرة البيضاوية وفتح علبة خشبية ...

«سجائر» .

اخرج ولاعة ذهبية من جيبه واشعل سجائرهم ... التقت العيون فوق اللهب الازرق ... نفث خيطا رفيعا من الدخان واستطرد :

«تنضمون كأفراد» .

«والتنظيم الشيوعي ...؟»

توقف لحظة ثم قال :

«يحل ... يحل ... لمَ لا ...؟ الجهاز الطليعي سيوجد الاشتراكيين ... ليس حزبا ... وانما نواة تتطور في المستقبل الى حزب ... فرصة لعمل مفيد وعظيم ... ماذا ستصنعون وحدكم ...؟»

***

التنظيم يحل ... ماذا ستصنعون وحدكم ؟... دارت المناقشات طوال الاسابيع في الاجتماعات التي عقدوها... عندما جاء وقت اتخاذ القرار لم يعترض احد ... فالقرار كان متخذا بالفعل منذ مدة ... منذ ان خرجوا من المعتقلات جيشا مهزوما ... فرقا مشتتة تبحث عن العمل وقوت اليوم ... فرق ارهقتها الجدران ... والسياط ... والسلاسل ... والبعد عن الحياة ... والأسر المشتتة ... والضلالة الفكرية التي حالت دون ان يروا الحقيقة ... احلام عن طريق اسهل الى الاشتراكية لا يكلفهم الثمن الذي دفعوه من قبل ... والذي لا يريدون ان يدفعوه مرة اخرى ...

هكذا عادوا للتفاوض كالعزل ... صعدوا الى الطابق العاشر ، مروا من بين العواميد المصنوعة من الرخام الاسود ... وارتفع بهم المصعد في سرعة ناعمة .. وقفوا امام الباب السميك الداكن ... دقوا الجرس ودخلوا تراودهم آمال عن ايام فيها راحة بعد التعب ... وفيها اعتراف بعد النكران ... وفيها ايضا سلطة

وقدرة على التأثير ... شيء واحد لم يفكروا فيه ربما ... المال ... حياتهم كلها قضوها دون ان يملكوا شيئا ... وخيالهم محدود في امور الدنيا ... ما زال فيهم نقاء رغم الهزيمة ...

شربوا عصير المانجو في اكواب الكريستال ... وغرقوا في المقاعد الوثيرة يريحون عظامهم من قسوة البلاط والاسفلت ... ودخنوا السجائر ... وناقشوا كيف تتم عملية الانضمام الى الجهاز الطليعي ... قسم خاص تحت اشراف الاستاذ الخضري سينضمون اليه ... قسم خاص ... يريدونهم وحدهم بعيدا عن الآخرين ... ثم بعد ذلك تتم عملية الاندماج ...

ولكن عندما جاء وقت التنفيذ ... فحصتهم العين ذات الجفن المعدني جيدا ... وفرزتهم بدقة ... لم يقبل منهم الا عدد قليل للغاية ... وظل آخرون اشتات ساخطة تعتقد انها حرمت من الجنة ... وترنو اليهم في حسد ... وتدور في حلقة مفرغة بحثا عن مورد للحياة ... فحلت الكراهية مكان الحب الذي كان يجمع بينهم ..

اما عزيز فلم يبال بكل هذا ... فقد كان من بين الذين قبلوا ... انه يختط طريقا بمفرده ... ويتفادى الآخرين ... تدفعه الرغبة في ان يعوض ما فات .. ولكن تدفعه ايضا احلام واماني عن مجتمع جديد سيشارك في بنائه ...

***

هبطوا المصعد الناعم السريع ... هو ، وعماد ... وحلمي ، وسيد ، عند باب العمارة الشاهقة وقف البواب يرنو اليهم بذلك الكبرياء الأجوف الذي يميز العبيد الذين يعملون عند الاثرياء ... انه يحس انهم ليسوا من طبقة الاسياد .. ليسوا من الطبقة التي تسكن في مثل هذه العمارات... والتي تملك المال والسلطة ومصائر الناس ... وتنعم بكل ما يحرم منه الآخرون ...

تفرقوا في الظلام ... كأن كل منهم يسعى الى ان يكون وحده مع أفكاره... وكأنهم لا يريدون ان يواجهوا بعضهم ... عاد عزيز الى منزله سائرا على الأقدام على شاطىء النيل ... الشوارع خالية من المارة ... ليلة شتاء صافية تلمع فيها النجوم كقطع من الثلج ... وتتعانق الاشجار العالية فوق راسه ... حاجبة السماء بنسيج من الاوراق الهامسة... قفز بذهنه الى الامام... الى ما ينتظره.. اخيرا تفتحت الابواب ... منذ الان فصاعدا لن تقف العقبات سدا منيعا تحول بينه وبين الانطلاق ... ومع ذلك احس بشيء من التوتر الدفين الذي لا يفصح عن نفسه ... فراغ تتحرك فيه ذرات مشحونة حبيسة تحاول الخروج ولكنها ترتد ثانية الى الداخل .

في الصباح الباكر دق جرس التليفون ... كان قد استيقظ منذ دقائق وجلس في الشرفة يقرأ الجرائد ... متشابهة كلها ... هنا وهناك صوت يعبر

عن شيء مختلف فيه جدية ... رفع السماعة ، مصطفى الخضري ... كان يدعوه الى اجتماع ... سيقابل بعض المسؤولين عن الجهاز ... وحده ... اكد الكلمة الاخيرة مرتين ... الموعد اليوم الساعة السادسة مساء ... اعطاه العنوان ... في الجزيرة ...

ذهب الى عمله كالمعتاد في الساعة الثامنة والنصف ... ودلف الى الحجرة القاتمة حيث يرقد مكتبه ... اخذ يفكر في اللقاء المنتظر ... ترى ماذا يريدون منه ...؟ يشعر بالقلق ... قلق يداهمه دائما عندما يتأهب للقاء احد اصحاب السلطة ... سنين السجن جعلته لا يتوقع منهم خيرا ... يذهب اليهم دون حماس ، كانه واجب ثقيل لا بد منه ... ويحس بعدم الارتياح في وجودهم ... بالزيف في الكلمات ، والغرور الأجوف ... يريدون منك ان تنصت اليهم فقط ... كأن الحكمة الالهية تسقط من بين شفاههم ... الكرافتات ، والقمصان الحرير ... والاساور الذهبية ، والولاعة ، والقلم ، والطريقة التي يردون بها على التليفون ... وعين السكرتير الباردة ، وحركاته التي تنم عن شعور بانه مهم ... ووقفته بجوار مكتب رئيسه نصف منحني ... مؤدب ... يهمس همسا كالفحيح ...

خرج من منزله مبكرا حتى يضمن الوصول في الموعد ... قرر ان يمشي على الأقدام ... عندما وصل الى شارع الجزيرة اخذ يقرأ ارقام المنازل ... وجد نفسه امام الباب ... في الساعة السادسة بالضبط ... قصر ... باب من الحديد المزخرف ... وطريق للسيارات يصعد حتى المدخل العمومي ثم يهبط خارجا ... حديقة واسعة من الحشيش الاخضر ، والزهور النادرة ... نوافذ، وبرافنات ، وابواب من الخشب ، داكنة ، محفورة على الطريقة العربية ... سجاد فارسي ، وأوان من النحاس تلمع ببريق مكتوم في الضوء الخافت المنبعث من النجف الملون ... يتدلى من سقف عال مثل قبة الجامع ... وحول العتبة زجاج اخضر واحمر ، وازرق يغطي الافاريز المطلة على السماء ...

ادخلوه في حجرة المكتب ... انحنى السكرتير وانسحب بهدوء مغلقا الباب خلفه ... في الحجرة ثلاثة رجال يتحدثون ويدخنون ... احدهم مصطفى الخضري ... اقبل عليه وصافحه عندما لمحه يدخل من الباب ... قاده الى حيث يقف الرجلان ... قدمه اليهما «الدكتور عزيز عمران» .

تطلعت اليه اربع عيون بشيء من الفضول ... لم يذكر الخضري اسميهما .. ولكنه عرفهما ... احدهما وزير ... والآخر رئيس العاصمة ... تذكر كلمات الخضري ... الجهاز سري حتى يحمي اعضاءه من الرجعية ... شيء غريب ... جهاز تقيمه السلطة ويبقى سريا ...

قال :

«الدكتور عزيز عمران ... قبلت عضويته في التنظيم» ... احنى الوزير راسه علامة الموافقة او الرضى ... او ربما الاستنكار ... لم يدرك تماما ... ثم قال :

«حسنا» .

ثم سكت ... ظل الرجال الثلاثة صامتين ... فاحتار ... ترى ما هي الخطوة القادمة ؟

مال عليه الخضري ... وهمس في اذنه :

«انتهت المقابلة ...»

صافحهم وخرج ... هبط الطريق الى الخارج تتبعه عيون بعض الرجال الذين كانوا يقفون في اماكن متفرقة من البهو العريض ، وعند المدخل ... الطريق المبلط يقود الى الباب الحديدي المضاء بعلامة «خروج» ... سار في الشارع ، نقطة وحيدة ضائعة ، تظهر وتختفي مع المصابيح ...

هكذا اصبح عضوا في التنظيم الطليعي الاشتراكي ...

***

عندما اندمج في العمل نسي احداث ذلك اليوم ... لم تعد اليه تفاصيله الا فيما بعد عندما انهارت الاوهام واصبحت الحقائق عارية امام عينيه ...

القى بنفسه في النشاط السياسي ... كما كان يفهمه هو ... فلم يكن مثل الكثيرين يحسب الامور ... يريدون ان يبنوا قيادة اشتراكية للثورة ... فليعمل اذن ما وسعه ان يعمل ... ظن ان هذا هو المطلوب منه ...

انشأ وحدة للتنظيم في الوزارة ... ضم اليها من يعرفهم من زملائه ... نما عددهم بسرعة حتى اصبحوا عشرة ... كانوا يجتمعون في بيت كل منهم على التوالي ... يسهرون الى ساعة متاخرة من الليل ... يناقشون ، ويقررون اشياء ، ويرفعون التقارير الى اعلى ... ويقراون النشرات التي تهبط عليهم من اين لا يدرون ... كل ما يتعلق بالمستويات العليا غير مفهوم ... كالقوة الخفية تسيطر عليهم ... وتتتبع ما يعملون دون ان تقول لهم كلمة واحدة ... من الثناء او حتى من الذم ... احساس غريب بوجود شبكة تلتف حولهم ... ذباب في نسيج العنكبوت ...

كان هو القوة المحركة ... يعود في ساعة متأخرة من الليل مرهقا ... البيوت التي يجتمعون فيها ثرية ... الشاي في فناجين الصيني ، والكعك ، والبتيفور ، وسندوتشات رقيقة طريقة لا تحتاج الى جهد في المضغ ... وتورتة الشيكولاتة او كنافة باللوز ... راحت ايام الازقة والكفور ... انضم اليهم آخرون جاؤا بهم من اقسام اخرى ... موظفون كبار ، واساتذة يضعون ساقا فوق ساق ... ويمطون انوفهم في الهواء.. ويتحدثون عن الشعب والاستقلال.. ثم يعودون الى منازلهم منتصبين على مقعدهم في السيارة ... يحملقون بجدية في الطريق من خلف عجلة القيادة ... مرتاحو الضمير ... يملأهم الاحساس بأنهم اتوا اعمالا فذة .

كانت كل هذه المظاهر تسجل نفسها على الغلاف الخارجي لوعيه ، دون ان تنفذ الى الاعماق ... كأنه يتحاشى ان يفكر فيها ... ثورة يكتمها في نفسه معميا ابصاره عما يدور ... وصراع مستتر يعلو ويخبو مع الاحداث ... ولكن مع الايام اخذت نبرة الانتقاد تشتد في مناقشاته وفي التقارير التي يرفعها ... ولكن لا احد يجيب ... الباقون يسايرونه ... لانه اخبر منهم واصدق ... وربما ايضا لانه المسئول ... والمسئول لا بد ان يكون مرضيا عنه من السلطة ...

نقل النشاط الى النقابة ... كوّنوا لجنة من اربعين عضوا ... يناقشون المشاريع ... ويتقدمون بالاقتراحات ويجوبون الاقاليم للاتصال باعضاء النقابات الفرعية ... فانتشر النشاط ، كالشعلة الصغيرة تنتقل مع الريح من مكان الى مكان ... تحمل معها الشرر واللهيب ... ثم اتفقوا ان يعرضوا قضاياهم على الجماهير ... اعادوا تنظيم المجلة ... واخذت تنشر ما يناقشونه ... وتفتح ابوابها لرسائل الاعضاء ... وتكتب عن عيوب في التطبيق ... وتنقد اعلى المستويات ... اختفت منها صور الوزراء ، وحلت محلها صور العاملين ...

في هذه الفترة بدلوا وظيفته ... سلم الترقي مغلق او اغلق امامه في الوزارة ... فالوزارة مركز هام يهيمن على مجالات حيوية ... وضعوه في احدى المؤسسات ... عبر منتصف السلم الوظيفي ... فلا هو عند القاع بحيث يبدو الظلم بينا ... ولا هو عند القمة بحيث يكون له تاثير ... لم يبال كثيرا ، فذهنه منصرف الى مجالات اخرى يستمد منها العزاء ... عاد اليه اندفاعه الاول ... واخذ يكتب في الصحف مقالات متفرقة ... انه يتحرك بحرية الان.. ومع ذلك بذرة من القلق ، والشك تتضخم او تنكمش في اعماقه حسب الظروف ... ولكنها موجودة على الدوام ... حاسة المكافح القديم ... انهم كالاطفال ... خصص لهم مكان يلعبون ويعبثون فيه ... حوله سور ، وعلى الابواب حراس ... ساهرون ، لا تغمض لهم عين ...

لم يكن مقدرا لظروفه ان يستقر طويلا ... حادثة صغيرة تبدو تافهة ... ولكنها كانت كالعلامة ... كالضوء المنذر ... عين حمراء صغيرة ومضت في صباح ذلك اليوم حيث كان يجلس في حجرة رئيس المؤسسة يناقش معه خطة العمل للسنة القادمة ...

جاءت السكرتيرة ، بيضاء صغيرة تقفز كالمطاط ... كل شيء فيها مستدير.. العيون والفم والنهدان ، والردفان ... كالكور المستديرة الصقت ببعضها ... تتذبذب جميعها في نشاط تحت عيون الموظفين ، تتبعها بتلك النظرة الخبيثة الخفية التي تنم عن الرغبات المكبوتة ... رغبات تتوارى خلف ستار من الوقار.. والصلاح ... وزبيبة الصلاة القاتمة تتوسط الجبهة ... همست في اذن رئيس مجلس الادارة ... رجل فارع الطول ، جاد الملامح ... جمجمته الصغيرة تبدو كراس العصفور فوق الجسم الكبير .

صمت لحظة ... ثم قال :

« فليتفضل » .

فتح الباب واطل منه شاب بشيء من التردد ... اسمر ، جبهته عالية ... وعيناه فيها حول خفيف .

صافح رئيس المؤسسة ، وعزيز ثم جلس ...

«انا موفد من قسم تحقيقات الوزارة ...»

شحبت ملامح الرجل الجالس خلف المكتب قليلا ... وامتدت يده الى علبة السجائر ... قدمها للزائر ... ثم أخرج سيجارة لنفسه واشعلها بعود ثقاب ، تاركا عزيز دون ان يعزم عليه .

«خير ان شاء الله» .

«يوجد عندكم طبيب اسمه الدكتور عزيز عمران ...»

«نعم» ... لوّح بيده ... «ها هو يجلس امامك» .

«اريد ان أساله في بعض الامور البسيطة» .

«تحقيق يعني» ؟

«نعم» .

«تفضل ... يمكنكما ان تنتقلا الى مائدة الاجتماعات هناك» ... اشار الى آخر الحجرة تمتد بعيدا عند الطرف الآخر ... «تشرب قهوة ؟..»

نسي مرة اخرى ان يسأل عزيز ... سرعان ما يتخلون عنك ... كتم ابتسامة السخرية ... وصاحب الشاب الى المائدة ... جلسا ...

الديباجة المعروفة ... كأيام زمان تمام ... انه يحس بشعور مختلط... غضب لما يتكرر من جديد ... ونوع من الزهو والتحدي ... كأنه يستعجل معركة خبت او توارت تحت السطح فترة من الزمن . فليذهبوا الى الجحيم ... لا يقتل الانسان سوى الحرص على اشياء تكبله بأثقالها ... الرغبة في الامان... الوظيفة ، وسبل الراحة في الحياة ...

«اسمك ... سنك ... وظيفتك» يكتب على الورق الفولسكاب المسطر أمامه بعناية ... شاب فيه تهذيب تحس انه مقدم على هذا العمل بشيء من الخجل...

«انا آسف ... ولكنني كلفت بالتحقيق معك في بعض الامور» .

قرر عزيز ان يمس وترا احس انه مدفون في اعماقه ...

«خذ راحتك ... ولا تبال كثيرا ... تعودت التحقيقات ...»

ابتسم بارتياح ... ابتسامة فيها طيبة ريفية ...

«اعرف ذلك ... انا اسمي محمد شعلان ... كنت افضل ان نتقابل في ظروف اخرى ... لقد سمعت عنك ... أريد ان أسألك بعض الاسئلة ...»

«تفضل ... ولكن قبل ان تبدأ عندي سؤالان لك أرجو ان تسجلهما ... من الذي كلفك بالتحقيق معي ...؟ وما هي التهمة الموجهة اليّ ؟...»

«الوزارة» .

«من في الوزارة» ؟

«السيد نائب الوزير ...»

«اكتبها لو سمحت في الديباجة ...» كتب ... «والتهمة ؟»
«انك نشرت في الصحف مقالات تتعلق بالمؤسسة» .
«وما العيب في ذلك ...؟»
«هناك منشور دوري يحظر مثل هذا النشر اصدره نائب رئيس المؤسسة».
«وما القانون الذي يستند اليه هذا المنشور ... اريد النص لو سمحت..»
فتح حقيبة سوداء ... واخرج منها مجلدا اسود ...
«المادة كذا من قانون العاملين بالقطاع العام ... تقول انه «لا يجوز لاحد العاملين في المؤسسات او الشركات ان يدلي بتصريحات ، او ان ينشر باحدى وسائل النشر معلومات تتعلق بأعمال وظيفته الا بأمر كتابي من رئيس المؤسسة..»
«حسنا ... اذن منشور السيد نائب رئيس المؤسسة باطل قانونا ... فهو قد منع التصريح او النشر عن المؤسسة عموما ... بينما مادة القانون ... تمنع ذلك في حدود اعمال الوظيفة ... والغرض من النص واضح ... وهو الحيلولة دون نشر اسرار قد تكون ضارة» .
ظهرت عليه الحيرة . اخرج منديله ومسح بها فوق شفتيه ...
«ارجو ان تسجل ما كتبته ...» اضف الى ذلك على لساني ان السيد نائب رئيس المؤسسة لم يفهم المقصود من النص القانوني عندما اصدر المنشور ... فلم يكن الغرض ان يمنع المتخصصون من النشر عن مجالات عملهم ... والا وصلنا الى وضع مضحك حيث يضطر المحامون الى الكتابة عن الزراعة ... والاطباء الى الكتابة عن القانون ... وهكذا وانا لم اكتب حرفا عن معلومات تتعلق باعمال وظيفتي ، ولكني كتبت سلسلة مقالات عن سياسة التصنيع في المؤسسة بهدف الى حمايتها من غزو الشركات الاجنبية في مجالات تتمتع فيها بالخبرة والامكانيات ..
«اسجل كل هذا» ؟
«نعم» .
«ولكن ...»
«واجبك كمحقق ان تسجل كل ما اقوله ...»
اصابعه ترتعش قليلا وهو يكتب ...
«نقطة اخرى ... تتعلق بالسيد نائب الوزير ... في رايي انه يخالف صراحة توجيهات الرئيس ... التي نبهتنا مرارا الى ضرورة نقد القطاع العام بطريقة بناءة حماية للاقتصاد الوطني ... وهذا هو ما فعلته ... بناء على كل ذلك فانا ارفض التحقيق لانه باطل من اساسه» .
تبدلت الحيرة الى يأس ...
«اذن لن تجيب على اسئلتي ؟..»
«لا» .
صمت ...
«هل لديك اقوال اخرى ؟»

«لا» .
قرا ما سجله المحقق ثم وقع ...
عاد الى منزله في تلك الليلة ، وكتب رسالة للوزير ضمنها نفس المعاني ... بعد يومين ارسل نائب رئيس المؤسسة في طلبه ... ابيض نحيل ... فيه نعومة باردة كالثعبان ... ابتسم ابتسامة عريضة عندما دخل وصافحه واقفا ...
«تشرب قهوة» ؟
«لا مانع» .
دق الجرس ...
«لماذا غضبت كل هذا الغضب يا اخي في مسألة بسيطة كهذه ... لم اكن انوي ان اوقع عليك عقابا ...»
ضحك عزيز في سخرية ثم استطرد :
«انسيت انني قضيت خمسة عشر عاما في السجن ... ما هو العقاب الذي تستطيعه ان استطعت ... خصم ... ايقاف ...»
ما زال يبتسم ابتسامته العريضة ... يا لقدرتهم على اخفاء مشاعرهم الحقيقية . انه يحمل له كراهية سوداء في تلك اللحظة ... يعرفه جيدا ... ولكن وجهه ينطق بالود ... لا بد ان الوزير تدخل ...
«يا سيدي ... انسى الموضوع ... لقد امرت بحفظ التحقيق» .
كان يريد ان يقول له «متشكر» ولو من باب المحافظة على ماء وجهه ... ولكنه لم يستطع . خرج مسرعا بعد ان ودعه ... سار في الشارع تحت شمس الشتاء الدافئة... بدات جولة اخرى، جولة بعد جولة بعد جولة... تنهد ... لا سبيل الى الراحة ... لا سبيل الى الراحة ابدا ... فحتى اذا سكت سيفقد راحة النفس ...
لم يخفف من نشاطه ... كوّن وحدة جديدة داخل المؤسسة ... صعدوه الى لجنة قيادية ... فيها خليط من الذين كانوا ينتمون الى اليسار ... وجعلوه مسئولا عنها ... يجري هنا وهناك كما كان يجري ايام الشباب ... ما زالت فيه طاقة كبيرة ، وقوة احتمال للجهد المتواصل ... طالما انه في السياسة لا يتعب ... الامور تتطور ببطء مضن احيانا ... ولكنها تتطور على اي حال ...
لم يعد يستعجل النتائج ... يعرف جيدا ان الزمن امامهم طويل قبل ان تتغير الاشياء تغيرا اساسيا ... جهاز الدولة الموروث كالوحش الضخم يدوس على القوانين والاصلاحات ويخنقها بالتدريج ... والعمل السياسي تسيطر عليه فئة ... مهمتها ابعاد الناس وليس الاعتماد عليهم حتى لا تفلت المناصب والمكاسب ...
ولكنه فوجيء في يوم من الايام ... بالاستاذ الخضري يطلبه لمقابلته في مكتبه ... ويبلغه ان هناك اعادة تنظيم ستجري وشيكا ... يجلس وراء مكتبه ... عيناه الجاحظتان تطلان عليه من الراس المستديرة ... شكله وحركاته

تذكره دائما بالدمية خصوصا عندما يتكلم ... كلهم يتكلمون الان بلغة الجمع ...

«اعادة تنظيم ؟»

«نعم» .

«لماذا ؟»

«هناك اسباب ...»

«ما هي ؟»

«اليسار كله كان موجودا في قسم واحد ... مطلوب ان يندمجوا مع الآخرين حتى يحدث تفاعل ...»

«تفاعل ام تشتيت ...؟»

التقت عيناهما لحظة طويلة ... قال الخضري بلهجة فيها ود :

«انت فاهم ... وانا فاهم ... هذا القسم انتظم واتسع نشاطه بسبب وجود عدد قليل من الشيوعيين ... الان مطلوب محاصرته ...»

«ممن ...؟»

«هذا ما لا استطيع ان اقوله ...»

«وهل الرئيس موافق ...؟»

صمت ... ثم قال :

«لا أعلم» .

مرت شهور دون ان يتصل به احد ... ثم اعيد به الاتصال ... وجد نفسه في مجموعة تجتمع وتنفض دون ان تفعل شيئا ... نقطة ثابتة في الجدول ... المعلومات السياسية ... يسألون عن الموقف ... ماذا يقول الناس ...؟ ماذا يسمعون ...؟ احس بأن هناك شبكة ما تستخدمهم كجهاز استخبار ... كجهاز لجس النبض وتدعيم السلطة ...

حوّل جهوده الى النقابة ... موعد الانتخابات اقترب فقرر ان يرشح نفسه ... ولكن كانت تنتظره مفاجاة اخرى ... قبل موعد الانتخابات بعدة اسابيع اعلنت قائمة الاتحاد الاشتراكي ... تحوي كل الذين جندهم للتنظيم او في لجنة النقابة ما عدا هو ... على رأسهم الدكتور خليل مبارك ، وعصام الدجوي ...

قرر مع ذلك ان يخوض المعركة ... كانوا قد نظموا سلسلة من الاجتماعات في القاهرة ، والاسكندرية وعواصم الاقاليم ... اول اجتماعين عقدا في بنها وطنطا ولكنه لم يسمع عنهما ... فيما بعد عرف البرنامج ... وحرص على ان يحضر كل اجتماع ويتكلم ... كانوا يسافرون في القطار على حساب الاتحاد الاشتراكي في الدرجة الاولى المكيفة ... ينتظرهم رئيس الاقليم ... وقد عملت جميع ترتيبات الاجتماع عن طريق الجهاز الاداري المحلي ... بما فيها الاقامة والولائم ... سموا قائمتهم ... «لجنة المعركة» عنوانا على التعبئة في المعركة ضد اسرائيل ... يجلسون على المنصة خلف مائدة مغطاة بمفرش اخضر وعليها آنية من الزهور ... ويحضر معهم امين الاتحاد الاشتراكي ... اما هو فكان

يسافر على حسابه احيانا في الدرجة الثالثة حتى تكفي نقوده ... ويقيم على حسابه ... ويأكل على حسابه ... ويجلس مع باقي المرشحين في القاعة .

في اول اجتماع اكتفى بأن يتحدث عن واجباتهم ازاء المعركة ... وحقوق الاعضاء ... وبعض مشاريع النقابة ... كان يحمل معه منشوره الانتخابي طبعه بنقوده الضئيلة ... يوزعه بنفسه على الجالسين في القاعة ... بعد ان تكلم جلس صامتا يراقب ما يدور ... انه يريد اولا ان يفهم جو الناخبين ... ان يتحدث معهم ويستشف مشاعرهم ... كانوا في اسيوط وعندما انتهى الاجتماع حضر اليه زميل له مرشح في القائمة ... قصير القامة ... يشد على سرواله من اعلى كلما خطا خطوتين كأنه يخشى عليه من السقوط ... قال له :

«موقفك كان رائعا ... لا بد من التضامن بين الاشتراكيين» .

هز رأسه في صمت ... الباقون يتفادونـه كأنه مصاب بالجرب ... ويتظاهرون بعدم رؤيته ... عندما يرونه سائرا امامهم ، ينشغلون كأنهم استغرقوا في حديث يتعلق بمسائل الدولة العليا ... ويضحكون ... ضحكة جوفاء فيها شيء من العصبية المستترة ...

دعاه الى وليمة الغداء التي كانت مقامة لهم فاعتذر ... سمع عنها فيما بعد من الاعضاء ... الديوك الرومي ، والفراخ ... والبط ، والارز المعمر بالصنوبر والزبيب ... اكل طبقا من الفول والطعمية في احد المطاعم ... شهيته مفتوحة ... وهو يحب الفول ... ذكره المطعم بايام مضت فخرج منه منتعشا واستقل القطار الى سوهاج ... حيث كان احد اصدقائه قد نظم له اجتماعا مع بعض الاعضاء ...

احس اثناء اتصالاته ان جوا من السخط يتزايد بين الناخبين على اسلوب راوا فيه محاولة لفرض بعض الاشخاص عليهم ... وصل الى المنيا في الفجر بعد سفر استغرق طوال الليل ... الجو بارد كالثلج ، والظلام يخيم على الحقول... تبدو موحشة في الضوء الشاحب . سار في الشوارع الخالية حتى انفتحت الحوانيت والمقاهي ... شرب كوبا من الشاي الساخن ... ادفأ جوفه واصابعه المتجمدة ... ومسح حذاءه ... واكل ساندويتشا من الجبنة البيضاء... احس بالنشاط يدب في جسده ... لا بد من التحدي ... لن تنفع خطة التهاون ...

دخل الى القاعة وجلس في طرف احد الصفوف ... نفس المنظر ... المائدة ... والمفرش ... والزهور ... والجالسون خلفها ساقا فوق ساق... عصام الدجوي يدخن غليونه ويشمخ بأنفه المفرطح في الهواء ... حياه زميله الذي كان قد دعاه للغداء بالامس ... الوحيد ... انه لا يعلم ماذا سيأتي ...

تكلموا هم الاول كالعادة ... ثم اعطيت الكلمة الى باقي المرشحين ... فضل الا يتصدرهم في الحديث حتى يسمعهم ... وتفادى ان يتأخر خوفا من ملل المستمعين او انهاء الاجتماع قبل ان يأخذ فرصته ... كان قد قرر ان يتكلم مدة لا تزيد عن ربع ساعة ... جاء دوره الخامس فوقف ... ظل صامتا برهة قصيرة

حتى يخفت الضجيج ... الان عيونهم تتجه اليه ... يشعرون انه مقدم على شيء ... فقد عركوا شكيمته من قبل وعرفوه ... وهو يحمل وراءه تاريخا ... لا يستطيع احد ان يمحوه الا هو ... بدأ ... من منا لا يريد ان يشارك في المعركة ... لجنة المعركة هذه تقسيم للصفوف . فالمفروض ان تضم كل من هو مستعد لقبول برنامجها والعمل من اجله . هكذا تتسع الجبهة في وقت احوجنا تكون فيه للوحدة الوطنية ... ثم تترك للناخبين فرصة الاختيار ... من هو اصلح ... من الذي يقرر هذا ... السلطة ام تجربة الناس ... حتى اذا اخطاوا ... فرض الكثيرون في السنين الماضية ثم ثبت فسادهم ... كل شيء يقرر من اعلى ، والجماهير متفرجة ، مشلولة الارادة ... اصحاب القائمة يقولون عن انفسهم ، او يقال عنهم انهم اشتراكيون ... من الذي يقرر ذلك ... واين الاشتراكية في اسلوب السفر ... والدرجات الاولى المكيفة ... والولائم ... والديوك الرومي ... اذا كان المرشح يعتقد انه يقوم بخدمة عامة ... انه صاحب قضية ... فليضحّ ...

وجوههم اصبحت شاحبة الان ... يجلسون صامتين ... متهمين في القفص ... فالحقيقة اقوى من السلطة ، ومن المال ، عندما تقال علانية هكذا.. امام الناس ... يعرف الان انه يمشي على حافة الخطر ... ماذا يهم ؟.. ما اجمل هذا الشعور وبأن الحقيقة تقال ولو مرة ... بأنه تخلص من القيود ... بأنه يصبح عزيز من جديد وليس شخصا آخر يجري وراء الاوهام ... حاول حايل ان يقاطعه فاصر على الاستمرار ... سنده الان في العيون التي تتطلع اليه، والآذان التي تنصت ... والاصوات التي ترتفع لتدافع عن حقه في الكلام ... كل واحد في القاعة يحس انه يعبر عنه ... يعبر عن الافكار التي يحبسها في صدره خوفا من عواقب الكلام ... اما هم فلا يقوون على سماع الحقيقة ... الكلمة صامتة صمت القبور ... صوته قوي دون صراخ او ضجيج.. واسترساله فيه منطق الحق ... «لا يهمني ان كنت انجح في هذه الانتخابات ... أم افشل ... فلن يؤثر نجاحي او فشلي في الكثير ... المسالة اكبر من ذلك ... اسلوب في العمل السياسي ... اسلوب في الحياة ينبغي ان يتغير ...»

انفجر ضجيج هائل بعد الصمت ... جلس وتطلع الى المتربعين على المنصة بثبات ... لا احد يستطيع ان يرفع عينيه لينظر اليه ... جذبهم الى هذا المعترك ... وجندهم في التنظيم ... وكان القوة المحركة التي دفعتهم الى مكان الصدارة ... ولم يقف الى جانبه احد ... العمل السياسي بالنسبة اليهم مكسب فقط ... ليسوا على استعداد لان يخسروا ابدا ...

***

دخل مجلس النقابة غصبا عنهم ... يجلس على مائدة الاجتماعات ... يشعر بالكراهية وبالحصار يزداد احكاما ... ولكنهم يعاملونه بحرص ... ما

زالوا يخشون لسانه . بعد اسبوعين استدعاه مسئول التنظيم الجديد ... شاب مخنث فيه نعومة الانثى الفاسقة ... يذكره بأحد ضباط المعتقل ... كأنهما توامان ... شخصية الجلادين المشوهة لاختلاف بينهما سوى ان احدهما ضابط معتقل ، والآخر مسئول في التنظيم ...

اشار اليه بالجلوس ... عينان ، وحاجبان ، وانف وشفتان كلها مرسومة بدقة ... كان يمكن ان يكون وسيما لولا هذه النعومة الكريهة ... ولمعة الشعر المصفوف ...

«لقد وصلتنا تقارير عن موقفك المؤسف في الانتخابات ... وعلى ذلك تقرر فصلك ...»

«هكذا بدون تحقيق ...؟»

«واللائحة التي قراتموها علينا عندما انضممنا الى التنظيم ... ماذا فعلتم بها ... »

«انصحك بالا تطيل النقاش ... لا تنسَ اننا نستطيع ان نتخذ معك اجراءات اخرى » .

«كسلطة ام كتنظيم سياسي» ؟

صمت ... عينا الجلاد تطلان الان ... هــذا الشاب المتغطرس ... لما استحمل صفعتين في المعتقل ... كلهم هكذا ... جبابرة عندما يجلسون في مقعد السلطة ... كالارانب عندما ينزع من تحتهم ...

انطلق على الرصيف ... خطواته خفيفة ... وجسمه خفيف ... وقلبه يغني ... انزاح الكابوس الجاثم على صدره ... وليكن ما يكون ... عودة الى نفسه ... عليه ان يفكر الان ماذا يفعل ...

* * *

جلس على الشرفة ... نيروبي تبدو مغسولة نظيفة بعد هطول الامطار ساعات متتالية ... الارض كالانفجار الاخضر ... خضار عميق منعش يهتز مع الريح الخفيفة التي تهب من الجبال ... والسماء انفجار من الالوان صبغت السحب الهاربة بالبرتقالي، والوردي والبنفسجي والازرق الغميق الذي يزداد غمقا مع اختفاء الشمس خلف الافق ... الغربان تفرد اجنحتها السود ... او تستريح لحظة فوق اسطح المنازل في طريقها الى مأوى الليلي ... وطيور بيض تهرب امام الليل الزاحف مسرعة فوق السماء ... او تدور دورة اخيرة حول طائرات صغيرة من الورق الملون ... اطلقها الاطفال كتلا زاهية ترتفع وتهوي في حركة عصبية ... وفي الحديقة المجاورة امراة سمراء في ثوبها الطويل ، تقطف الزهور في هدوء ...

يجلس وحده نصف عار يستمتع بالالوان ... والمساحات ، وهدوء الكون

ساعة الغروب ... يحس بالنسيم على ظهره وصدره ... يرتشف كوبا من البيرة ... اغنية من امريكا اللاتينية ترتفع من جهاز التسجيل ... صوت امراة، قوي ساخن ، يغني للحرية ، والارض ، وعذاب الكادحين ... صوت يتنقل بين التحدي والرقة في لحظة ... بين الحزن العميق ، ورنة الانتصار ...

انه وحده ... ولكنه ليس وحده ... يحيا في الذكريات ... وفي الحاضر ... وفي الاحساس الراسخ بأنه اخيرا اكتشف نفسه ... يحيا في الحب ... في الوجوه التي يتخيلها ... نادية ... وسناء ... ويوسف ... ابعدتهم المسافات ولكنها قربتهم ... فليست المسافات هي التي تبعد او تقرب الناس ... فقد يحيون في بيت واحد متجاورين صباح مساء ... ومع ذلك تفصل بينهم الحواجز ... والمسافات التي يعجزون عن تخطيها ...

الحب ... لا يستطيع الانسان ان يحب اذا لم يكتشف نفسه الحقيقية ... فاقد النفس لا يعرف الحب الحقيقي ... هكذا قال لنادية في ذلك اليوم الذي عاد فيه اليها ... تفاصيل هذا اليوم مطبوعة في ذهنه بدقة ... حادة ... كأنها محفورة بسكين ...

كان يجلس وحده على شرفة منزلهم في جاردن ستي ... نفس هذا الموقف من النهار الذي يخيم عليه الهدوء ... كأن الناس ارهقوا من العمل ... وركنوا الى ساعة من الراحة قبل ان يهبطوا من جديد الى الشارع بحثا عن انفاس الليل الرطبة تهب من النيل ... وقبل ان تنطلق السيارات تحمل رجالا ونساء يبحثون عن المتعة ... ويهربون من ملل الآراء المتشابهة ... حلقة مفرغة تصيبهم بملل جديد ...

شيء في داخله دفعه ان يقوم ويرتدي ملابسه . تراكم بطيء لأشياء تدفعه بارادة تبدو خارجية ... كان شخصا آخر يقود خطواته حيث ينبغي ان تتجه... هبط السلم وخرج من باب الحديقة ... بحث عن سيارة للاجرة في شارع القصر العيني ... الحوانيت مضاءة على الجانبين ، والارصفة مكتظة ، يشق طريقه بين الناس بصعوبة ... يمشي دون ان يحس بما حوله ... كأنه بمفرده مفصول عن العالم ... كيانه يتطلع الى شيء واحد دون سواه ... الى ذلك اللقاء الذي يسعى اليه ... لم يفكر في ان يتصل بها ليتأكد انها في المنزل ... انها ستكون هناك ... شيء محتوم ... اتخذ قراره في لحظة وسار ... يتطلع من نافذة السيارة المسرعة عبر الشوارع ... كوبري الملك الصالح ثم كوبري الجامعة ... النيل العريض ... شريط مظلم عميق يرقد بين الضفتين والعمارات العالية ... طوابق من النور ترتفع الى اعلى ، وجدران متينة مغلقة بحرص على النعيم ... حديقة الحيوانات ... كتل الاشجار الداكنة خلف الاسوار... ورائحة الحيوانات ... والطيور ... وشارع الجيزة عريض كالشريان العملاق يشق المدينة ... انوار صفراء قوية كضوء النهار ...

جسده يتحرك وحده دون ان يعي ما يفعل ... دفع الاجرة ودلف من باب العمارة ... ازيز المصعد كأنه يئن ... والطلاء الاخضر ... والمرآة ... وجهه

يطل عليه شاحب مشدود ... افاق فجاة عندما وجد نفسه على العتبة امام الباب ... ترى كيف ستستقبله ... ما زال معه مفتاح ... دق الجرس ... خطوات ، وشبح خلف الزجاج ... انفتح الباب ... سناء ... وقفت سناء مشدوهة امامه لحظة ... ثم خطت نحوه خطوة واحدة بطيئة ... احتضنها .. وقبلها ... ثم ابعدها عنه واخذ يتأملها ... ارتفع قوامها .. قالت :

«بابا ... انت جئت» .

ثم اسرعت الى الداخل تقول :

«ماما ... ماما ... ابي حضر ...»

ظل واقفا في الصالة كالغريب ... ارهف حسه ليسمع شيئا فلم يسمع... عادت سناء ... امسكت بيده وادخلته حجرة المكتب ... كانت حجرته ايضا في يوم من الايام ... رفوف الكتب حول الجدران تصعد الى السقف ... والوان المقاعد ... والسجاد ... صور وتماثيل من الخشب ... اشياء كلها ليست ثمينة ... تحس فيها فقط بلمسة الاحساس ...

قلبه يدق الان بعنف ... رغم هدوءه الخارجي ... انه يحاول ان يلتقط اقدامها خارج حجرة المكتب ... سناء تثرثر معه وتسأله اين سافر ... وماذا فعل ... يجيب عليها ... وتضحك مسرورة لما يحكيه ...

فجاة كانت تقف امامه ...

وقف ... مد اليها يديه ... فامسكت بها ... ظلا واقفين ... يتطلعان الى بعضهما ... وعيناها الواسعتان تنظران اليه في ثبات ... احس بقلبه يعتصر..

* * *

نامت سناء ... دخل عليها واحكم الغطاء حولها ... وقبلها ... قبلة طويلة افرغ فيها حنانه المكبوت ... ثم عاد الى جلستهما بجوار النافذة ...

قال :

«احبك يا نادية ... جئت اليك ... لا املك شيئا سوى نفسي» .

«وانا احبك يا عزيز ... احببتك ... لا تملك شيئا سوى نفسك ... واحبك الان لنفس السبب ...»

قالت :

«فيمَ تفكر ...؟»

«افكر في ان الحياة بدون حب لا تساوي شيئا ...»

قبلها وقبلته ... سهرا حتى الصباح ... يتحدثان ... ذراعه ملفوفة حولها ... وراسها تستند على كتفه ...

ومن النافذة شهد الشمس تصعد كرة ملتهبة ترسل دفئها على الكون ...

الانسان قد يكون في القمة ومهزوما ... وقد يرقد في القاع تركله الاقدام.. وتهبط عليه السياط ... ويستنشق الطين والعفن ... ومع ذلك يبقى

منتصرا ...

فالهزيمة بمعناها الحقيقي ... هي فقدان النفس ... والقيم ... والانتصار بمعناه الحقيقي ... هو عودة الانسان الى نفسه ... اكتشافه لها ... واصراره عليها ...

وعندما عاد عزيز في تلك الليلة ... كان ... بكل المعاني المصطلح عليها بين الناس ، مهزوما ... ولكنه في الواقع كان منتصرا ... لانه كان قد وجد نفسه من جديد ...

لم يكن من الممكن ان يعود قبل ان يجدها ... لم يكن من الممكن ان يعود قبل ان يصبح حبه حقيقيا ... ففاقد النفس لا يستطيع ان يحب ... لان نفسه التي يحب بها ضائعة ، لا وجود لها ... الحياة المزيفة تعجز عن الحب ... والحب المزيف يعجز عن الحياة .

***

وعندما نقل الشيوعيون الى معتقل «المحاريق» تفجرت مدينة في قلب الصحراء الحارقة ... مدينة للفن ... والفكر ... والانسان ... فقد بنوا مسرحا مفتوحا على الطريقة الرومانية ... اقاموه بالطوب النيىء ، واحاطوه بمدرجات للمتفرجين ... دكوا المعجنة بأرجلهم حتى كادت الدماء تسيل منهم ... فلم يكونوا قد تعودوا مثل هذا العمل ... وصب احد الضريبة من زملائهم ... الطوب في افريز من الخشب ... ثم تركوه ليجف في الشمس ... كتبوا التمثيليات وهم يجلسون القرفصاء على ارض الزنازين ... فقد كان من بينهم عدد من رجال الفن المعروفين ... وليلة الافتتاح دعوا حاكم الواحة ... والموظفين ... ومنذ تلك الليلة اسبوعا بعد اسبوع ، وشهرا بعد شهر صعدوا خشبة المسرح ... ورن الليل بأجمل كلمات الانسان المصري ... وصعدت اغانيهم الى السماء تنشد للصراع ... والحب ... والارض التي نبتوا فيها ... وضحوا من اجلها ...

لم تكن لديهم ادوات ... ولكنهم صنعوا من الاشياء التي تحيط بهم احتياجاتهم ... من ملابس السجن اثواب ملونة للرجال والنساء صبغوها بالالوان ... ومن البطاطين ستارة زرقاء كالسماء الصافية بعد الغروب تتفتح وتنغلق بالحبال التي نسجوها ، وبحلقات من الحديد اخرجوها من الورشة ... ابتكروا وسائل بسيطة للمكياج ... وآلات موسيقية من الحلل والطبول ، والاسلاك الكهربائية المشدودة كوتر الربابة ...

وعند ركن من اركان الحوش الواسع المحاط بالاسلاك الشائكة ، والحراس ، والبنادق ، اقاموا فرنا للفخار ... صبوا الاواني والاطباق من الطين الاحمر الذي يختبىء تحت الرمال ... وحرقوها في الفرن ... ولونوها ... ورسموا عليها

الزهور ... والى جوار الفرن انشأوا ورشة للتماثيل ... جلس فيها من كان نحاتا قبل ان تقوده افكاره الى هذا المعتقل ... ومن باب الورشة اخذت تخرج التماثيل ... طفل ... كتلة صغيرة منحنية تبكي ... وكم من المعاني تكمن في هذا الطفل الوحيد لاناس حرموا من اطفالهم ... وامرأة فلاحة ... قوية ... فيها كبرياء ... وحركة ... وتحـــد ... وثيران تجر عربـــــة وتلهث ... وحيوانات ، وطيور ... صنعوها كلها من جبس ناصع البياض ...

ثم بحثوا عن مكان يضعون فيه التماثيل ... فقسموا الحوش الامامي الـى قسمين ... الجزء الاكبر حديقة ... ثم بعد الحديقة والمسرح ملعب لكـــرة الـــلة ... وتطوع احد زملائهم ممن لم تنضب مواردهم بعد ... وارسل حارسا من الهابطين الى الوادي في اجازة لشراء البذور ... وعندما جاءت البذور اتخذ لنفسه مهنة جديدة ... مهنة البســتاني ... زرعها وسقاها ... وبات طوال النهار ينتقل من ركن الى ركن ... تحت الشمس الحارقة ... يحفر بفأسه حتى يتخلص من الاعشاب ... ويرعى الاحواض ... ففي كل انسان رغبـــة في ان يصنع شيئا جميلا ... وضعوا مقاعد من الحجارة في الحديقة ... ونصبـــوا التماثيل بين الزهور والاشجار ... وجلسوا امامها ساعة الغروب ... يقرأون.. ويتحدثون .. او يسرحون خارج الاسلاك الشائكة ...

كان فيهم من جميع المهن... حدادون، ونجارون، وطرزية، واطباء، وحلاقون، ومهندسون ، ونساجون ، وفلاحون ... فانشأوا مجتمعا يكتفي بذاته ... هربوا الكتب واقاموا المدارس ... لانفسهم وللسجانة ... فلم يكن السجان يترقـــى وفقا للقانون الجديد الا اذا حصل على الابتدائية ... وكم من السجانة تخرج من «مدرسة المحاريق» ... اما مدارسهم فكل ذي معرفة اصبح يدرس فيها ... اللغات ... والرياضة ... والتاريخ ... والجوغرافية ... هذا الى جـــوار المحاضرات والندوات عن الاقتصاد ، والمجتمع ، والصحة ، والثقافـــــة ... والسياسة ...

ثم بحثوا عن شيء آخر يفرغون فيه طاقاتهم التي لا تنضب ... وعند ركن قصي من المعتقل خلف عنابر الاخوان ... بنى هؤلاء الرجال الملحدون جامعا ... صنعوا فيه نوافذ من الجبس لها تقسيمات دائرية ، ومربعة ، ومستطيلة ... وداخل هذه التقسيمات وضعوا قطعا من الزجاج الملون ... مسحوا على القبـــة حتى اصبحت ناعمة بيضاء كنهد امراة ... ورفعوا مئذنة رقيقة فارعة تسحـــر العين ... ثم انسحبوا ليتركوا الاخوان يصلون فيها ...

داخل العنبر رقم ١ ... (فقد كانوا موزعين على عنبرين احدهما للمسجونين الذين يرتدون لباسا ازرق ... والآخر للمعتقلين الذين يرتدون لباسا ابيض)... خصصوا حجرة لتكون عيادة ... هربوا الادوية ... ثم فيما بعد ادخلوهـــــا رسميا ، عندما صرح لهم بتلقي الطرود ... ونشط النجارون في تركيب الرفوف، وصنع سرير من الخشب ، ثم حصلوا على ثلاثة امتار من الجلد الاخضر الداكن.. حشوها بالقطن ، ودقوا المسامير ليثبتوها ... وهكذا اصبح لديهم سريــــر

للكشف ... وفي هذه العيادة كان يتناوب الاطباء ... مواعيد العيادة من الساعة الثانية حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ما عدا الحالات الطارئة فيوجد نوبتجية منتظمة ... ومركز العلاج هذا كان لهم ، ولرجال الادارة ... وعزيز يتذكر تلك الليلة التي توجه فيها هو واحد زملائه الى بيت المأمور ... لان طفله الصغير بلع اقراصا منومة خطأ ... كان الرجل ينظر الى اقدامهما الحافية في خجل ... وعندما انتهيا من عملية غسيل المعدة ونام الطفل ... احضر لكل منهما خفا من الدولاب ... واجلسهما ليشربا معه القهوة التي لم يتذوقاها منذ سنين ...

وحتى يجملوا الزنازين القاتمة التي تغلب عليها الوان حزينة باردة ... الاسود في القضبان والارضية ، والرمادي في الباب الذي يغلق عليهم ... والبني في الابراش والبطاطين ، جلبوا الالوان وادوات الرسم ... ونشط الرسامون ... فتحولت الابواب الى لوحات ... والممرات التي تمتد على جانبيها الى معرض دائم للفن ...

وحينما اشتدت ازمة الغذاء ... وكادت المؤونة ان تنقطع تماما ، قرروا ان يزرعوا الصحراء ... قال الاخوان ان هذا نوع من الرق ... كالاشغال الشاقة.. لم يبالوا بهذا الكلام ... انهم سيعملون من اجل ان يأكلوا ... ويتحملون ويخرجون الى الحياة بأجسام سليمة ...

عينوا مديرا للمزرعة من احد الفلاحين ... هنا لا توجد طبقات او اسر ... الكفاءة هي وحدها التي تحدد ... حملوا السباخ من المستنقع التي تصب فيه المجاري على عربة تجرها الثيران ... مهدوا الارض ... وقسموها ... وانزلوا فيها المياه من البئر الارتوازي الذي كان قد حفره رجال استصلاح الاراضي ... ثم حرثوها ... وخططوها بالفئوس ... زرعوا فيها الطماطم ، والخيار ، والفجل ، والجرجير ، والبازلاء ، والفول ، والبطيخ ... مساحة خمسة وثلاثون فدانا تتخللها الاشجار ... بساط اخضر يتماوج في الريح ... كالواحة وسط الصحراء .

ولأن المياه التي تصعد من البئر ساخنة تقتل الزرع كان لا بد من تخزينها ليلا ثم استخدامها للري في الصباح ... فاستعملوا الثيران والمحراث، والفئوس، والاكتاف ... وحفروا حوضا مستطيلا طوله اربعون مترا وعرضه عشرون مترا وعمقه متر ونصف ... اطنان من الرمل والصخر الاحمر رفعوها بالجهد والعرق ... ثم اوصلوا المياه الى الحوض بقناة ولما وجدوا ان الحوض يبدو عاريا ... زرعوا حوله الزهور المائية ... فارتفعت اعواد خضرا تحمل كئوسا كبيرة من البرتقال والبنفسج ...

وكان عزيز يحب المزرعة ... يحفر الارض بفأسه ... ويستنشق رائحة الفول عندما تتفتح زهوره البيض فينتقل عطرها الرقيق مع الرياح ... ويستريح متكئا على اليد الخشبية ، بينما تندفع المياه السمر عبر الحقول ... ويحس بها منعشة حول قدميه ... عندئذ كان يرفع رأسه ويجول بعينيه حول المزرعة ...

كان احب وقت بالنسبة اليه الايام التي يتاخرون فيها حتى ما قبل ساعة الغروب بقليل ... عندئذ تهب نسمات الهواء على وجهه وصدره العاري... وتتموج اعواد الفول ... واحواض الجرجير والفجل الاخضر ... وينسكب على الكون ، وعلى المياه ، ذلك اللون الوردي الذي تطلقه الشمس الغاربة ... يقف في صمت ويتبع زملائه ، يستعدون للعودة ... يغتسلون الى جوار العين ، ويتحدثون ، ويضحكون ... في هذا الوقت كان يحس بلحظة من الحزن ولكنها لم تكن مؤلمة ... ويحس بالحب نحو هؤلاء الذين خلقوا مدينة صغيرة تتفجر بالفن والازهار ... والخضرة والاغاني ...

ولكن فيما بعد قدّر له ان يعود الى الواحات في مهمة فقرر ان ينتهز الفرصة ليزور معتقل المحاريق .

في الصباح الباكر ركب سيارة جيب ليقطع المسافة بين الواحة وموقع المعتقل ... مساحات الرمال تعلو وتهبط في كثبان صغيرة ناعمة ارتفعت كالامواج في عواصف الريح ... والسماء هادئة تتامل الصحراء ... عالم لا نهائي مهجور ...

دلف من باب المعتقل وعبر الحوش ... يسمع وقع اقدامه في الصمت المطلق ... الحديقة تحولت الى حشائش جافة وتراب ... تتخللها اكوام صغيرة من الحجارة البيض المسحوقة حيث كانت التماثيل ... تجول بعينيه حول الحوش الواسع ... خرائب ... المسرح انهار وتحول الى ركام من الطوب ما عدا ركن من الجدار حيث كانت حجرة الملابس ... صعد المدرجات وتوقف ... المتفرج الوحيد ... صمت القبور حيث كانت ترن اصوات ملأى بالحياة ... خضرة الحديقة ما زالت آثارها باقية ... سار الى العنبر ... ممرات مظلمة ... خطواته فوق البلاط صدى اجوف ... ابواب مخلوعة ... لا اثر للوحات ... انتابه احساس ثقيل بالزمن ... يد ضخمة تعتصر حياتهم ...

خرج من العنبر ... وعاد الى السيارة ... قرر الا يذهب الى المزرعة ... سيجدها مدفونة تحت رمال الصحراء ... لا زرع ... ولا زهور ... ولا اشجار ... الصحراء زحفت على كل شيء ...

ركب القطار الى نجع حمادي في نفس اليوم ... بطيء ... يتلوى فوق القضبان ... شيء ثقيل في قلبه كالحجرة ، استقرت ولا تريد ان تتزحزح ...

نعم لقد خرجوا الى الحياة ... ولكن كم من الحدائق جفت ... وكم من الزهور ماتت ... منذ ان تفرقوا ... وانفصم الرباط الذي كان بينهم ...

روايات وقصص

صادرة عن دار الطليعة

العين ذات الجفن المعدنية	د. شريف حتاته
جناحان للريح	د. شريف حتاته
الهزيمة	د. شريف حتاته
شرق المتوسط	د. عبد الرحمن منيف
المناضل	عزيز السيد جاسم
الدار الكبيرة ـ الحريق ـ النول(ثلاثية)	محمد ديب
العنقاء	لويس عوض
العصاة	صدقي اسماعيل
البيضاء	د. يوسف ادريس
مسحوق الهمس	د. يوسف ادريس
الحوار الاخرس	ليلى عسيران
لن نموت غدا	ليلى عسيران
زمن الرعب	انعام الجندي
ذكرى الايام الماضية	رشاد ابو شاور
رصيف العذراء السوداء	د. عبد السلام العجيلي
الخائن	د. عبد السلام العجيلي
.... وقصص اخرى	سميرة عزام
حين قرع الجرس	توما الخوري
الظل في الراس	عبد الرحمن مجيد الربيعي
الوشم	عبد الرحمن مجيد الربيعي

٥٤١ / ٢٠٠٠

هذا الكتاب

« .. ومن النافذة شهد الشمس تصعد كـرة ملتهبـة ترسل دفئها على الكون ... الانسان قد يـكون فـي القمة ومهزوما.. وقد يرقد في القاع تركله الاقدام.. وتهبط عليه السياط .. ويستنشق الطين والعفن .. ومع ذلك يبقـى منتصرا .

فالهزيمة بمعناها الحقيقي .. هي فقـدان النفس .. والقيم .. والانتصار بمعناه الحقيقي .. هو عودة الانسان الى نفسه ... اكتشافه لها ... واصراره عليها ...

وعندما عاد عزيز في تلك الليلة... كان...بكل المعاني المصطلح عليها بين الناس .. مهزوما ... ولكنه في الواقـع كان منتصرا ... لانه كان قد وجد نفسه من جديد ...» .

هذه الرواية هـي الجزء الثالث مـن ادب الوطنيـة وأدب السجون « العين ذات الجفن المعدني » .

الثمن : ١١,٥٠ ل.ل.
أو ما يعادلها

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت